عشرون قرنًا في موكب التاريخ

عرض موجز للأحداث المهمة في تاريخ

الكنيسة المسيحية وسير

مختصرة لبعض الشخصيات

البارزة في غضون

عشرين قرنًا

تأليف

حبيب سعيد

الكتاب: عشرون قرنًا في موكب التاريخ

الكاتب: حبيب سعيد

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

سعيد ، حبيب

عشرون قرنًا في موكب التاريخ/ حبيب سعيد

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٤٥ ص، ١٨ * ٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٩ – ٩٦ – ٦٨٢٣ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٣٣٢٧ / ٢٠٢٠

عشرون قرنًا في موكب التاريخ





تمهيد

بزغ فجر المسيحية وكان علم النسر الروماني يرفرف فوق البلدان الواقعة على ضفاف نهر الرين والدانوب في الغرب ونهر النيل والفرات في الشرق وفوق أكثر البلدان الواقعة في حوض البحر الأبيض المتوسط. وكانت الإمبراطورية الرومانية قد بلغت أوج مجدها وعزها وازدهرت الحياة في الأقاليم والولايات تحت سلطان حكومة مركزية رشيدة وخضع الجيش كله لإرادة جديدة واحدة وساد السلام والأمن داخل الإمبراطورية ــ وإن يكن سلامًا رومانيًّا **Pax Romana** فرضا بالقوة والبطش ــ ونشطت التجارة في طرق ممهدة معبدة امتدت من الشرق إلى الغرب.

وإلى جانب العظمة الرومانية، كنت ترى الثقافة اليونانية التي مالت إلى تحكيم العقل في كل حقائق الحياة والعالم وتعشقت الفن والجمال والشعر والفلسفة وجالت جولات صادقة حول وظيفة الدولة وواجباتها والحرية ومعانيها وواجبات الفرد وحقوقه...

وبينما امتاز الروماني في القرن الأول بالقوة المادية والطموح إلى العظمة والجاه وبسط النفوذ وسعة السلطان وتعبيد الطرقات، كان اليوناني مثال الأناقة في الصناعة والجمال في الفن والتعمق في الفلسفة العقلية.

ولقد مهد الروماني– وهو لا يدري– الطريق إلى المسيحية بشرائعه الحكيمة وطرقاته المعبدة وإدارته الحازمة وعبقريته السياسية ومرونته المدهشة. كما مهدها اليوناني بعقليته الباحثة المنقبة وفلسفته العميقة وتفكيره الحر ولغته العذبة وميله إلى الإقناع والاقتناع وتعشقه طريق الحياة الجميلة والآداب الإنسانية الرفيعة.

ولكن تلك الثروات المادية عند الرومان والثقافة الذهنية عند اليونان، قد أعوزها الخير الأسمى لأن انحلالًا روحيًّا كان قد انساب إلى أنفس البشر؛ إذ إن الآلهة

القديمة نزلت من فوق عروشها وخلت هياكل جوبيتر وأبولو من ذلك الإيمان الساذج الذي اعتصم به القوم يومًا، كذلك خلت السماء الأولمبية من آلهتها التي حفلت بها قديمًا في أشكال من الجمال المثالي الرائع وأوضاع من القوة الخارقة وأسست

مجرد صور تتغنى بها الخيالات الشعرية ورغب العالم المثقف عن آلهة هوميروس واستورد آلهة من الخارج، مثل: إيزيس وأزوريس وعبادة الفرس.

وليس معنى هذا أن العالم الوثني قد أضاع كل إحساس بحاجته للدين، فإننا نلمح في القرنين الأول والثاني من تاريخ الإمبراطورية تطورًا في النهوض الديني، نتمثله في أفاضل الفلاسفة والحكماء أمثال ماركوس أوريليوس وسينيكا وتجريد الآلهة القديمة من مظاهر بهائها ورونقها الخلاب واتجهت الفلسفة بقلوب الناس وأبصارهم إلى الإله الواحد الأسمى. وكأنما كانت تلك الفلسفة المعلم الهادي الذي أرشد العالم الوثني إلى المسيح، كما أرشدت الشريعة اليهودية شعب اليهود إليه. على أن الوحدانية التي مالت إليها تلك الفلسفة القديمة عجزت عن الحلول محل عقيدة تعدد الآلهة وفشلت فشلًا ذريعًا في إحياء عالم كان على وشك الفناء الروحي ولم تزد الناس إلا لهفة وشوقًا نحو الإله الحق الذي جهلوه.

أما عامة اشعب، فقد أُغرقوا في خرافات وخزعبلات شتى؛ فلكل مدينة إلهها أو آلهتها ولكل حرفة أو تجارة ربها وحاميها ولحوادث الحياة مثل الميلاد والزواج آلهتها أيضًا ونشطت بين البسطاء والجهلاء شعوذة السحرة والمنجمين والعرافين وكان أغلب هؤلاء من العنصر اليهودي. وفضلًا عن هذا كله، فقد اقتنع عامة الشعب بأن الاحتفاظ بالعبادات والنظم الدينية القديمة من مقتضيات بقاء الدولة وحفظ الأمن فيها، فإن حاد الناس عنها، حاقت بهم المصائب والنكبات– وقد كان لهذه الفكرة أثرها في اضطهاد المسيحية فيما بعد. على أن الفهماء والمثقفين لم يفعلوا شيئًا لمناهضة الآراء السائدة بين عامة الشعب؛ لأنهم ظنوا أن الأديان القديمة تمثل دور رجال الشرطة وحسبوا هذه المظاهر الدينية الخارجية ضرورة لا غنى عنها للعامة.

وقد حاول الأباطرة من أصحاب النفوذ والسلطان ــ لأسباب وطنية ــ تقوية هذه العبادات القديمة المألوفة وتحويلها إلى عبادة الدولة، وعلى رأسها الإمبراطور، وتطورت الفكرة فصارت (عبادة الإمبراطور نفسه) وفشت في كل أنحاء الإمبراطورية ونصب لها كهنة رسميون تحت إشراف الدولة واقترنت بكثير من المظاهر الرسمية والحفلات والألعاب. وكانت تلك العبادة وطنية أكثر منها دينية. وقد تقزز المسيحيون بداية من هذه العبادة وحسبوها خيانة لعهد الولاء لربهم، وكان هذا الموقف باعثًا من بواعث الاضطهاد الذي عانوه في العصر الأول.

***

هذه نظرة سريعة على العالم الوثني– الروماني واليوناني– عند بزوغ فجر المسيحية وهو العالم الواسع الذي أحاط بها. ولكن عالما ضيقًا آخر كان له شأن مع المسيحية عن نشأتها، هو العالم اليهودي. وقد خضعت ولاية اليهودية– في فلسطين– للحكم الأجنبي منذ اجتاح نبوخذ نصر أورشليم سنة ٥٨٦ ق.م. وصارت جزءًا من الإمبراطورية الأشورية القديمة وخلفائها من بعد الفرس والإسكندر المقدوني. ولما تحطمت إمبراطورية هذا الأخير، خضعت اليهودية لبطالسة مصر ومن بعدهم للأسرة السلجوقية في إنطاكية. على أن اليهود مع خضوعهم سياسيًّا لهذه الدول المتعاقبة، ظلوا حريصين على شعائرهم ونظمهم الدينية. وكانت الأسر الكهنوتية الوراثية هي الطبقة الأرستقراطية في البلاد. عنيت بالشؤون السياسية ولم تعن إلا قليلًا بالشؤون الدينية وكانت وظيفة (رئيس الكهنة) مطمع زعماء الأمة لما كانت تدره من المغانم المادية وما لابسها من النفوذ السياسي وقد اشترك مع صاحب هذه الوظيفة، في إدارة الهيكل وتصريف الشؤون الدينية وبعض المسائل السياسية، هيئة– يرجع تاريخ إنشائها إلى عصر الحكم اليوناني– من المستشارين والشراح القانونيين سميت مجلس (السنهدريم) قوامها واحد وسبعون عضوًّا.

وكان الناموس اليهودي قانونًا دينيًا ومدنيًا في الوقت نفسه أشبه بالشريعة الإسلامية في بعض بلدان العالم الإسلامي اليوم وكان شراحه والمجتهدون فيه- الذين أطلق عليهم لقب (الكتبة)- قادرة الشعب الدينيين وكانت أساس اليهودية الأسفار المقدسة وما استنبطه الشراح والأحبار من أحاديث وأحكام لا عد لها ولا حصر. وتماشيًا مع الرغبة في الاستزادة من شرح الناموس وفهمه ومن الصلوات والعبادة، قام المجمع اليهودي حيثما حلت اليهودية. ولعل تاريخ إنشاء المجمع يرجع إلى عهد السبي. وكان المجمع مكانًا محليًا لاجتماع كل اليهود في المنطقة التي وجد بها تحت رئاسة نفر من (الشيوخ) يتزعمهم رئيسهم وكان لهؤلاء سلطة الحرم ومعاقبة المعتدين. أما عباداته، فكانت في منتهي البساطة يقوم بها أي عبراني، وإن كانت قد جرت أن يقوم بها عادة رئيس المجمع وشملت الصلوات وقراءة الناموس والأنبياء والشرح (العظة) والبركة. وبسبب هذه المجامع، قلت قيمة الهيكل في حياة الشعب الدينية إلى أن أنهار وتحطم في سنة ٧٠ ب.م دون أن يترتب على ذلك انهيار اليهودية.

وقد استقلت ولاية اليهودية حقبة من الزمن من سنة ١٦٧ ق.م عقب ثورة المكابيين، إلى أن اجتاحها الرومان سنة ٦٣ ق.م. وفي عهد المكابيين، انقسمت اليهودية أحزابًا دينية. فالحزب الأرستقراطي السياسي الذي انضم إليه أسر زعماء الكهنة عرف بالصدوقيين. وكان حزبًا عالميًا لم يعبأ بالعقائد الدينية. وكانت أكثر نظرياتهم مستقاة من اليهودية القديمة المحافظة، فتمسكوا بالناموس فقط دون الأحاديث والأحكام المستنبطة وأنكروا القيامة وخلود النفس. ومع نفوذهم السياسي، لم يحظوا بحب الشعب لهم وهو الذي كرهه كنفوذ أجنبي غريب واعتصم بالناموس كما شرحته التقاليد والأحاديث. وكان من أنصار هذا الموقف الشعبي حزب آخر أسموا أنفسهم الفريسيين، أي الانفصاليين، ومن هذا العهد يبدأ النضال الطويل بين الصدوقيين والفريسيين.

ولم يكن الفريسيون حزبًا سياسيًا. وعلى الرغم من إعجاب كثرة الشعب بهم وسيله إليهم، ما كانوا على كثرة في العدد؛ لأن اليهودي العادي لم يكن له حظ من

التعليم ولا سعة من الوقت، يسمحان له بالتبحر في دقائق الشريعة وتفاصيلها ليكون فريسيا قحًّا. وقد عنى أولئك الفريسيون شديد العناية بالناموس ودقائقه وأحكامه وآمنوا بالأرواح الصالحة والشريرة والملائكة والشيطان وبالقيامة بعد الموت وبالثواب والعقاب في الآخرة وأشرأبت أعناقهم وتلهفت قلوبهم لتحقيق رجاء المسيح الموعود به وكانوا في هذا كله على نقيض مع الصدوقيين.

وإن أولئك الفريسيين جديرون بشيء من الإعجاب والتقدير، فمن هذه الفئة تجند أكثر أتباع المسيح الأولين وكان رسول المسيحية الأكبر– بولس– فريسيًّا. على أن الذي يعابون عليه نظرتهم إلى الدين كمجرد ظواهر خارجية وأداء فرائض يجزون عنها خير الجزاء، دون أن تقترن هذه الظواهر بالبر الداخلي الحقيقي وبالصلة بالله والأنس به. ثم أنهم أخرجوا من المواعيد الإلهية عامة الشعب الذين عجزوا؛ بسبب ذنوبهم وتقصيرهم في حفظ أحكام الشريعة عن بلوغ المستوى الفريسي الكامل وأبعدوا (الخراف الضالة) عن بيت إسرائيل، ولهذا دانهم المسيح بوازع الكلم وقارص الألفاظ.

وقد كان هذا الأمل المرموق في مجيء المسيح قبله أنظار الفريسيين وعامة الشعب معا وكان الباعث إليه الشعور القومي الحاد والإيمان بالله ويبلغ هذا الشعور ذروته في فترات الإرهاق والظلم. فإن هذا الرجاء لم يشعر به إلا قليلًا في عهد المكابيين وهي فترة الاستقلال القومي، ولكن لما اجتاح الرومان البلاد وأحس الشعب بوطأة الاستعمار الأجنبي، قويَ هذا الأمل مرة أخرى وتوقعت الأمة تدخلًا إلهيًّا يمحق السلطة الرومانية الغاشمة بقوة المسيح الخارقة ويقيم ملكوت الله الذي تبعث فيه اليهودية من جديد تحت حكم ملك بار من نسل داوود ويعود أشتات اليهود من كل أنحاء الإمبراطورية إلى الوطن القومي في اليهودية ويبدأ العصر الذهبي في تاريخ الأمة.

وكانت فلسطين موطن اليهودية ومهد المسيحية. على أنه كان لشتات اليهود في أرجاء الإمبراطورية أثر عظيم في تاريخ المسيحية. وقد بدأ هذا الشتات منذ الغزو

الأشوري والبابلي وازدادت هجرة اليهود من فلسطين في حكم البطالسة وفي أوائل عهد الإمبراطورية الرومانية. وقد قيل إن عدد المهاجرين من اليهود يعادل خمسة أو ستة أضعاف اليهود الذين بقوا في اليهودية وكانت لهم جاليات كبيرة العدد في الإسكندرية ومدائن سوريا وآسيا الصغرى وقلما خلت منهم مدينة من مدن الإمبراطورية كلها. وبسبب تعصبهم لعنصريتهم، لم تتوثق بينهم وبين الشعب الوثني الروماني روابط من المودة، على أنهم كانوا موضع احترام الحكام والولاة لبراعتهم في التجارة وولائهم لدينهم واعتصامهم بالأخلاق السامية أحيانا كثيرة. وكانوا شديدي الرغبة في اكتساب الدخلاء إلى دينهم بالحث والدعوة إليه وكانت يهوديتهم بسيطة خالية من التعقيد الفريسي الفلسطيني، فنادوا بإله واحد أعلن ذاته في أسفاره المقدسة ودعوا إلى التمسك بالأخلاق الكريمة والإيمان بالخلود والعقاب والثواب وبعض الطقوس الأخرى، مثل: حفظ السبت والختان والعبادة في المجمع في وضع خال من الطقسية المحكمة الدقيقة. فمال كثيرون من الوثنيين إلى دعوتهم هذه وأقبل إلى المجمع كثيرون من الدخلاء الأتقياء الذين غدوا فيما بعد نواة دعاة المسيحية الأولين.

وقد تأثرت يهودية الشتات بالفلسفة الإغريقية وخاصة في مصر، فترجمت أسفار العهد القديم إلى اللغة اليونانية بمدينة الإسكندرية وهي المسماة بالترجمة السبعينية وامتزجت أيضًا في الإسكندرية آراء العهد القديم الدينية بالآراء الفلسفية اليونانية وخاصة الأفلاطونية والرواقية. وكان أشهر الشراح السكندريين وأبعدهم أثرًا العلامة اليهودي (فيلو) الذي اعتقد أن الكتاب المقدس أحكم الكتب جميعًا ووحي إلهي صادق وأن موسى أكبر الحكماء والمعلمين إطلاقًا ولكنه بطريق الاجتهاد والتأويل والتخريج وفق بين آراء الكتاب المقدس وبين أفضل الآراء والمذاهب في الأفلاطونية والرواقية. وكان لهذا المزج والتوفيق أعمق الأثر فيما بعد في نشوء الاصطلاحات اللاهوتية المسيحية وفي دراسة الكتاب المقدس.

***

وفي هذا الكتاب الذي نقدمه لقراء العربية، سنلقي نظرات خاطفة على تاريخ المسيحية في العشرين قرنًا التي سلخها هذا التاريخ المجيد من الزمن الطويل. وسنحاول أن نسجل في كل قرن بعض الأحداث البارزة في عرض تاريخي موجز وترجمة مختصرة لشخصية أو أكثر من الشخصيات التي كان لها بعض الشأن في تطور تلك الحوادث. ولا ندعي أن يكون هذا الكتاب المتواضع تاريخًا شاملًا لأكبر حركة عرفها تاريخ البشرية، فما هو إلا قطرات تتحلب من جبل أو نظرات طائر يلقيها من علٍ وهو يتنقل من دوحة إلى دوحة.

على أننا نأمل أن يسد بعض الفراغ الذي يحسن به العالم العربي وهو يكاد يكون خاليًا من المؤلفات الحديثة في تاريخ الكنيسة.



القرن الأول

يبدأ العصر الرسولي من يوم الخمسين وكان التلاميذ الحواريون قد آمنوا أن موت سيدهم لم يكن نهاية الأشياء وأن قيامته قد فتحت لهم فتحًا مبينًا. وقد بلغت هذه الاختبارات ذروتها في يوم الخمسين، يوم غادرهم السيد صاعدًا إلى مجده بعد أن وكل إليهم أن يكونوا خلفاء له في بث مبادئه ودعوة الناس إلى طاعته والولاء له. ويحسب يوم الخمسين عيد ميلاد الكنيسة وبداية عهد جديد للدعوة المسيحية في العالم.

وأظهر تاريخ تلك الفترة أن الجماعة المسيحية في أورشليم تكاثر عددها سريعًا وانضم تحت لوائها جمع غفير من اليهود الذين كانوا في الشتات من قبل ومن مواطني الجليل واليهودية ومن كهنة العبرانيين أنفسهم. وكانت تلك الجماعة نواة الكنيسة المسيحية التي قدر لها فيما بعد أن تكون دوحة كبيرة تمتد أطرافها إلى كل أنحاء المعمورة. وقد أبدت تلك الجماعة الناشئة ولاءها في أول الأمر لعبادة الهيكل والناموس اليهودي ولكنها مارست أيضًا عبادتها الخاصة وأقامت الصلوات والوعظ وفريضة كسر الخبز في دور الأفراد. وكان لفريضة (كسر الخبز) غرض مزدوج؛ فكانت شعارًا للرابطة المشتركة بين التلاميذ وأنصارهم ووسيلة لسد أعواز المحتاجين. وأهم من هذا وذاك كانت الفريضة إحياء لذكرى العشاء الأخير الذي تناوله المسيح مع تلاميذه قبيل الصلب.

أما نظام الكنيسة في ذلك العصر الأول فكان بسيطًا جدًّا. فقد تولى بطرس الزعامة في أول الأمر واقتضى توزيع الإحسان على المحتاجين والمعوزين إنشاء هيئة من سبعة أشخاص دعوا شمامسة. وقد عمر قلب تلك الجماعة الأولى بالإيمان في عودة المسيح سريعا (الذي ينبغي أن السماء تقبله إلى أزمنة) ونادت بأن خلاص إسرائيل لن يكمل إلا إذا ندم الشعب وأناب عن ذنبه القومي في رفض المسيح الذي جاء إليه هاديًا ومنقذًا وجعلت علامة هذه التوبة المعمودية في الماء باسم المسيح عربونًا على الولاء له وعلامة على التطهير من الذنوب والخطايا والصلة الجديدة بالله وقبول نعمة روحية من لدنه تعالى.

وقد كان من آثار المناداة بهذه الدعوة الجديدة أن خشي اليهود الفريسيون على الطقوس التاريخية المتوارثة، فقتلوا استفانوس الشهيد الأول رجمًا بالحجارة بأيدي الغوغاء، فتبعثرت الجماعة المسيحية في أورشليم وهرب بعض أفرادها ليضعوا البذار في أرض خارج المدينة المقدسة في أنحاء اليهودية والسامرة وقيصرية ودمشق وأنطاكية وجزيرة قبرص.

اليهودية خصيمة المسيحية:

ومن ثمَّ نرى اليهودية الفريسية أول عدو للكنيسة منذ نشأتها؛ لأنها نبتت في عهد الصراع الباسل الذي قامت به أسرة المكابيين واحتضنت آمال اليهودية القومية وصانت نفسها من كل الأدناس الوثنية واعتصمت بالبر الذاتي. وكانت ميول غالبية الشعب فريسية؛ لأنهم ألفوا فيها إرواء لظمأهم القومي وحافزا على كراهة الغاصب الأجنبي وأملًا في إعادة مملكة يهوذا وعلى رأسها المسيح الموعود به. والآن تظهر هذه الدعوة المسيحية الغريبة، فتقضي على كل الأماني العذاب وتنادي بالتحرر من كل شريعة وناموس وتدعو اليهود والوثنيين إلى الإيمان بمسيح مصلوب مقام بدلًا من المسيح اليهودي الذي ترقبه الشعب في مجد ورواء وسؤدد أرضي. وكان اليهود وبعض المسيحيين أنفسهم في بادئ الأمر يؤثرون أن يكون الدين الجديد مجرد نهضة حديثة في الدين اليهودي.

ولا عجب أن تكون اليهودية الفريسية عدو خصيم للدعوة المسيحية في أورشليم وتثور لاضطهاد أنصارها والتنكيل بهم. فبعد رجم استفانوس الشهيد الأول، قطعت رأس يعقوب أخي يوحنا أحد التلاميذ الاثنى عشر (سنة ٤٤م) وأودع بطرس غيابة السجن ولكنه نجا من الموت بأعجوبة ورجم يعقوب الآخر رئيس مجمع أورشليم (سنة ٦٢م). وعلى إثر هذا الاضطهاد القاسي، فرَّ كثيرون من المسيحيين كما قلنا ولم يبق من الزعماء في أورشليم إلا نفر من الرسل. وكان بطل هذا الاضطهاد شابًا فريسيًا متحمسًا يدعى شاول الذي صار فيما بعد رسول المسيحية الأكبر، فغدا فارس اليهودية الغيور وربيب الناموس وحاميه، رسولًا لليهود والأمم على حد سواء. [1]

([1]) اقرأ (سيرة رسول الجهاد) للمؤلف.

على أن هذا الاضطهاد الذي كان له الفضل في نشر الدعوة خارج أورشليم، لم يتمكن من إطفاء الجذوة التي اضطرمت في أورشليم ذاتها وظلت الكنيسة تناضل بزعامة الرسول يعقوب– قبل استشهاده في سنة ٦٢م.

اليهودية الضيقة:

ومن دواعي الأسف أن تسربت الروح الفريسية إلى الكنيسة ذاتها؛ وذلك لأن كثيرين من الفريسيين الذين اعتنقوا المسيحية لم يصهروا من ماضيهم كما صهر بولس الرسول، فظهرت داخل الكنيسة النزعة الفريسية– أو المسيحية اليهودية– وكان هدف هذه النزعة تهود المسيحية. ولقد آمن الفريسيون المسيحيون أن المسيح المصلوب هو المسيح ولكنهم زعموا بأن الخلاص بالمسيح وقف على اليهود فقط، فالذي يعتنق المسيحية من شعوب الأمم الخوارج يتحتم عليه– في عرفهم– أن يتهود أولا ويختتن ويحمل على منكبيه أعباء الشريعة اليهودية. ولم تكن هذه المسيحية في الواقع إلا وضعًا جديدًا لليهودية. وكأنما أراد القوم ضيقو الفكر أن يجعلوا من هذا الدين العالمي الجامع دينًا قوميًّا ضيقًا.

على أن هذه المسيحية اليهودية الضيقة تنقض تعاليم الذي دعا إليه جميع الناس دون تمييز ولا تفريق وفتح ملكوته لليهود والأمم على السواء. بل تتناقض أيضًا مع المسيحية البدائية في نشأتها وكان بولس في ذلك الوقت قد شرع في حمل الدعوة إلى البلدان الوثنية الأممية وأخذ الناس يقبلون المسيحية في مدائن آسيا الصغرى وغيرها. وكان ذلك الفريسي المتنصر أكبر الثائرين على أنصار المسيحية اليهودية الضيقة ولم ينشب الخلاف بينه وبين الرسل المتقدمين في السن، فإن هؤلاء قد (أعطوه يمين الشركة) (غلا ٢: ٩). ولكن الخلاف شجر بينه وبين (الإخوة الكذبة، المدخلين خفية الذين دخلوا اختلاسًا ليتجسسوا حريتنا) (غلا ٢: ٤).

وليس في الأمر غرابة، فماء النهر يتخذ لونه من بطن الوادي الذي يجرى فيه، كذلك تلونت المسيحية بالتربة القومية اليهودية التي امتزجت بها ولم يكن مناص من تأثر

المسيحية في أول عهدها بالنزعة اليهودية وأن تظهر هذه المسيحية اليهودية الضيقة. وقد كانت قوية النفوذ حتى جعلت بعض الرسل المتقدمين أنفسهم يترددون ويدارون. على أن بطرس ويوحنا وحتى يعقوب وهو أشد الرسل تمسكًا بالشريعة اليهودية، قد أعطوا يمين الشركة لبولس وآمنوا على العمل الذي قام به في قبول الأمم إلى أحضان المسيحية دون إخضاعهم لأعباء الناموس وتم الاتفاق بين الطرفين على أن يبث بولس الدعوة بين الأمم الوثنية ويتولوا هم نشرها بين اليهود (غلا ٢: ٩). على أننا لم نسمع فيما بعد شيئًا عن هذا التقسيم والذي يرجعه المؤرخون أن بطرس نفسه جاهد مع بولس في رومية وكانت له علاقة وطيدة بالكنيسة في كورنثوس وكان بولس واضع أساسها (كور ١: ١٢). واتصل يوحنا اتصالًا وثيقًا فيما بعد بالكنائس التي أنشأها بولس في آسيا الصغرى وخاصة في أفسس. وعلى الرغم من هذه الفوارق كلها والاختلاف في الرأى الذي بلغ في كنيسة كورنثوس حدًّا جعلها تنقسم إلى أربعة أحزاب حتى في عهد بولس مؤسسها (اكور ١: ١٢)، فإننا نرى نهضة موحدة تسير كنهر جارف في الكنائس كلها ويلمح المؤرخ مسيحية واحدة تسير بخطى ثابتة متزنة لا تعوقها عراقيل الناموس اليهودي.

الوثنية تكشر عن أنيابها:

حمل الرسل– على رأسهم بولس– الدعوة إلى أرجاء الإمبراطورية الرومانية وغرسوا في أماكن متفرقة هنا وهناك بذار جماعات مسيحية قليلة العدد في أول أمرها وانتقل هذا الدين الجديد من أورشليم إلى حواضر الإمبراطورية، فبلغ رومية والإسكندرية في منتصف القرن الأول. وبين هاتين المدينتين الكبيرتين انتشرت الكنائس في اليونان ومقدونية وآسيا الصغرى وسورية وبدت الجماعات المسيحية في أول عهدها أشبه بالمنتديات أو الهيئات الدينية الكثيرة التي حفلت بها الإمبراطورية الرومانية يومئذ.

ولكن ما أعظم الفارق بين هذه وتلك! فأين تلك الهيئات والنقابات الدينية، أين هي الآن؟ لقد عصفت بها أحداث التاريخ، فتبخرت ولم يبق لها أثر ولم يخلد بين تلك الجمعيات الدينية في الإمبراطورية الرومانية غير المجمع اليهودي والكنيسة المسيحية. وكان

الفضل في بقاء الأول النزعة القومية اليهودية المتقدة. أما الكنيسة المسيحية، فلم تستند إلى أي دعاية قومية ولكن خلدت وسط العواصف والأنواء لما انطوت عليه من قوة دينية باهرة، حقًّا أن التاريخ هو أصدق الحاكين!

ولم يكن لدين آخر من القوة في تطور الثقافة ورقي الإنسانية ما كان للمسيحية. لذلك غلبت في آخر الأمر، وما كان إلى جانبها الجحافل الرومانية الظافرة ولا الفلسفة والعلوم القديمة، بل قوة الحق الإلهي وهو أقدر من سائر القوى الأرضية.

وبفضل الروح المضطرم فيها، استطاعت الكنيسة المسيحية أن تدوم بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية العظيمة وأن تقرن العالم القديم بالحديث وتكون مهذبة أجيال التاريخ المقبلة.

ولم تكن طريقها لينة سهلة؛ فقد رأينا أنها اصطدمت أولا باليهودية عدوتها الأولى والآن تصطدم بالعالم كله وكان العالم رومانيًا في ذلك الزمن. وفي هذا النضال العنيف بين الكنيسة والإمبراطورية، كان الظفر للأقوى روحيًّا لا ماديًّا.

كانت الإمبراطورية وثنية، فماذا كان موقف الوثنية حيال المسيحية؟ سرعان ما ظهرت المسيحية حتى كشرت لها الوثنية عن أنيابها الغليظة، فشب الحريق المفتعل في رومية سنة ٦٤ ب.م وألصقت التهمة بالمسيحيين ووقع في هذا الاضطهاد القاسي كثيرون من المسيحيين فرائس بين أيدي الجماهير الصاخبة وأهدرت دماؤهم وأحرقت جسومهم وأشعلت فيهم النيران. وكان بولس الرسول نفسه أسيرًا في رومية في تلك الفترة وهناك ختم جهاد بدمه حوالي هذا التاريخ. ويقال إن الرسول بطرس استشهد أيضا هناك في فورة من فورات الاضطهاد.

وإن اللهب التي تسعرت في عاصمة العالم في ذلك الزمن الذي اكتوت بها أجساد المسيحيين الشهداء الذين كانوا يعلقون كمشاعل لإضاءة حدائق نيرون الطاغية– هذا اللهب وتلك كانت بمثابة أنوار وهاجة تقدمت الكنيسة لتتخذ مكانها الرفيع في تاريخ العالم وإلى ذلك الحين كان القوم يخلطون بين المسيحيين واليهود. أما الآن، فلأول مرة

يتميز هؤلاء عن أولئك وتلصق تهمة إحراق رومية بالمسيحيين لا اليهود.

وقد عمل تحقيق هذه التهمة الكاذبة وثبتت براءة المسيحيين من تهمة الحريق ولكنهم وجدوا مذنبين (لكراهيتهم الجنس البشري كله)، وإنه لعجيب حقًّا أن يبدو دين المحبة في نظر الرومان دين الكراهية والأعجب أن يكون الرومان هم الذين ينطقون بهذا الحكم.

ورسخ الاعتقاد في نفس الروماني أن مدينته وإمبراطوريته سيبقيان أبد الدهر. هذه كانت عقيدته الوطنية ولكن المسيحي آمن في قرارة نفسه بأن المدينة العظيمة ستدمر وأن الإمبراطورية، بل العالم كله سيزول وآمن أيضًا بأن المملكة الوحيدة الخالدة هي مملكة المسيح– ملكوت الله. والحق أن الكنيسة الأولى آمنت بأن نهاية العالم قريبة على الأبواب؛ فإن التلاميذ الأول رأوا المسيح الذي قام من الأموات واقتنعوا بأنهم سيرونه في حياتهم الأرضية مرة ثانية في مجد وجلال ليدمر نظام الأشياء الأرضية ويدين الأحياء والأموات. وقد تاقت نفوسهم إلى هذا اليوم توق العروس إلى لقاء عريسها وتوقعوا سقوط مملكة رومية ليقوم على أنقاضها ملكوت الله. ومن هنا كانت خيانتهم لوطنهم في عرف الرومان وكراهيتهم للإمبراطورية الرومانية، بل (للجنس البشري قاطبة) على حد قول الرومان.

من ثم نرى الوثنية تقف أمام المسيحية وجهًا لوجه. وقد كانت الدولة في نظر العالم الوثني القديم الخير الأسمى والمثل الأعلى؛ ففي خدمتها والولاء لها تمثلت كل الفضائل الأدبية وكان واجب الرجل أن يعيش ويموت في سبيل هذا المبدأ. لذلك استعار العالم الروماني عبادة الإمبراطور من بعض العبادات الشرقية القديمة وجعلت الوثنية هذه العبادة أسمى مظاهر الإخلاص والولاء. ففي الإمبراطور الروماني تجسمت فكرة الدولة وكان المذبح الذي أقيم لعبادته رمزًا للقوة الأدبية العليا في الدولة. على أن هذه العبادة حسبها المسيحيون وثنية لا يمكن أن تأتلف مع دينهم الجديد، لأن أسمى الأشياء في نظرهم لم يكن قيصر العظيم الرفيع الشأن ولا الإمبراطورية الرومانية القاهرة ولا الشعب الروماني النبيل، بل كان شيئًا آخر ليس من هذا العالم. وقد جاءت المسيحية بنظرية جديدة في التاريخ تحدت جميع النظريات الأخرى، نظرية سفهت كل قيم الأشياء الأرضية إذا قورنت

بالأشياء السماوية وأعطت ما لقيصر لقيصر ولكنها أعطت أيضًا ما لله لله. وهذه النظرية الجديدة قد جعلت المسيحية الدين العالمي الجديد. فبينما أغلقت اليهودية على نفسها دون العالم الخارجي وتحصنت بمواعيدها وعقائدها التي جعلتها وقفا عليها دون سواها ولجأت النظم النفسية إلى عقول العلماء والمفكرين، جاهرت المسيحية في أول عهدها بقدرتها على غلبة العالم وقهره، فخرجت إلى الطرقات والأسواق حاملة رسالتها وسحر نفوذها، فبدلت متجهات التفكير التي حسبها القوم دعائم الخير العام.

لهذا السبب كانت المسيحية خطرًا على الدولة في العرف الوثني القديم؛ لأنها طعنت أسس الدولة القديمة التي زعمت أن لها الحق في تنظيم أحوال الفرد الداخلية والخارجية بما لها من قوة لا منازع لها فيها وقوضت أركان تلك الفضائل التي استندت إلى أن الدولة هي المثل الأعلى للخير الأسمى. وما فورات نيرون الصاخبة وأحقاد الجماهير الوثنية العمياء نحو المسيحيين، إلا مظاهر غريزية رسمت أوضاعها الفكرة السياسية القديمة عن الدولة، حين أحست أن وجودها معرضًا للخطر.

بهذا المعنى كان المواطن المسيحي الروماني عدوًّا للدولة، فاتُّهم بالخيانة العظمى بسبب آرائه ومعتقداته واستوجب الموت في نظر القانون. وظلت الجماعات المسيحية ناهضة بأعباء ثقال خلال القرون الثلاثة الأولى تحت ضغط عنيف يفرضه قانون العقوبات. ومن خطأ الرأي أن نتصور الاضطهاد يستمر دون انقطاع في خلال هذه الفترة الطويلة، فالواقع أن هذا القانون العنيف لم ينفذ إلا في فترات متقطعة تبعًا لأهواء الحكام ونزواتهم وتخلل الاضطهاد فترات كان فيها شيء من التسامح العملي. وقد كان الاضطهاد في الفترات الأولى محليًّا ذا صبغة محدودة. فإذا اهتاجت عامة الشعب بسبب وباء أو قحط أو نار أو إذا جن أحد ولاة الأقاليم ورأى أن ينفث سموم كيده وخبثه في المسيحيين أو إذا تحدى المسيحيون أنفسهم عامة الشعب وأضرموا في صدورهم نار المقاومة– كان يشتد الاضطهاد تارة هنا وأخرى هناك. فحريق رومية مثلا كان حجة لاضطهاد المسيحيين في عصر نيرون ولكنه لم يلحق بغير المسيحيين في رومية. وكذلك قضى أغناطيوس أسقف إنطاكية شهيدًا (حوالي سنة ١١٥م) وختم بوليكارب أسقف

أزمير حياته بالدم (حوالي سنة ١٥٥م). وثار في عهد الإمبراطور مرقس أوريليوس الذي كان من بين ضحاياه عدد لا يحصى من أعضاء الكنيسة المسيحية في ليون (سنة ١٧٧م).

وفي عهد الإمبراطور سيفروس، مُنع اعتناق المسيحية بقوة القانون (سنة ٢٠٢م) واشتعلت نيران الاضطهاد في مصر وفي بعض ولايات أفريقية. على أنه يمكن القول إنه إلى أواسط القرن الثالث لم يكن الاضطهاد شاملًا جميع المسيحيين. وكان للكنيسة المسيحية في أرجاء الإمبراطورية الرومانية فسحة من الزمن للرقي والتقدم، على الرغم من المشاحنات العنيفة التي هزت أركان بعض الجماعات في رقاع مختلفة.

ولكن يصح القول كمبدأ عام إن اعتناق المسيحية كان في القرن الأول يعرض المرء للموت وكان هذا في حد ذاته كافيًا لإقامة التهمة على أي فرد. وظل المبدأ ساريا حتى في الفترات التي تهاون القوم فيها في تنفيذه واتخذه الكاهن الوثني أو تاجر الأوثان الذي بارت تجارته أو الوالي الشرير الخبيث وغيرهم– حجة لجر غريمه إلى الموت بسبب مسيحيته. فيوستن مارتر– وهو فيلسوف اعتنق المسيحية– حزت رأسه في رومية بإيعاز مؤلف منافس له لم يستطع مباراته في الإنتاج الفلسفي. ولم يستطع التاريخ أن يحصي عدد الشهداء الذين ذهبوا ضحايا هذا القانون الجائر والذي حمل فيوستن مارتر على اعتناق المسيحية ما شهده من الشجاعة والبسالة والبطولة التي غالب بها المسيحيون الموت في سبيل عقيدتهم. وكان الوثني يخشى الموت ويرهبه، بينما حسبه المسيحي ربحًا وكسبًا. وقد تبدت قوة المسيحية الأدبية للعالم الوثني– قبل أي شيء آخر– في تلك الشجاعة الباسلة التي لاقى بها المسيحيون الموت، شجاعة تحدت الموت، لا بروح الاحتقار والازدراء ولا بروح الاستهتار وعدم الاكتراث كما فعل الرواقيون، بل بروح الرجاء والانتصار. وقد كان الإيمان القوة الوحيدة التي خاضت بها المسيحية بحر العداوة والدماء ولكنها قوة غلبت العدو وقهرته.

وقد نظمت الإجراءات ضد المسيحيين لأول مرة في عهد الإمبراطور تراجان (سنة ١١٢م). فكانوا يضطهدون ويحكم عليهم لتهم خاصة، لا بسبب مسيحيتهم. وظل هذا

القانون معمولًا به إلى أواخر القرن الثالث. على أن هذا القانون، وإن بدت عليه في ظاهره مسحة التسامح، فإنه انطوى على فكرة خبيثة؛ فقد أباح الحرية للمسيحي إذا ارتضى أن يقدم بخورًا لتمثال الإمبراطور. أما إذا تأبى، فإنه يعرض نفسه لحكم الموت. فكأنما جثمت وراء هذا اللين الظاهري قسوة شريرة وكانت التجربة رهيبة مريعة، فإن كثيرين من ذوي العزائم الخائرة استسلموا إليها وقد ظن بليني حاكم ولاية بثنية الذي أشار بوضع هذا القانون، أن فيه القضاء على المسيحية؛ لأن المسيحي إذا تمنع عن تقديم البخور لتمثال الإمبراطور، يحكم عليه بالموت، لا بسبب مسيحيته في الظاهر ولا بسبب سلوكه الشخصي، بل بتهمة الخيانة العظمى للدولة وكانت أدلته في اتهام المسيحيين تدور كلها حول هذه الخيانة بالذات دون تعرض للعقيدة. وفي هذا من المكر والخداع والقسوة المهذبة ما يغني عن البيان. والواقع أن اضطهاد الدولة لم يوجه إلى عمل معين بالذات ولا إلى جريمة محددة المعالم، بل إلى عقيدة– هي المسيحية التي أبت عبادة أي شيء أرضي ولو كان هذا الدولة الرومانية. وقد دلت الإجراءات التي اتخذت ضد المسيحيين بالأوضاع التي شرحها قانون تراجان، على أن الدولة الوثنية– بادعائها أنها هي المثل الأدبي الأعلى– قد أضرمت حربًا شعواء في وجه المسيحية.

القديس أغناطيوس:

وفي عصر تراجان استشهد رجل من أبرز رجالات المسيحية في القرن الأول وأشهر أحبارها وأجل الرسوليين الأولين– هو القديس أغناطيوس أسقف أنطاكية السورية ـ وكانت قد حلت بالبلاد بعض المنكبات، فثارت ثائرة الشعب وأخذ يتصايح ضد المسيحيين بحجة أنهم أغضبوا الآلهة.

وقد أطلق على هذا الحبر المسيحي الجليل (أغناطيوس ثاوفرس) (أي حامل الإله النوراني) وهو ثالث أساقفة إنطاكية ويقال إنه سرياني المحتد وتقول التقاليد إنه الطفل الذي أقامه المسيح في وسط تلاميذه ليعلمهم أمثولة في البساطة والتواضع.

وقد تتلمذ للقديس بطرس ثم ليوحنا الرسول وأقامه الرسولان بطرس ويولس أسقفًا

على كرسي أنطاكية وخلف القديس أفوديوس فيه حوالي سنة ٦٨ ب.م. فدبر الكنيسة الإنطاكية نحو أربعين سنة، ناهجًا مناهج الرسل القديسين واشتهر بنشر الدعوة المسيحية في سورية في وقار ورسوخ في العلم وسمو الفضائل.

على أن العاهل الروماني تراجان زعم أنه من حسن السياسة أن يجاري الدهماء في شعورهم وخرافاتهم ويوجه ضربته إلى زعيم المسيحيين استرضاء لصيحات الرأي العام. ولذلك ألقي القبض على أغناطيوس وجئ به أمام محكمة الإمبراطور.

وقد دون شهود عيان وقائع محاكمته والأحداث التي أعقبت هذه المحاكمة وما عانى من آلام في استشهاده. فلما مثل أمام الإمبراطور في أنطاكية، وجه إليه هذا الكلام ودار بينهما الحديث التالي:

تراجان: (ما أشر روحك أيها الشيخ؛ إذ تعتدي على أوامري وتحمل الآخرين على أن يحذوا حذوك، فتوردهم موارد التهلكة والموت).

أغناطيوس: (لا يوجه هذا الكلام إلى ثاوفرس؛ لأن كل الأرواح الشريرة بعيدة كل البعد عن خدمة الله. أما إذا دعوتني مفسدًا أثيمًا لأني عدو للأرواح الشريرة، فأنا أقبل التهمة على نفسي بهذا المعنى، لأنني أفسد حبائل الأرواح الشريرة بعون داخلي من المسيح ملك السماء).

تراجان: (من هو ثاوفرس هذا؟).

أغناطيوس: (هو الذي يحمل المسيح في صدره).

تراجان: (أفلا تظن أن الآلهة تستقر في صدورنا نحن أيضا، وهي تحارب أعداءنا معنا؟).

أغناطيوس: (أنت تخطئ في تسمية الأرواح الشريرة التي تدين بها الأمم آلهة. لأنه لا إله إلا الله الذي خلق السموات والأرض والبحر وكل ما فيها ويسوع المسيح وحده الابن الوحيد الذي ملكوته من نصيبي وقسمتي).

تراجان: (تقول ملكوته عن ذاك الذي صلب في عهد بيلاطس البنطي؟).

أغناطيوس: (نعم ملكوته، هو الذي صلب خطيتي وأذل الشيطان وضلالاته وخداعه تحت أقدام الذين يحملونه في قلوبهم).

تراجان: (أتحمل إذًا في صدرك ذاك الذي صلب؟).

أغناطيوس: (نعم! لأنه مكتوب أني أسكن فيهم وأسير معهم).

وبعد ذلك أصدر الإمبراطور حكمه وهذا نصه: (بما أن أغناطيوس قد اعترف بأنه يحمل في صدره ذاك الذي صلب، فإننا نحكم عليه بأن يربط ويرسل إلى رومية العظيمة مخفورًا، وهناك يطرح أمام الوحوش الضارية لتسلية جماهير الشعب).

وقد أرسل الأسقف الوقور تواً من أنطاكية إلى ميناء على البحر، ومنها أبحر إلى أزمير تحت حراسة قوية من الجند الذين عاملوه بالإحسان والرفق. وبينما كان ينتظر سفينة تبحر به من سميرنا (أزمير) سمح له أن يزوره أصدقاؤه ويتحدثوا إليه. وبين الذين اتصلوا به بوليكارب الشيخ الوقور الذي كان رفيقًا له في التلمذة ليوحنا الرسول والذي ظل سنوات طويلة (ملاك كنيسة سميرنا). وقد أقبلت الوفود من أساقفة وشيوخ وشمامسة وعلمانيين من كل كنائس آسيا الصغرى لإبلاغه تحياتهم والتزود منه بالبركات والدعوات الصالحات. وبعد فترة من الزمن، أبحرت به السفينة إلى ترواس ومنها إلى نيابوليس عبر مكدونية إلى شاطئ أبيروس ودارت حول إيطاليا من بحر الادرياتيك إلى أوستيا، فرومية. وكانت رحلته أشبه بموكب انتصار رائع؛ ففي كل مكان أرسلت الكنائس أساقفتها وغيرهم لتحيته وإبلاغه أرق عواطف المحبة والأخوة.

ومن أماكن مختلفة في رحلته بعث برسائل عدة إلى كنائس آسيا، وإلى بوليكارب، وأخيرًا بعث برسالة إلى المسيحيين في رومية يرجوهم ألا يبذلوا أي محاولة لإلغاء الحكم الذي صدر عليه، فيحرموه إكليل الشهادة.

وبلغت السفينة رومية بعد أن انتهت حفلات الألعاب أو كادت، فطرح بسرعة في ساحة الميدان وأطلقت الوحوش الضارية عليه، فمزقت لحمه وعظمه تمزيقًا ولم يبق منه إلا بعض العظام الكبيرة التي جمعها المؤمنون ولفوها في مناديل فاخرة وبعثوا بها إلى أنطاكية

لدفنها هناك.

واستشهد معه رفيقاه زوسيمس وروفس، وكان ذلك في اليوم السابع عشر من شهر تشرين الثاني، وقيل في الثامن عشر من كانون الأول من سنة ١٠٧م وقد بنيت كنيسة فيما بعد ضمت رفاته في إنطاكية، وكان هذا القديس أول من علم الكنيسة الترنيم بالتداول بين جوقتين أسوة بالملائكة وأطلق عليه القديس يوحنا فم الذهب لقب (مسكن الإله وخدره).

رسائل:

كتب القديس أغناطيوس عدة رسائل ما زال أكثرها باقيًا حتى اليوم وتعتبر في المرتبة الثانية بعد رسائل الإنجيل. وإلى منتصف القرن السابع عشر كان منها اثنتا عشرة رسالة في اليونانية حاولت أن تشق طريقها في عالم التأليف الديني في وسط شبهات ألقت عليها ظلالًا من التزوير والتحريف، وكانت أيضًا إلى جانبها رسائل أخرى باللاتينية كلها مزيفة مزورة بلا شك. ولكن حوالي سنة ١٨٤٤م عثر على مخطوطة في فلورنسا احتوت سبعًا من رسائله في وضع يختصر وقد سلم العلماء بصحتها (وهي رسائله إلى أفسس ومغنيزيا وترلس وورومية وفيلادلفيا وأزمير وبوليكارب). وقال الباحثون الذين يقام وزن لآرائهم أنها مختصرة عن اليوناني وما زال الرأي العلمي مجمعًا حتى اليوم على أنها رسائل صحيحة للقديس أغناطيوس.

وقال في رسالته إلى أفسس:

(.. لا تحبوا شيئًا آخر غير المسيح، فإنني لأجله أسير بسلاسلي التي هي درري الروحية؛ عسى أن أبعث بها يوم الدين بفضل أدعيتكم. أنتم طريق العبور للذين يمضون إلى الله بالاستشهاد..).

وكتب إلى أهل ترلس:

(.... يعوزنا عدة أشياء حتى نصير أهلًا لله. فأناشدكم أو بالأحرى تناشدكم محبة

يسوع المسيح التي ترجوكم لا أنا، ألا تستعملوا إلا القوت المسيحي وامتنعوا عن كل نبات غريب، وإنما أتكلم عن الهرطقة. إن الهراطقة يخلطون يسوع المسيح بأضاليلهم لكي يختلسوا الثقة. وهم أشبه بالقوم الذين يسكبون سمًّا قاتلًا في مزيج خمر وعسل.. اصغوا إلى الإرشاد الذي توجهه إليكم هذه الأغلال التي أحملها في كل مكان في سبيل يسوع المسيح طالبًا البلوغ إلى الله. اثبتوا في الاتحاد وصلاة الجماعة، لأن هذا فرض على كل منكم...).

وأبدع رسائله وأروعها هي التي كتبها من مدينة أزمير إلى أهل رومية؛ وقد جاء فيها:

(.. حسبكم أن تطلبوا لي القوة الباطنة والظاهرة لكي أصير مسيحيًّا، لا باللسان فقط بل بالقلب، لا بالاسم فقط بل بالفعل.. حينما أهجر هذا العالم يظهر إيماني بضياء أفضل. لا خير من كل ما يرى. إن إلهنا يسوع المسيح لم يظهر أفضل إلا حين عودته إلى حضن أبيه. وإن استهدفت النصرانية للحقد العالمي، فلن تصير موضع اقتناع بشري لأنها من صنع القدرة الإلهية!).

(دعوني أصير طعامًا للوحوش لأنه بهذا سيتم لي الوصول إلى الله. أنا حنطة الله، فأطحن بأضراس الوحوش لأصير للمسيح خبزًا منزهًا عن العيب، لا أصدر إليكم أمرًا كبطرس وبولس فإنهما رسولان. وأما أنا فلست سوى محكوم عليه.. فلا تحاولون خليقة منظورة ولا غير منظورة أن تسلبني امتلاك يسوع المسيح. إذاً فلتعرض علي أفدح صنوف العذاب، النار والصلب وليصطدم جسمي بأجسام الوحوش الضواري ليتناوله التمزيق والانفصال وانخلاع العظام وانبتار الأعضاء وانسحاق الهيكل بجملته، على شرط أن ينتهي بي الأمر إلى ملك يسوع المسيح. ألا إن الموت لأجل المسيح لأعز عندي وأمجد من ملك الدنيا من أقاصيها إلى أقاصيها.. ليس الجسد هو الذي يملي هذه الرسالة، بل روح الله. الوداع! ولنتشدد ولنتشجع إلى النهاية في احتمال الألم من أجل يسوع المسيح!).

القرن الثاني

اشتهرت الكنيسة في رومية منذ عهد الرسول بولس؛ فإليها كتب رسالته الفياضة بالمعاني وبين ظهرانيها ختم حياته بدم الاستشهاد. ولعل الرسول بطرس مات هناك أيضًا شهيدًا. ولقد عانت الكنيسة في رومية أمر صنوف القسوة في حوادث الاضطهاد الأولى في عصر نيرون ولكنها ثابرت وصابرت على مصادمة الخطوب. وطبيعى أن تشعر الكنيسة في عاصمة الإمبراطورية بشيء من القوة والسلطان ولعلها كانت في مستهل القرن الثاني أكبر الجماعات المسيحية كلها وبلغت من سعة السلطان والكلمة المسموعة ما لم تبلغه كنيسة أخرى. وضاعف من قوتها بذلها العطاء وسخاؤها في التوزيع، كما نستدل على ذلك من رسائل الآباء الأولين. وكان تدمير أورشليم في الحرب اليهودية الثانية (سنة ١٣٥م) نهاية الزعامة المسيحية هناك، كما أن مقاومة كنيسة رومية العنيفة المفلحة لشيع الغناطسة والمونتانية قد صلب إرادتها وقوى أعصابها، فحصدت ثمار ذلك النضال وفيرة ناضجة. فهناك وضعت أركان قانون الإيمان واستقر الرأي على تحديد أسفار الكتاب المقدس القانونية. فضلًا عن هذا، فقد كانت الكنيسة الوحيدة في نصف الإمبراطورية الغربي التي اتصل بها الرسل الأولون مباشرة وكان لهم شأن فيها.

ومن منتصف القرن الثاني، اعترفت لها الكنائس الأخرى بفضل السبق والتقدم. ففي سنة ١٨٥ ب.م. يصور إيرانيوس أحد الآباء كنيسة رومية أمًّا، أسسها بولس وبطرس الرسولان ويحض الكنائس الأخرى على السير ورائها على أنه لم يقصد بذلك السيادة القانونية، بل الزعامة في حفظ الإيمان الرسولي. وقد صار أسقف رومية بفضل بلائه في النضال مع الأغنسطية متقدمًا بين أساقفة الكنيسة. ومن هنا نشأت فكرة سلطان أسقف رومية في تصريف شؤون الكنيسة العامة.

بدء النزاع بين رومية والشرق:

وبينما كانت رومية تزداد قوة ونفوذًا، أضحت آسيا الصغرى آخذة في التدهور والانحطاط. ففي مستهل القرن الثاني– وربما إلى ختام هذا القرن– كانت آسيا الصغرى والجزء المجاور لها من سورية، أكثر رقاع الإمبراطورية ولاء واحتضانًا للمسيحية. وكانت أفسس وأنطاكية من أمهات المدائن المسيحية في ذلك العصر. ولقد ناضلت آسيا الصغرى ضد الغناطسة، ولكنها انقسمت جهودها بسبب الدعاية المونتانية وغيرها من المجادلات السقيمة. والأدلة من التاريخ متوافرة تشهد كلها على أن هذه المنازعات الداخلية قد امتصت حيويتها وفتت من عضدها. وثار النزاع بين رومية وآسيا الصغرى حول تحديد ميعاد عيد القيامة. والمفترض أن هذا العيد كان يحتفي به في تاريخ مبكر في العصر الأول، على أن أول إشارة للاحتفاء به دونت في التاريخ بمناسبة زيارة بوليكارب أسقف أزمير لأسقف رومية في سنة ١٥٤م أو ١٥٥م، وجرت العادة أن يحتفي المسيحيون في آسيا الصغرى بعيد القيامة في مساء اليوم الرابع عشر من شهر نيسان– مع الفصح اليهودي تمامًا– بغض النظر عن يوم الأسبوع الذي يقع فيه. أما رومية وبعض رقاع الشرق، فكانت تحتفي به دائمًا في يوم أحد. وهنا ثارت مشكلة؛ أيؤخذ يوم الأسبوع أم يوم الشهر أساسًا للاحتفاء بالعيد. لم يتم اتفاق على رأي بين بوليكارب أسقف أزمير وبين أنسطوس أسقف رومية وافترق الاثنان على مودة وولاء كلٌ منهما متشبث برأيه.

وازدادت المشكلة تعقيدًا بنزاع آخر شجر حوالي سنة ١٦٧م في لادوكية– إحدى مدن آسيا الصغرى– حول طبيعة الاحتفال باليوم الرابع عشر من شهر نيسان. فقد ذهب بعضهم إلى أن المسيح مات في اليوم الرابع عشر كما تقول بشارة يوحنا، وذهب البعض الآخر إلى أن موته وقع في الخامس عشر كما يستدل من البشائر الثلاث الأخرى. وتفاقم النزاع حول هذا الأمر، حتى استدعيت المجامع للانعقاد– حوالي سنة ١٩٠م– في رومية وفلسطين وغيرهما، وكان قرارها مؤيدًا لوجهة نظر رومية. ولكن كنائس آسيا الصغرى، بزعامة الأسقف بوليكارب، أبت التسليم بهذا القرار؛ فلم يكن من أسقف رومية إلا أن أصدر حرمًا على الجماعات التي أبت القبول. وما أجدى احتجاج ولا

معارضة لهذا الحرم الذي كان أول عمل بارز دل على سلطة رومية.

وهذه المشاحنات الأليمة كلفت آسيا الصغرى ثمنًا باهظًا، ولم يكن في مقدور أفسس أن تجاري رومية في مضمار التنافس. ومن ثم نرى انهيار الزعامة المسيحية اليهودية وخلو أنطاكية من المسيحيين البارزين في القرن الثاني وتدهور نفوذ آسيا الصغرى– كل هذه العوامل جعلت رومية حوالي سنة ٢٠٠م مركز المسيحية العالي الكلمة القوى السلطان– وهو مركز استغله أساقفة رومية وأحسنوا استغلاله لبسط نفوذهم على الكنائس المسيحية الأخرى. وما استطاعت قرطاجنة ولا الإسكندرية بفضل ما أبدتا من بعيد الأثر في الحياة والفكر المسيحي في القرن الثالث– أن تسلب رومية هذه الزعامة؛ وذلك لأن نفوذهما جاء متأخرًا بعد رومية عاصمة الإمبراطورية.

***

مدينة الإسكندرية:

ولأكثر من ستة قرون كانت الإسكندرية ثان مدينة في العالم القديم، ولم تبرزها إلا رومية وبيزنطة بعدئذ. وقد أسسها الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ق.م. وكانت في أول أمرها قاعدة تجارية مهمة، فجذبت إليها كثيرين من اليونانيين واليهود ونشطت فيها الحركة العقلية نشاطًا ظاهرًا، وكانت مكتبتها أشهر مكاتب الإمبراطورية. وفي شوارعها وطرقاتها، التقى الشرق بالغرب وفيها ترعرعت الفلسفة الإغريقية وانسابت إلى محفلها العامة وبدت منافسًا خطيرًا لليهودية وغيرها من الديانات الشرقية. وهي قد احتضنت أيضا مذاهب الفكر المصرية القديمة، فكانت أشبه بالعاصمة الدولية المشتركة للعالم القديم. وفيها ترجمت أسفار العهد القديم إلى اللغة اليونانية وفيها مزج فيلو العالم الشهير اليهودية بالفلسفة الإغريقية وصبغ ديانته الموسوية بصبغة من فلسفة الاغريق وفيها نشأت الفلسفة الأفلاطونية الجديدة.

أما عن دخول المسيحية إلى الإسكندرية خاصة وإلى وادي النيل عامة، فإن التاريخ العالمي لم يذكر شيئًا، ولكن التقاليد الكنسية تقول إن البشير مرقس هو أول من أدخل

المسيحية إلى هذه الديار وكتب الكنيسة القبطية حافلة بكثير من أخبار قدومه وجهاده واستشهاده في الإسكندرية.

كانت الإسكندرية مقر الفلسفات المختلفة، ينهل كل مريد من مناهلها، فلا عجب أن يبعث المسيحيون بمعلميهم لبث دعوتهم، فكنت ترى فيها سنة ١٨٥م مدرسة دينية شهيرة تحت زعامة فيلسوف رواقي متنصر يدعى بنتينوس. ولسنا نعرف على وجه التحقيق من الذي أسسها ولكنها بلغت ذروة من الشهرة في عهد إكليمندس الإسكندري (سنة ٢١٥م). ومن الغريب أن التطور الديني في الإسكندرية سار في اتجاه يخالف اتجاه آسيا الصغرى والغرب. ففي هذه البلدان الأخيرة تحول النضال ضد الأغنسطية إلى كراهية للفلسفة عامة ومحاولة للانفصال عنها كلية، كأن لا علاقة بينها وبين المسيحية. وكان أثر هذا النضال العنيف كما أسلفنا التمسك بالتقاليد الرسولية والتشدد في النظام الكنسي. أما في الإسكندرية، فلم يبلغ هذا التشدد ما بلغه في الغرب ولم تحسب الفلسفة عدوة للمسيحية لا يمكن أن تنسجم معها، بل بالأحرى أمة معينة لها ولذلك امتزج بالمسيحية شيء كثير من الفلسفة القديمة– وخاصة الأفلاطونية والرواقية– وكان إكليمندس علمها وحامل لوائها وهمزة الوصل بين الكنيسة والمدرسة، لأنه كان أيضا شيخًا في كنيسة الإسكندرية. وقد نحا إكليمندس في مؤلفاته القيمة عن المسيحية منحى فيلو اليهودي في اليهودية، فشرح عقائد المسيحية بمصطلحات وآراء فلسفية؛ أثبت فيها علو كعبه في التفكير وصفاء الذهن واتزان العقل.

وخلفه في زعامة كنيسة مصر أوريجانوس العظيم، رئيس مدرسة الإسكندرية المشهورة. وقد ولد من أبوين مسيحيين– ربما في الإسكندرية ما بين سنة ١٨٢ و١٨٥م وعكف على دراسة الكتاب المقدس وكتب الفلسفة، حتى بلغ في نضوج تفكيره وعمق كتاباته وقوة ذهنه مرتبة العلماء الذين اعتزت بهم الكنيسة في تاريخها ومات والده في الاضطهاد الذي أثاره سيفروس الإمبراطور وكاد يكون هو أيضا ضحية هذا الاضطهاد، لولا حيلة عمدت إليها أمة ضد رغبته. وعلى إثر هذا الاضطهاد، فر معلمه إكليمندس من المدينة. وعلى الرغم من حداثة سنه، التف حوله نفر من الباحثين وطلاب العلم

وأعيد فتح مدرسة الإسكندرية الدينية. وقد شغل وظيفة رئيس المدرسة بكفاية عظيمة ورضاء الأسقف ديمتريوس حتى سنة ٢١٥م حين أمر إمبراطور الرومان بطرد كل معلمي الفلسفة من الإسكندرية. وكان قد زاد من قبل مدينة رومية وبلاد العرب. ولكن في سنة ٢١٥م، نراه في قيصرية بفلسطين يجمع حوله الأصدقاء والمريدين. وقد أذن له بالعودة إلى الإسكندرية بعد سنتين ليباشر التعليم فيها كما كان. وبدأ هناك فترة من الإنتاج العلمي والديني أبهرت آثاره الدوائر الفلسفية والدينية في تلك العصور.

وانقطعت جهوده في الإسكندرية برحلة إلى اليونان وفلسطين في سنة ٢٣٠م وكان ما يزال علمانيًّا، ولكنه بمعونة بعض أساقفة فلسطين الأصدقاء رسم شيخًا في قيصرية ربما ليكون حرا في وعظه وتعليمه. ولكن أسقف الإسكندرية حسب هذا العمل اعتداء على اختصاصه، فقرر نفي أوريجانوس من الإسكندرية، فاضطر هذا العالم الكبير إلى أن يقيم في قيصرية مثابرًا على الدراسة والتعليم والكتابة والتف حوله نفر كبير من مريديه وتلاميذه الذين كانوا يكنون له كل احترام وتقدير. وفي إبان اضطهاد الإمبراطور ديسيوس في سنة ٢٥٠م ألقي القبض عليه وأودع غيابة السجن وعذب تعذيبًا أليمًا أدى إلى موته سنة ٢٥١م. إما في قيصرية أو في صور، ولعل الكنيسة لم تشهد في ذلك العصر رجلًا غيره في نقاء روحه ونبل مقاصده وسعة علمه وعمق تفكيره.

هرطقة الغناطسة:

خاضت المسيحية طريقها في تلك القرون الأولى وسط أشواك العداء من اليهودية تارة ومن الوثنية تارة أخرى. ولكن أعداء آخرين من الداخل نصبوا أنفسهم لمناوئتها والنيل منها. فما لاحت تباشير القرن الثاني حتى فشت في الكنيسة آراء خاطئة ملتوية ومذاهب شاذة حادت عن الرسالة المسيحية الأولى وجوهر الإنجيل ونهض الملحدون والهراطقة لنشر الضلالات والنظريات الباطلة. ومما ساعد على نشر مذاهب الإلحاد؛ ضعف نظام الكنيسة في أول عهدها وعدم تحديد عقائدها تحديدًا يذهب الباطل عنها. وقد نجت الكنيسة من هذا الخطر وقهرت هؤلاء الأعداء عن طريق وضع نظم جامدة

وعقائد للإيمان ثابتة وإدارة رئيسية غدت في ختام القرن الثاني صاحبة الأمر والنهي في كل ما يتعلق بشؤون الدين.

شيعة الغناطسة:

وحدث في آسيا الصغرى، في مستهل القرن الثاني، أن شاعت آراء تنكر ناموس المسيح وموته الفعلي، وذهب مروجوها إلى أنه لم يجئ (في الجسد) بل في شكل روحاني. ولعل هذا حمل الرسول يوحنا على أن يقول في فاتحة رسالته الأولى: (.. الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا...). وكانت هذه الآراء بداية ما عرف في التاريخ (بشيعة الغناطسة). وقد أراد أصحاب هذه النظريات أن يوفقوا بين تناقض ظاهري، فقد رأوا أن حياة الاتضاع التي عاشها المسيح على الأرض لا تنجسم ومجده السابق الذي كان له قبل نزوله على الأرض. لذلك أنكروا حياته الأرضية الفعلية، فالمسيح عندهم ظهر فعلا وعلم تلاميذه، ولكنه كان كائنًا سماويا، لا لحما ودما. وهذه النظرية مضادة للإيمان المسيحي التاريخي، فأحدثت أزمة داخلية في الكنيسة، لعلها كانت أشد الأزمات منذ النضال الذي ثار حول ضرورة تهود الأمم قبل اعتناقهم المسيحية في القرن الأول.

وقد زعم أنصار الشيعة الغناطسة أن أساس عقيدتهم هو (المعرفة)، لا المعرفة كما نفهمها في هذا العصر؛ بل المعرفة السرية الغامضة المستمدة من الحكمة الخارقة للطبيعة لإدراك أسرار الكون. وقد أدمجت الغناطسة في معتقداتها عناصر مستقاة من مصادر شتى واتخذت أوضاعا مختلفة. ويرجع أصلها في الواقع إلى ما قبل المسيحية وكان منها صور في اليهودية وفي الوثنية وبعض عناصرها مستقى من آداب مصر القديمة وربما من الآراء الدينية البابلية والفارسية القديمة. فأصحاب هذه الشيعة آمنوا بقوتين إلهيتين في الكون؛ إحداهما صالحة وهي التي يسعى الإنسان دائبًا للعودة إليها، والأخرى شريرة والتي تقيده بأصفاد وقيود. وعندهم أن العالم المادي شر كله ولذلك لا يمكن أن يكون الله العلي الصالح خالقه وحاكمه، إنما الذي خلقه ويديره كائن ناقص أدنى من الله. ولكي يخلص الإنسان لابد أن ينطلق أولا من قيود هذا العالم المادي وما فيه من أرواح شريرة، والوسيلة لهذا

الانطلاق هي المعرفة، أي الاستنارة الروحية الخفية التي تدنيه إلى الصلة بعالم الحقائق الروحية.

ولقد وجدت الغناطسة في المسيحية شيئًا كثيرًا استعانت به في الدفاع عن نظرياتها، فاتخذت المسيح مثلا وصاغته شكلًا معينًا وجعلته محور نظريتها عن المعرفة العليا السامية التي تخلص الإنسان؛ فهو في نظرهم قد أعلن للناس الله العلي العظيم الكامل الذي لم يكن الناس يعرفونه. وبهذه الاستنارة الروحية، استطاع الروحيون الذين دقت أحاسيسهم أن يعودوا إلى أحضان ملكوت الإله الصالح. وما دام العالم المادي شرًّا كله، فإنه لن يمكن أن يكون المسيح قد تجسد فعلا. ويعلل الغناطسة ظهوره في الجسد بشبح روحي أو على أن استقرار مؤقت في الإنسان يسوع أو أنه ميلاد من أم عذراء دون أن يصيبه شيء من الطبيعة المادية. أما عن الله في العهد القديم، فقالوا إنه ليس الإله الذي أعلنه المسيح، بل هو الكائن الأدنى الذي خلق العالم المادي المنظور.

كذلك ألفوا في أقوال بولس الرسول مرتعًا خصيبًا لترويج أفكارهم، فمقارنته بين الجسد والروح (رومية ٨: ٢٢– ٢٥ و١كور ١٥: ٥٠)، وآراؤه في المسيح الفائز على (الرياسات والسلاطين) الذين هم (ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر) (كولوسي ٢: ١٥ وأفسس ٦: ١٢)، وتفكيره عن المسيح كأنه (الإنسان من السماء) (٣كوره ١: ٤٧). هذه كلها اتخذها القوم أسانيد لمذهبهم وكان بولس عندهم أكبر الرسل جميعًا.

وبعد كل هذا نرى البدعة الغناطسة تدور حول الفكرة الفلسفية التي تقارن بين الروح والمادة وبين النور والظلمة، وهي فكرة مستعارة من العالم الوثني كما قلنا. فالله هو إله النور الذي انبثق من أعماق وجوده أرواح نورانية على نظام نزولي. وإلى جانب هذا الإله النوراني عالم المادة الحافل بأرواح الظلمة الشريرة وعالمنا هذا من صنع روح من هذه الأرواح الشريرة. ومن هنا كانت نقائصه وشروره. والمسيح هو النور الأعلى المنبثق من الله الذي غلب ملكوت الظلمة.

وفي هذه الآراء نقدر أن نتتبع آثار فلسفة الإمبراطورية الرومانية تحاول أن تجذب إليها العالم في ذلك العصر وتجهد لإشباع رغبات الطبقات المثقفة ولهفتها إلى معرفة الإله

الأسمى. على أنها تبين لنا مدى تأثير المسيحية في الحياة الروحية للإمبراطورية من بداية القرن الثاني. ولكن الأغناطسية بقيت فلسفة حتى بعد أن قرنت نفسها بالمسيحية واتخذت عقائدها وتلاعبت بها كما يحلو لأنصارها. ولذلك كان مصيرها المحتوم- شأن كل الفلسفات العقلية الأرضية- أن انتهت- على الرغم من كل ظواهرها- بالشك وعدم اليقين.

ويمكن القول بشيء من التحفظ، إن الأغناطسية كانت بمثابة مذهب العقليين في القرن الثاني، فاستعاضت عن المسيحية بدين فلسفي لإنارة العقل، دين قامت أسسه على معرفة قوى الكون وأسراره، ولكنه قام في الواقع على تقاليد الوثنية وعلى آراء مستعارة من الفلسفات القديمة وعبادة بائدة جعلت السماء والأرض آلهة لها. وبذلك بدلوا إله المسيحية الحي بإله مجهول، هو إله الفلاسفة والأسرار العويصة.

ولقد فطنت الكنيسة إلى هذا العدو المقنع الخطر وأدركت أن الغناطسة، على الرغم من موقفهم الودي نحو المسيحية، هدموا أركان الدين الصحيح. وعرفت المسيحية أن إيمانها ليس فلسفة عالمية وأن موضوع رسالتها ليست أفكارًا ونظريات عقلية وأن الحياة الصالحة المستقيمة ليست تقوم على حفلطة كلامية فلسفية؛ بل اختبار المحبة الإلهية المعلنة في المسيح. لذلك أبت الكنيسة التهاون مع هذا العدو الماكر ووقفت له بالمرصاد، حتى أذلته وخرجت بأكليل الفوز والنصر.

ونستطيع أن نقدر مدى الخطر الذي استهدفت له الكنيسة حين نفكر أن الأغناطسية استمالت إليها الرعاع بطقوسها وشعائرها وملكت لب العالم الوثني كله بوضع ساحر من أوضاع التصوف المأخوذ عن الماضي السحيق وبادعائها أن فيها شبعًا للعقل والقلب معًا وانسجامها مع أساليب الفكر التقليدية، كما أنها قد استمالت إليها خاصة الشعب والمثقفين بوضعها قواعد من الآداب والأخلاق صارمة وبإروائها ظمأ النفوس العطشى إلى معرفة الإله الحق.

واستغرقت معركة الكنيسة مع هذه الفلسفة المضللة طوال القرنين الثاني والثالث وكانت معركة حامية الوطيس لإنقاذ مبادئ الحق السليم الذي طغت عليه هذه

المطارحات الوثنية الرمزية. وكانت الأغناطسية بمثابة معاهدة الصلح التي قدمتها ثقافة القرن الثاني للمسيحية ولو أن المسيحية قبلت شروطها لضاعت واندثرت كما اندثرت هذه الثقافة. ولكن الكنيسة كسبت المعركة ونرى آثار هذا النضال في النتائج التي ترتبت عليه. فإنه في خلال المعرفة اضطرت الكنيسة إلى أن تعين الأسفار القانونية للعهد الجديد (الإنجيل) أي تلك الأسفار التي اعتبرتها مصادر صحيحة موحي بها لإعلان الحق المسيحي واستبعدت الأسفار المضللة التي أذاعت تعاليم الغناطسة وعقائدهم الخاطئة. وفي خلال هذه المعركة، وضعت أسس علم اللاهوت المسيحي ونظم الكنيسة ودستورها. وبذلك وقت الكنيسة حياتها، لا من الدولة الوثنية فقط، بل من الفلسفة الوثنية التي كانت عدوًا أفتك وأخطر. على أن الكنيسة لم تخرج من هذه المعركة كما كانت من قبل، فإنه في صراعها قد تبدلت مسيحية العصر الأول البدائية وصارت المسيحية المنظمة (الكاثوليكية) الجامعة.

البدعة المونتانية:

وكان على الكنيسة أيضًا أن تقهر عدوًّا آخر- غير الغناطسة- هو ما سمي في التاريخ بالشيعة المونتانية **Montanism**. ففي منتصف القرن الثاني، ظهر في مدينة فريجية بآسيا الصغرى رجل يُدعى مونتانوس وهو كاهن وثني متنصر، ادعى أنه نبي مسيحي وأن لديه رسالة جديدة عن الروح القدس. ونادى بين الناس قائلًا إن مجئ المسيح قريب على الأبواب وإن (فريجية) هي (الملجأ الحصين) ومقر أورشليم الجديدة ومجتمع كل المسيحيين. كما أذاع دعاية خبيثة بأن كل النظم المسيحية الدستورية باطلة لا قيمة لها وأن كنيسة القديسين هي العروس الطاهرة النقية التي تترقب عودة عريسها. ونعى على الكنيسة امتزاجها بالعالم واندماجها فيه وحث على استعادة الرجاء الذي ملأ صدور المسيحيين في بدء الدعوة وجعلهم يترقبون بفارغ الصبر عودة سيدهم وربهم وألح على أن تنفصل الكنيسة انفصالًا تامًّا عن كل الأشياء الأرضية. وقد لقيت دعوته قبولًا حارًا في بعض الأوساط ولو أن حركته هذه قدر لها النصر، لاستحال العالم المسيحي جمهورًا من المعتزلين المتقشفين الزاهدين ولوقفت الدعوة المسيحية وقوفا تاما وصارت المسيحية شيعة تصوفية

يسكن أنصارها الجبال والكهوف بعيدين عن معترك الحياة العملية.

وقد كانت دعوته في الواقع تهجمًا على الأساقفة ورؤساء الكنيسة؛ فقد أنكر سلطان الأسقف وقال إن النبي هو الأداة المباشرة لتلقي الوحي الإلهي وصاحب السلطان في قبول الساقطين والمارقين إلى أحضان كنيسة القديسين، لا الأسقف صاحب الوظيفة الرسمية وكانت المونتانية بمثابة دعوة لإحياء الكنيسة المسيحية الأولى التي لم تكن تعرف وظائف رسمية ولم يكن لها رؤساء تتركز السلطة كلها في أيديهم. على أن السلطة الأسقفية التي كانت قد أمسكت بين أيديها كل شأن من شؤون الكنيسة الروحية والإدارية، قد تغلبت في آخر الأمر على أنصار هذه الدعوة وما أن بزغ القرن الثالث حتى تم لها الفوز في هذا النضال واستتب للأسقفية سلطانها الكامل في الأشراف على تعاليم الكنيسة وعقائدها وتمكنت بذلك من القضاء على الأغناطسية وغيرها من نظريات الإلحاد والمروق.

ونكتفي الآن بهاتين البدعتين من أعداء الداخل وقد كانت هناك بدع أخرى كثيرة تغلبت عليها المسيحية وخرجت سليمة كالذهب المصفى، قوة هائلة لإخضاع العالم.

القديس بوليكارب:

ومن أشهر الشخصيات المسيحية البارزة في هذا القرن هو القديس بوليكارب وقد ولد في أواخر حكم الإمبراطور نيرون الروماني في مدينة سميرنا (أزمير) على ما يقول الثقاة. ويروى أن امرأة تدعى (كالستو) تعهدته بالرعاية منذ حداثته وقد تتلمذ في أيام شبابه للرسول يوحنا ويقال إنه تحدث إلى كثيرين ممن شاهدوا المسيح في الجسد.

وفي حكم الإمبراطورين أنطونيوس وفيروس على رومية، وقع على المسيحيين اضطهاد عظيم وكانت ترشى الجواسيس والأرصاد بمبالغ طائلة للوشاية بهم واستعر الاضطهاد حين أراد الإمبراطور أنطونيوس أن يقوم بإحدى غزواته على بعض القبائل، فحشد كهنة الوثنيين في رومية ليقدموا ذبائح مقدسة لآلهتهم من أجل نجاح الحملة، فاغتنم الكهنة الفرصة وأدخلوا في روع الإمبراطور إلى طلبهم وأصدر أوامره بإلقاء القبض على المسيحيين في كل أنحاء مملكته الواسعة وجئ بهم ليقتلوا. وكانت سميرنا مسرحًا لأشد

المآسي المفجعة كما سبق وتنبأ يوحنا الرسول في رؤياه.

وأراد بوليكارب أن يبقى في مركزه منتظرًا الموت ولكن كثيرين من رعيته ألحوا عليه بأن يخفي نفسه من أجلهم، فاعتزل إلى قرية متاخمة ومعه نفر قليل من أتباعه، حيث كان يصلي ليلًا ونهارًا من أجل الكنيسة وأبنائها المتألمين وكانوا في أثناء ذلك يطلبون نفسه في كل مكان، فألح عليه أصدقاؤه بأن ينزح إلى قرية أخرى. على أن الجنود قبضوا على شابين وجلدوهما وأرغموهما على أن يكشفا عن المخبأ الذي اختفى فيه الحبر الشيخ.

أتوا إلى بيته في ظلام الليل، فلم يحاول أن يهرب، بل نزل إلى مضطهديه هاشًّا باشًّا في وجوههم وسلم إليهم نفسه في غير مقاومة. ثم أمر أن تقام لهم وليمة في بيته وطلب إليهم أن يمهلوه ساعة ريثما يصلي، فأجابوه إلى طلبه وهناك سكب نفسه أمام خالقه مدة ساعتين حتى خيل إلى من رآه أنه انتقل من عالم الأرض إلى عالم السماء ثم أركب دابة وسير به إلى المدينة. وفي الطريق، لاقاه أحد الحكام من أولي الأمر فاستدعاه إلى مركبته وحاول باللين أن يحمله على أن يصلي صلاة وثنية لينجو من الخطر الذي يتهدده. فأبى بشمم، فانقلب حلم الحاكم غيظًا ونقمة حتى قذف به من مركبته فترضضت فخذه. على أن هذا لم يزعجه وسار بقدم ثابتة إلى الموت وهناك ظهر أمام مجلس عام، فصرخ الرعاع هاتفين لظفرهم بزعيم المسيحيين ويقال إن بوليكارب سمع في وسط تلك الضجة الصاخبة صوتاً يقول له: (تشجع وكن رجلًا يا بوليكارب) وحاول الحاكم مرة أخرى وقد أخذته الشفقة على شيبته، أن يستميله إليه قائلًا له: (احترم شيبتك يا بوليكارب وأقسم بحياة الإمبراطور وتُب وقل ليمت الكافرون).

فنظر بوليكارب حوله بوجه عابس متجهم وتذكر هتاف الذين ولغوا في دماء المسيحيين وصرخ بصوت عال: (ليمت الكفر!) ولكن بغير المعنى الذي قصده الحاكم، فأمره هذا أن يقسم أيضًا بآلهة الوثنيين وأن يجدف على المسيح، فأجابه قائلًا:

– قد خدمته ٤٦ عامًا ولم يلحق بى ضر، فكيف أجدف الآن على ملكي ومخلصي.

فصرخ الحاكم قائلًا:

– أقسم بحياة الإمبراطور!

فأجابه بوليكارب:

– من أجل أنك مشتاق أن تحلفني بحياة الإمبراطور جاهلًا من أنا، فاسمع اعترافي: إنني مسيحى، فإذا وددت أن تتعلم الدين المسيحي، عين لي وقتًا فأعلمك إياه.

فنصحه الحاكم أن يقنع الشعب، فأجاب:

– إنني أوثر أن أوجه خطابي إليك؛ لأن شرائع ديننا توصينا أن نقدم لحكام العالم وأمرائه المقامين من قبل الله كل احترام لا ينافي ديننا وأنا لا أرى الشعب قضاة يليق بأن أعترف لهم بإيماني.

فتهدده الحاكم بقوله:

– إن عندي وحوشًا ضارية أُلقي بك إليها إن لم تتب.

فأجابه الشهيد:

– ادعها. فإنه من المحال أن نرجع إلى الوراء، من الأفضل إلى الأسوأ.

– إن كنت تهزأ بالوحوش، فسألقيك في النار.

– إنك تتهددني بنار تشتعل قليلًا ثم تنطفئ. ولكنك تجهل نار الدينونة الآتية والقصاص الأبدي اللذين أعدهما الله للكافرين. ولكن لماذا أنت مبطئ؟ إئت بما تشاء.

وقد تأثر الحاكم بشجاعة هذا الشيخ أيما تأثر، فأرسل رسولًا إلى الشعب يقول إن بوليكارب قد اعترف بأنه مسيحي، فصرخوا جميعهم طالبين أن يلقى إلى الأسود ولكن الحاكم أبى لأن حفلات الوحوش كانت قد انتهت، فطلبوا أن يحرق بالنار فلم يمانع.

وحالًا راح الشعب يجمع الأخشاب من الحوانيت والحمامات القريبة وكان اليهود أكثر الجمع نشاطًا وشماتة. ولما صنعوا كومة، خلع الشيخ ثيابه في هدوء واتزان وصعد

على الكومة وأراد القواد أن يسمروه إلى خشبة، فطلب إليهم أن يتركوه حرًّا طليقًا، مؤكدًا لهم أن السيد الذي يعبده سيمنحه قوة ليقف في وسط اللهب، فربطوا يديه فقط. أما هو فرفع عينيه إلى السماء وصلى قائلًا:

(أيها الإله القدير، أبا ربنا يسوع المسيح المبارك إلى الأبد الذي حصلنا بواسطته على معرفة حقك. إله الملائكة والقوات وجميع الكائنات وإله شعب البر الساكن أمامك، أباركك لأنك رضيت أن تأتي بي إلى هذا اليوم وهذه الساعة لأكون فيها من عداد شهدائك الأقدسين وأشرب كأس المسيح لقيام الروح والجسد للحياة الأبدية. هب أن أقبل اليوم في عينيك ذبيحة مرضية مقدسة، ليكمل ما أنبأت به أيها الإله الحي الحق. أحمدك من أجل كل آلائك وأباركك وأمجد اسمك باسم ذلك الكاهن العلي الأبدي، يسوع المسيح، الذي لك وله ولروحك الأقدس المجد والإكرام الآن وإلى أبد الآبدين. آمين).

ولما أكمل الصلاة، انتشرت النار حوله، فدهش الواقفون لما رأوها لا تمس جسمه، بل تلتف حوله كشراع تصفقه الريح. أما الأخوة الأمناء الذين امتزجوا بالشعب، فكانوا يستنشقون من جسده رائحة ذكية.

وأخيرًا أمر الحاكم أن يطعن بالسيف، فرأى المسيحيون المشاهدون دمًا نزف من جسده حتى أطفأ النار وألح اليهود على الحاكم أن تحرق جثته حتى تصير رمادًا وألا يسمح للمسيحيين بدفنها لئلا ينقلبوا إلى عبادتها.

ويظن أن بوليكارب مات عن مائة سنة وذلك في سنة ١٦٧ ب.م. ولم يكن الوحيد الذي قضى في تلك الفترة من الزمن التي ثارت فيها عاصفة الاضطهاد. بل استشهد آخرون لم يدون التاريخ سيرهم.

القرن الثالث

لاقت الكنيسة أعداء من الخارج ومن الداخل ولكنها لم تتعثر في قوتها وامتدادها وبدأت من منتصف القرن الثالث حتى أحست الوثنية أن كيانها يهتز ويتمايل. وقد بلغ عدد أفراد الجماعة المسيحية في رومية– ولعلها كانت أكثر الجماعات عددًا– حوالي عشرين ألفًا وصارت بفضل دستورها ونظمها قوة اجتماعية هائلة تعادل قوة الدولة. فإذا رامت رومية أن تحتفظ بمقوماتها الوطنية والسياسية التي ورثتها عن القرون الخوالي، فإن الساعة هي الفرصة الملائمة للعمل والنضال.

ومن هذا التاريخ _أي منتصف القرن الثالث_ بدأت الدولة الوثنية اضطهادها المنظم للمسيحيين في كل أنحاء الإمبراطورية ووضعت تدابير محكمة للهجوم على الكنيسة كلها ونفذتها بكل ما لديها من وسائل القوة وأسباب العنف.

اضطهاد ديسيوس ودقلديانوس وغيرهما من أباطرة الرومان:

وبدأ هذا الهجوم في عهد الإمبراطور ديسيوس (٢٤٩– ٢٥١م)، فأصدر أوامره للقيام باضطهاد عام لجميع المسيحيين وأوعز إلى السلطات في الإمبراطورية أن تبدأ هجومها على الجماعات المسيحية دون إقامة أي تهمة خاصة وترغم المسيحيين على تقديم البخور لتمثال الإمبراطور. وعقبت هذه الأوامر فترة رهيبة مروعة بذل فيها الدماء عدد لا يحصى من الشهداء.

وبعد موت ديسيوس، تنفست الكنيسة الصعداء وأحست ببعض الفرج المؤقت. فإن خلفه جاليريوس (٢٥١– ٢٥٣م) بعد هدنة سنتين، أصدر أوامر جديدة ضد المسيحيين في سنة ٢٥٧م مؤداها أن أساقفة الكنيسة وقساوستها وشمامستها، مع جميع أعضاء مجلس الشيوخ والقضاة المسيحيين، يحكم عليهم بالموت إذا لم ينقضوا عقيدتهم وينكروها. وكانت له وسيلته الخاصة في هذا القانون، فإن سلفه ابتغى إهلاك الجماعات المسيحية، ولما بدا هذا محالًا، أراد الخلف أن يوجه ضربته إلى نظم الكنيسة وزعامتها

وأرباب المناصب الرفيعة الذين انضموا إليها وظن أن عامة الشعب بعد زوال هذه الرؤوس المدبرة المفكرة، لن تقوى على الثبات والبقاء. وفي هذا الاضطهاد البشع سقط كثيرون من زعماء الكنيسة أمثال الأسقف كبريان في قرطاجنة، والشماس القديس لورنتيوس في رومية. وجلس على العرش بعد ذلك الإمبراطور جالينوس، فألغى هذه القوانين الصارمة. على أنه لم يكن معنى هذا الإلغاء الاعتراف بالمسيحية أو التهادن معها، فإن اعتناق المسيحية ظل في عصره وعصر خلفائه عقوبة تستوجب الموت، وكان ممكنًا تنفيذ هذا القانون في أي لحظة على الجندي المسيحي مثلا متى ثبت قانونًا أنه امتنع عن تقديم البخور لتمثال الإمبراطور. أما الذي أبطل فهو إرغام الحكام والقضاة على تعقب أتباع العقيدة المسيحية واتهامهم عمدًا واتخاذ الإجراءات ضدهم بطريقة منظمة. وسادت فترة من التسامح العملي لم ينفذ فيها القانون إلا في حالات فردية وقد ظلت فترة الهدوء أربعين عامًا ولكنها كانت أشبه بالهدوء الذي يسبق العاصفة. فإن الإمبراطورية الرومانية في عصر دقلديانوس (٢٨٤– ٣٠٥م) قامت كلها ضد عدوها البغيض؛ لكي تعيد السلطان المطلق للدولة إلى سابق مجده وسؤدده. وكان هذا أعنف اضطهاد شهدته الكنيسة في تاريخها.. كان نضالًا للحياة أو الموت.

وبعد أن قضى دقلديانوس سبعة عشر عامًا من حكمه في هجوع وهدوء، ثار في أواخر عهده ثورة النمر الشرس المتعطش للدماء وأعد هجمته المروعة على الكنيسة مع صهره (جاليريوس) وهو جندي فظ شجاع يأكل صدره غيظًا وحقدًا نحو المسيحيين.

وفي الرابع والعشرين من شهر فبراير من سنة ٣٠٣م، أصدر العاهل الروماني أمره الملكي بعزل جميع الضباط المسيحيين من الجيش وطرد جميع الموظفين المسيحيين من مناصبهم وتدمير الكنائس المسيحية ومصادرة الكتب المقدسة وإحراقها. وأعقب هذا الأمر قرار آخر قضى بزج جميع رجال الدين المسيحيين في غيابات السجن وإكراههم على السجود لتمثال الإمبراطور، ثم قرار ثالث أصدره سنة ٣٠٤م قضى أن يعبد المسيحيون تمثال الإمبراطور وإلا حُكم عليهم بعقوبة الموت. واتخذت أوسع الإجراءات لتنفيذ هذه القوانين تنفيذًا دقيقًا. على أن هذا لم يكن مستطاعًا في كل الأحوال.

وفي سنة ٣٠٥، أصيب دقلديانوس بداء عضال يعسر البرء منه، فتنازل عن العرش وغدا جاليريوس لا منازع له في إمبراطوريته الشرقية. ومن تلك اللحظة بدأ الاضطهاد العنيف في الشرق بدون رحمة ولا هوادة في جنون وهياج، وكان الاضطهاد في هذه الفترة أشبه بمذابح جنونية، لا أثر فيها لعدل ولا رحمة. فأرغم المسيحيون بوسائل كريهة على أن يقدموا البخور للإمبراطور. وحتى الأطعمة التي عرضت للبيع في الأسواق، مزجت بخمر الذبائح الوثنية؛ لكي يضطر المسيحيون بهذه الوسيلة إلى الإذعان والخضوع، وساد الإمبراطورية كلها اضطراب مريع زلزل أركانها، لأن المسيحيين اضطروا للمقاومة في بعض الأماكن. وبعد أربع سنوات طوال من الرعب (٣٠٦-٣١٠)، اضطر جاليروس وأنفه راغم ونفسه سقيمة، أن ينسحب من الميدان. وفي الثلاثين من أبريل سنة ٣١٠م، أصدر وهو على سرير موته قانون التسامح العام، معترفًا بأن المسيحية قهرته وأذلته. ومن تاريخ هذا الاضطهاد المريع الشنيع، يبدأ التقويم القبطي المعروف بسنة الشهداء؛ وذلك لكثرة من استشهد فيه من أبناء المسيحية.

وقد أتم قسطنطين هذا العمل الجليل وجاهد تحت راية الصليب وحرر إيطاليا أولا من غاصبها مكسنتويوس، ثم أصدر قراره المأثور في التاريخ الذي أذاعه في رومية سنة ٣١٣م وقرر به التسامح الديني في أنحاء الإمبراطورية ووضعت المسيحية على قدم المساواة مع الوثنية كعقيدة شخصية تتبع ضمير الأفراد. وغدا كل إنسان حرًّا ليختار ما يشاء من عقيدة وعبادة ومنح المسيحيون حرية تامة في أداء فرائض دينهم وانتهت الأزمة الخانقة وتنفست الكنيسة الصعداء. بعد ظلام الليل الدامس، أشرق نور الفجر الوضاء.

سر الانتصار:

وترى ماذا كان مبعث انتصار المسيحية؟ أكان ذلك راجعًا إلى ثبات أبنائها وشجاعتهم وبسالتهم؟ لا نظن ذلك. فإنه كما حدث في عهد الوالي بليني في مستهل القرن الثاني، كذلك حدث إبان اضطهاد ديسيوس، وبالأولى جدا إبان اضطهاد دقلديانوس، إذ ارتد الكثير من المسيحيين عن إيمانهم رعبًا وهلعًا. وإنه لمن الشطط في

التقدير أن نصور جمهرة المسيحيين في القرون الثلاثة الأولى تصويرًا يجعلهم على نمط الشهداء الذي اعتزت الكنيسة بذكرياتهم وفعالهم المجيدة. والحق نقول إن عامة المسيحيين– في كل العصور– خامرهم شيء من الجبن وخوار العزم وتولاهم الضعف والجزع في اعترافهم أمام الناس وساورهم بعض الوهن في المقاومة والصمود ساعة الخطر. ولا خفاء أن كثيرين منهم ارتدوا عن دينهم في فترات الاضطهاد لينجوا بأموالهم ومناصبهم وحياتهم. وفي ذلك العصر الذي نحن بصدده كانت الجماعات المسيحية قد زاد عددها وتزايد العدد ينشأ عنه بعض الوهن في القوة الداخلية المعنوية. وكانت الكنيسة قد بعدت عن الفكرة الأولى التي أملت عليها توقع نهاية العالم السريعة واحتلت مكانتها في العالم وطبيعي أن ينساب إليها بعض روح العالم وفتحت أبوابها على مصاريعها، فولج إليها عامة الشعب جماعات، فاندس فيها بطبيعة الحال البواعث الضعيفة الوضعية في الطبيعة البشرية. وبين أن العلاقات التي سادت الجماعة المسيحية الأولى في بدء عهدها، يوم كان المؤمنون كأخوة في دائرة ضيقة محدودة، ليست كتلك العلاقات التي سادت بعدئذ، يوم كان نصف سكان المدينة من المسيحيين. وطبيعي أن تختفي بعد هذا التوسع المحبة الأخوية العملية أو على الأقل تقتصر ممارستها على رجال الدين الذين يمثلون الجماعة المسيحية. ثم إن الأعضاء العلمانيين مالوا إلى التراخي والاستهتار في مراعاة نظم الكنيسة وظهر لأول مرة في تاريخ المسيحية مقياسان للآداب والأخلاق؛ أحدهما: لرجال الدين الذين كان ينتظر منهم التقيد الصارم بأوضاع المسيحية الحقة. والثاني: للعلمانيين الذين اكتفى معهم بالامتناع عن الكبائر والموبقات. وإنا لنشهد من منتصف القرن الثاني جنوحًا إلى العالمية من جانب الكنيسة ولم يكن من هذا بد، فإنه كما اقتبس العالم من روح المسيحية، اقتبست المسيحية شيئًا من روح العالم. وحين نفكر في جماهير المؤمنين في القرن الثالث، نجد كثيرين منهم مسيحيين بالاسم ونجد في أحضان الكنيسة الشيء الكثير من الكراهية والعداء والحسد. وبين أيدينا من مخلفات القرن الثاني وصف تخيله في رؤياه مسيحي من أبناء رومية يصور فيه الكنيسة وقد تشوه وجهها بالبقع والتجاعيد وأصابتها أمراض مختلفة. وكان هذا هو الواقع فعلا؛ فإنه على مر الزمن اندثرت روح الشهداء

الأولين ووقفت الدولة الرومانية في عهد ديسيوس ودقلديانوس أمام كنيسة بدأ الهرم يدب في أعضائها وبعدت عن مثلها العليا وجنحت إلى العالمية. ومن هنا كانت حالات الردة الكثيرة والتخريب الذي حل بالكنيسة إبان الاضطهادات الكثيرة.

ومع هذا كله، بقيت الكنيسة فائزة منتصرة، لم تقدر النار ولا الحديد ولا الموت أن تفت في عضدها أو تضعف من شوكتها. أما معجزة المسيحية، فهي أنها غير قابلة للتدمير وأنها كسبت النصر على الرغم من تخلي بعض أتباعها عنها ولم يكن للردة ولا للضعف أثر في إضعاف قوة المسيحية التي لا تقهر. مالت إلى العالمية ومع ذلك ظلت خميرة صالحة تخمر العالم كله. خانها نفر كبير من أتباعها ومع ذلك بقيت فيها تلك الصفوة المختارة التي استطاعت أن تغلب العالم وتقدم في أشخاص شهدائها الأمثلة الرائعة على البسالة والعظمة وتنفث روح المقاومة في الخائرين الفاترين.

ولم تكن المسيحية في ذلك العهد الدين المجهول الذي أذاع عنه المغرضون كل أنواع السخافات والوشايات، كما حدث في القرنين الأول والثاني. بل غدت قوة منظورة تبسط جناح حمايتها على أتباعها وكان في طول العالم الوثني وعرضه حنين دفين إلى الإيمان بالوحدانية بعد أن تقوضت أركان العقائد والعبادات القديمة، فمال الناس سرًّا وجهرًا إلى الإله الحق الذي نادت به المسيحية. ولما أعلنت الدولة الحرب على المسيحية في القرن الثالث، لم تتمكن تمامًا من تجنيد كل قوات الكراهية العاصفة ولقي كثيرون من المسيحيين أمنًا في البيوت الوثنية. وفي الغرب خاصة لم تجد قوانين دقلديانوس وجاليروس مرتعًا خصيبًا وسط الشعب، فلم تنفذ بالشدة والصرامة والعنف كما كان شأنها في الشرق. ثم إن الدولة ذاتها أخذت في الضعف والانحلال وراحت خيرة العقول تفكر في غير ما فكرت به الدولة، يضاف إلى هذا كله القوة الروحية المعنوية التي بثتها المسيحية في العالم الوثني وقد بلغت هذه القوة شأوًا رفيعًا واستخدمت كل ما لديها من موارد على الرغم من ضعف أتباعها وخوار أنصارها.

ألم تر المحن الكثيرة التي أصابت الكنيسة في كل تاريخها والظلمات الحالكة التي

خاضت فيها في كل عصورها، كيف شق نور المسيحية طريقه كأشعة الشمس تبدد ظلمات السحب وتشق كثافتها فتتوزع أضواؤها تارة هنا وأخرى هناك؟!.

هكذا كان ذلك العهد. غلبت الكنيسة، لا بقوة المسيحيين أنفسهم، بل على الرغم من ضعفهم– وغلبت بقوة الرسالة التي حملتها هدى ونورًا للعالمين.

أنطونيوس والرهبانية:

وفي أواخر هذا القرن، أخذت الرهبانية شكلًا بارزًا في حياة المسيحية، فهرع كثيرون من الأتقياء إلى البوادي والبراري للتعبد والابتعاد عن ضوضاء الحياة المادية. وعلى مر الزمن تطورت هذه الحركة حتى غدت قوة هائلة، إلى جانب الكنيسة النظامية، وتفرع موكب المسيحية إلى قوتين، إحداهما: في المدن والحضر تحت زعامة الأساقفة، تحيا الحياة المسيحية في الأوساط الوثنية، وهرعت الأخرى إلى القفار لتحيا حياة الزهد وإذلال النفس بالروح عينها التي بذل بها الشهداء حياتهم من أجل المسيح.

أما مبدع الرهبانية فهو القديس أنطونيوس الشهيد، أبو الرهبان وكوكب البرية، ولد حوالي سنة ٢٥١م في بلدة قمن بصعيد مصر من أسرة عريقة غنية وأبوين صالحين ربياه على مخافة الله، فاقتبس عنهما شيئًا كثيرًا من حميد الخصال وكريم الخلال. ومات والده وهو في العشرين من العمر، فعكف على إدارة أملاكه وبيته والعناية بأخته. وفي الكنيسة سمع ذات يوم قول السيد المسيح للشاب الغني: (إن أردت أن تكون كاملًا، فاذهب وبع أملاكك واعط للفقراء، فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني). فاتخذ هذا القول عظة لنفسه وأطاع الوصية حرفيًّا وباع أملاكه ووزعها على ذوي الحاجات وأودع أخته بيتًا لبعض العذارى الورعات وعاف الدنيا وانفرد في البرية، عابدًا الله قامعًا جسده مروضًا نفسه بالتقوى. وهناك حاول إبليس إغراءه بمختلف الوسائل ولكن غلبه بالصلاة والصبر والرجاء مستعينًا في جهاده بقوة المسيح سيده وربه. وأفلح في إماتة شهواته وكظم غيظه وقمع جسده، فلم يكن يقتات إلا بالملح والماء القراح ولم يرتدي إلا المسوح ولم يكن يفترش إلا الأرض وحصيرًا بالية وآوى إلى قبر مهجور، ثم إلى قلعة متهدمة، جادًّا طوال

الوقت في مناضلة الأفكار الشريرة وأطماع الجسد الفانية، حتى ظفر في هذا النضال العنيف وهذبه الترويض والتمحيص واستفاضت أنباء صلاحه وتقواه، فهرعت إليه الجماهير في البرية تطلب البركة والشفاء على يديه وسار وراءه خلق كثير أخذوا عنه الطريقة في التعبد والاعتزال. فكان هو منشيء الرهبانية الانفرادية، أي التعبد في الصوامع على انفراد. على أن هذه الحياة المفردة لم ترق خلفه القديس بخوميوس فأنشأ أول دير مسيحي في العالم في مصر العليا سنة ٣١٥م وقيل سنة ٣٢٥م.

وخرج القديس أنطونيوس أبو الرهبان مرتين من عزلته في الصحراء إلى الحضر، مرة في عام ٣١٣م ليشجع الشهداء ويعزي المضطهدين في شدة مكسيمانيوس وقد اشتاق أن يكون هو نفسه شهيدًا، فكان يظهر في مدينة الإسكندرية علنًا ويتقدم إلى الحاكم ويحاجه لكي يحنق عليه ويعذبه ويقتله، فينال إكليل الشهادة. ولكن الأمر ما امتنع الحاكم عن إيذائه وعاد القديس إلى صومعته في البرية وراح الناس يتقاطرون أفواجًا للتبرك منه وسماع نصائحه. ولكن خشي أن يشغله هذا عن التعبد، فانطلق إلى البرية الداخلية ومضى مع قوم أعراب إلى مكان بعيد مسيرة ثلاثة أيام، حيث وجد عين ماء وقليلًا من زراعة القصب والنخيل، فأحب الموضع وسكن فيه وكان العرب يأتون إليه بالخبز وكان في المكان كثير من وحوش الفلاة، فأنست إليه ولم تؤذه واتخذ منها أصدقاء له.

والمرة الثانية عام ٣٥١م، يوم قدم من عزلته ليعضد إثناسيوس أسقف الإسكندرية في كفاحه ضد عناصر الإلحاد التي انسابت إلى الإيمان القديم وهرطقة الزنادقة الذين حاولوا إفساد الحق بباطلهم. وكان القديس اثناسيوس قد زاره قبل ذلك سنة ٣٣٣م. وآوى عنده فترة من الزمن التماسًا للأمن وهربًا من الاضطهاد، فأخذ عنه وكتب سيرة حياة بطل الأديرة فيما بعد، فأقبل القوم رجالًا ونساء على قراءتها بلهف وشغف. وبعد هذا التاريخ بمائة سنة، قرأ القديس أوغسطينوس هذه السيرة التي كتبها اثناسيوس، فقربته إلى الله وأهدت قلبه إلى الحق وبعد ألف سنة اقتناها القديس توماس أكويناس وكانت عنده خير مدخرات الأولين وبلغت أسماع الملك قسطنطين أنباء هذا القديس في برية مصر، فكتب له يمتدح ورعه وزهده ويطلب إليه أن يصلي من أجله، فخرج زملاؤه

في البرية برسالة القيصر. أما هو، فلم يحفل بها وقال لهم: (هذه كتب الله ملك الملوك توصينا كل يوم ونحن لا نأبه لها، بل نعرض عنها). ولكن بعد إلحاح زملائه واقتناعه بأن هذا الملك من أنصار الدين وحماة الكنيسة قبل أن يكتب له رسالة باركه فيها ورجا أن يسود السلام ربوع الإمبراطورية وحياة الكنيسة.

وبعد عمر طويل شارف على المائة والخمس، انتقل القديس إلى الحياة الأخرى سليم الحواس في السابع عشر من يناير سنة ٣٥٦م. وقد أوصى بإخفاء جسده في البرية وإعطاء عكازه للقديس مقاريوس الذي زاره وألبسه رداء الرهبنة وفروته للقديس اثناسيوس والملوطة الجلد لتلميذه سرابيون، ودون عنه رهبانه رسائل روحية ونصائح نافعة اعتزت بها الكنيسة والأديرة دهرًا طويلًا.

ومن مصر انتقلت الرهبانية إلى بلدان الشرق كله، إلى سورية وفلسطين وآسيا الصغرى وبين النهرين، حيث أسست المناسك والأديرة فوق قمم الجبال وفي الصحراء على النماذج التي نشأت أولًا في مصر.

وقد أذل الرهبان في ربوع الشرق أجسادهم، وتروى عنهم غرائب القصص في محاولة قمع تجاربهم وشهواتهم. فكان بعضهم لا يأكل إلا مرة كل خمسة أيام ويمتنعون عن شرب الماء إلا نادرًا وعاش آخرون في أماكن ضيقة بحيث لم يكن في وسعهم مد أرجلهم فيها أو فوق رؤوس الأعمدة. وحرم بعضهم أنفسهم لذة النوم، وغير ذلك من أساليب القمع والإذلال. ونحن لا ننكر أنهم في إساءتهم إلى أجسادهم قد ركبوا متن الشطط؛ إذ حسبوا أجسادهم أعداء لهم واحتقروا الزواج أيما احتقار، ولكن لأنهم عاشوا هذه الحياة القاسية في سبيل غرض مقدس وكافحوا شرور العالم بأفضل الأسلحة التي عرفوها في عصرهم، لا يسعنا إلا الإكبار من شأنهم والاعتراف بأن كثيرين منهم بلغوا مرتبة رفيعة في الغبطة الروحية وهدوء النفس. وتخرج من هذه الأديرة معلمون وزعماء روحانيون خلد التاريخ أسماءهم، مثل: مكاريوس الإسكندري وهيلاريون السوري وغيرهما من أبطال حياة الروح.

القرن الرابع

كانت القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الكنيسة عصر الجهاد والاستشهاد؛ ناضلت فيه اليهودية الضيقة والوثنية المتعسفة والآراء الغريبة والفلسفات الملتوية. وقد قضى في هذا الجهاد العنيف ألوف من زعماء الكنيسة وأساقفتها وعلمائها وأعضائها وأثبت أولئك الشهداء الأبرار للعالم أن الإيمان أثمن من الحياة ذاتها.

قرار قسطنطين الإمبراطور:

وقد توَّج فوز الكنيسة في هذا العراك بقانون أصدره الإمبراطور قسطنطين سنة ٣١٣م أباح فيه لجميع رعايا الإمبراطورية– وبينهم المسيحيون– أن يعبدوا كما يشاءون ورد إليهم كنائسهم المصادرة وأموالهم المنهوبة. وقيل إن ذلك الإمبراطور شهد في أحد أمسية انتصاراته الحربية صليبًا من نار يرتسم في الجو ونقشت فوقه هذه الألفاظ: (في هذا انتصارك) وحلم أيضًا أن المسيح يأمره أن يتخذ الصليب شعارًا لإمبراطوريته يحارب تحت لوائه.

المسيحية دين الدولة الرسمي:

وسواء أكان هذا القول صحيحًا أم حديثًا كنسيًّا متواترًا، فإن ذلك السياسي العظيم أصدر مرسومه التاريخي وفق مقتضيات عصره وأغدق على الكنيسة مزايا عديدة، على أنه لم يتعرض للوثنية بسوء وظل رئيس كهنة الوثنية على الرغم من اعتناقه المسيحية وقبوله المعمودية في آخر سنة من حياته (٣٣٧م). وما انفكت الوثنية مع هذا كله العدو اللدود للمسيحية، لا لأن أغلبية شعوب الإمبراطورية في أوائل القرن الرابع كانت باقية على الوثنية وحسب، بل لعامل جديد آخر؛ لأن قوة روحية جديدة اختمرت في العالم الوثني هي التي عرفت في التاريخ بالأفلاطونية الحديثة. وقد حاولت هذه المدرسة التي يرجع تاريخها إلى القرن الثالث أن تبدل الأديان الوثنية القديمة وتخلق منها فلسفة حديثة مجددة. وكان من آثار هذه الأفلاطونية الحديثة أن ارتد الإمبراطور يوليانوس– خليفة قسطنطين–

عن المسيحية إلى عبادة الآلهة القديمة وعاد إلى مبادئ آبائه وأجداده وقد أراد إحياء الوثنية لتناهض المسيحية، لا من حيث الثقافة فقط؛ بل من حيث الروح والآداب والأخلاق والمحبة وفعل الخير. وكأنما أراد أن يجعل من الوثنية مسيحية في قالب وثني. على أنه لم يضطهد الدين المسيحي وأباح الحرية لكل نوع من العبادات. ولكن هيهات أن ينافس الدين المصطنع الدين الحي الحقيقي. فإنه في عهد خلفاء يوليانوس، عادت المسيحية إلى مكانتها التي أحلها فيها قسطنطين العظيم وصارت دين الدولة الرسمي. ولم تقو الوثنية على الوقوف في وجهها؛ لأنها لم تظفر بشهداء يؤثرون الموت على التسليم والارتداء ولم تكن دين المستقبل الذي يضمن للبشرية الرقي والرخاء. وما حل القرن الخامس حتى كان نجم الوثنية قد أفل كعنصر من عناصر الثقافة وعدت الإمبراطورية كلها مسيحية لحمًا ودمًا. وبذلك تم للكنيسة الظفر المبين وانتقلت من هيئة سرية مطاردة مضطهدة إلى كنيسة لها الحول والطول، تسندها الإمبراطورية كلها وتعضدها قوات الدولة.

أخطار النصر:

كان الفوز مبينًا كما قلنا ولكن للفوز أخطاره ومساوئه. فمع توافر الحرية، حظيت الكنيسة بالكرامة والسلطان ولكن تسربت إليها المطامع والأهواء وكان أشد الأخطار أن الدولة قد فرضت الآن مطالبها على الكنيسة. فقد تبدلت من عدو إلى حليف ولكنها طالبت في نظير ذلك ببسط نفوذها على الكنيسة ثمنًا لهذا التحالف ولم تكن الدولة الرومانية قد ألفت من قبل أن ترى قوة أخرى إلى جانبها تقاسمها السلطان والنفوذ. وقد زعمت الدولة أن من حقها الإشراف على السلطة الروحية المقدسة التي تقوم بالعبادة الرسمية وأنها في هذا لا تطلب شيئًا جديدًا، بل تطالب بما كان لها من حق على العبادة الوثنية.

ومرة أخرى وقفت الكنيسة أمام الدولة تتحداها وتأبى الخضوع لها وتنكر عليها سلطانها وتدخلها. وكان يصح أن تلين الدولة وتتساهل، ولكنها أضفت على الكنيسة حمايتها وأغدقت عليها من المنح والامتيازات، لم تشأ أن ترضى بغير الاستسلام المطلق من جانب الكنيسة. ومن ثم نرى مهادنة الدولة للكنيسة وصداقتها لها أشد خطرًا عليها

من عدائها. وباحتضان الإمبراطورية تعرضت القوى الروحية في الكنيسة لخطر الاختناق والفناء– وعدا تنفيذ القانون الكنسي، واستدعاء المجالس العامة وتنفيذ قراراتها وتعيين الأساقفة في المراكز المهمة وحق الاختصاص الأعلى في المحاكم الروحية والقول الفصل في المشاكل الجدلية التي قد تنشأ حول العقائد– غدت من الحقوق التي طالبت بها الدولة الرومانية وأصرت على انتزاعها من السلطات الدينية. ولو أن الكنيسة ارتضت الآن أن تكون أداء طيعة تحت يد الإمبراطورية، لكانت ذهبت ضياعًا الدماء والجهود التي بذلتها في خلال القرون الثلاثة الأولى.

دستور الكنيسة الجامعة:

وعلى الرغم من ذلك، فإن الكنيسة انتفعت بشيء واحد من بعد أن اعترفت بها الدولة، وذلك أنها نظمت دستورها في طول الإمبراطورية وعرضها ووحدت أعمالها وجهودها وحققت لنفسها السلطان التام على النظام الكنسي. وكان مبدأ الكنيسة الجامعة (الكاثوليكية) يرمي إلى وضع نظام دستوري معين، فاهتبلت هذه الفرصة وأحكمت نظامها الذي صاغته على نموذج النظام في الإمبراطورية. فكانت (المدينة) مثلًا أصغر وحدة في النظام الإمبراطوري السياسي، فجعلتها الكنيسة أصغر وحدة في نظامها وعينت في دائرتها أسقفًا وصارت دائرة (المدينة) أبرشية أسقفية. كذلك كانت الولاية في دستور الإمبراطورية تشمل مدنًا عدة يحكمها والٍ من قبل رومية، فاقتبست الكنيسة هذا النظام عينه واتدت جملة من الأبرشيات تحت إشراف أسقف أكبر هو أسقف عاصمة الولاية وقاعدة الحكم فيها. ومن القرن الرابع، قضى دستور الإمبراطورية أن تؤلف وحدات من الولايات المتقاربة لتكون وحدة إمبراطورية، فاقتبست الكنيسة هذا النظام في دستوها وجعلت مقرًا للبطريركية يشرف على عدد من كبار الأساقفة. وأخيرًا تجمعت كل الكنائس المتفرقة تحت هيئة واحدة عليا سميت المجمع المكسوني وهو يشبه المجلس الإمبراطوري في دستور الدولة. ومن ثم كانت الكنيسة الإمبراطورية الجامعة وحدة متماسكة ومظهرًا خارجيًا منظورًا للمسيحية الواحدة الجامعة.

وكأن الإمبراطورية الرومانية في شيخوختها قد خلفت للكنيسة الفتية دستورها ونظمها وكان هذا الدستور تراث المستقبل المجيد. وقد انهار دستور الدولة ويبقي دستور الكنيسة حيًّا خالدًا حتى اليوم في نظام الكنيسة الكاثوليكية البابوية، يتدرج من وحدات صغرى حتى يصل إلى الرأس وهو البابا الذي تشبه سلطته الكنسية سلطة قيصر رومية في ذلك العصر الغابر. ولم يكن هذا الاتحاد المنظم بلا جدوى، فإن الكنيسة– بعد إذا اقتبست هذا النظام الإمبراطوري بما عهد فيه من قوة واتساع وتماسك– استطاعت أن تحرص على كيانها وسط العواصف والأنواء وتعبر عن إرادتها ووحدتها وتدافع أيضًا عن حريتها وإيمانها وعقائدها.

الأسقف أمبروز:

إن الكنيسة لم ترض مماشاة الدولة إلى الحد الذي أرادته من بسط سلطانها عليها ولا بدع في هذا، فقد وضع الرسل الأولون هذا المبدأ في حياة الكنيسة، وقال بولس– مع الفيلسوف الروماني شيشرون– إن الدولة جماعة من الناس تآلفوا معًا لإقامة قسطاس العدل. وما دام هذا غرض الحكومة الزمنية، فإنه لزام على المسيحيين أن يطيعوا السلطات (لأنها مرتبة من الله). أما إذا حادت هذه السلطات عن جادة العقل، فحق على المسيحيين أن يقاوموها لأنه (ينبغي أن نطيع الله أكثر من الناس) على حد قول الرسل الأولين والشهداء الذين سطروا هذه الحقيقة على صفحة التاريخ بأحرف من دماهم.

لذلك نرى الكنيسة ممثلة في زعمائها وقادتها وأساقفتها تعضد الإمبراطورية وتطيعها بعد أن تهادنت معها وكفت عن اضطهادها، ولكنها لم تخش أن تعصي القيصر وسلطانه في مناسبات كثيرة. ولما أرادت الدولة أن تتدخل في شؤون الكنيسة وتبسط عليها نفوذها، أبت وقال قائلهم في الغرب– وهو أمبروز أسقف ميلان– حين أراد الإمبراطور– وكان مسيحيًّا– أن يجعل له مكانًا بين الكهنة في الكنيسة: (إن هذه الملابس الأرجوانية تجعل مرتديها أمراء، لا كهنة. واقتيد الإمبراطور بكل تأدب إلى مكان آخر).

وكان أمبروز من كبار الزعماء الذين وقفوا موقف الحزم والثبات أمام مطالب الدولة.

ولد من أبوين مسيحيين واتخذ المحاماة مهنة له وشغل في الرابعة والثلاثين من عمره منصب القنصلية في ميلان وانتُخب أسقفًا وهو بعد في وظيفته.

وكان منصبه محفوفًا بالمخاطر والمصاعب؛ فإن قبائل البرابرة المتوحشين من الهون والقوط والفاندال كانوا يزحفون جنوبًا لتهديد الإمبراطورية العظيمة التي بدأ يدب الضعف في كيانها. وانقسمت الإمبراطورية بعد موت قسطنطين الكبير إلى شرقية وغربية. وفي عهد أمبروز، كان على عرش رومية ذاتها ثلاثة من الأباطرة المتنافسين على صولجان الملك. وقدر لهذا الأسقف العظيم أن يواجه في عهده خطر عودة الوثنية إلى الدولة التي كان أذنابها يحاولون التأثير على الإمبراطور وكيد الهراطقة والملحدين ومطالب السلطات الإمبراطورية لبسط نفوذها على الكنيسة.

وحدث في عام ٣٩٠م أن الإمبراطور ثيودوسيوس أمر بمذبحة رهيبة بشعة في مدينة تسالونيكي (سالونيك الحالية) لعقاب مواطنيها على قتلهم أحد الموظفين، فاجتمع الشعب في ساحة الألعاب كأنهم يشهدون حفلًا عامًّا، ثم أمر الإمبراطور أن يذبح هذا الجمهور الأعزل ذبح الأغنام. وبعد ذلك بقليل ذهب بموكب رسمي إلى الكنيسة في ميلان ليعبد هناك كعادته، فلقيه على الباب الأسقف أمبروز وابتدره بقوله: (ليس إلا رب واحد وملك واحد لهذا الوجود كله). وبكلماته اللاذعة كالنار منع الإمبراطور من التقدم إلى المائدة المقدسة بعد أن لطخ يديه الأثيمتين بدماء الأبرياء وأصر عليه أن يندم جهارًا أمام الشعب على فعلته الشنعاء. فأبى ثيودوسيوس هذا الإذلال وتجنب الكينسة ثمانية أشهر. وعند حلول عيد الميلاد، اضطر أن يخضع لمشيئة الأسقف ويقبل الندم والتوبة جهارًا، وسن شريعة تقضي بألا ينفذ حكم الإعدام أو المصادرة إلا بعد مضي ثلاثين يومًا من تاريخ توقيعه، وهي شريعة حكيمة تحد من سطوة الحاكم النزق الحاد الطباع. وبعد ذلك دخل الإمبراطور الكنيسة نادمًا متذللًا، مرتديًا ثياب مواطن عادي من أبناء ميلان وتعلم بعد هذا الدرس أن يكون بطيئًا مفكرًا في الانتقام من أعدائه.

وفضلًا عن هذه الأعمال الجليلة الباسلة، صنف أمبروز كتبًا عدة ووضع ترانيم

خشوعية غير موزونة ما زالت باقية حتى اليوم ذخرًا خالدًا للكنيسة، كما أدخل نوعًا خاصًّا من الأناشيد في العبادة.

القديس أوغسطينوس:

إن من جليل أعماله التي خلدها له التاريخ مصادقته لشاب نابه من علماء المنطق يدعى أوغسطينوس من (تاغست) في أفريقية الشمالية. وكان إبنًا لأب وثني وأم مسيحية تقية تدعى مونيكا، وقد شغل بال الأم التقية أن ترى ولدها يعتنق آراء شيعة من شيع الغناطسة ويميل إلى الفلسفة الوثنية. ولم يحاول أمبروز أن يفرض إرادته على صديقه الشاب، بل أخذه باللين والحسنى والعطف، وراح أوغسطينوس يصغى في لهفة إلى معلمه الوقور، حتى أشرق النور على عقله وصار مسيحيًّا مخلصًا في سنة ٣٨٧م، وروى قصة اهتدائه في كتابه المشهور (اعترافاتي).

وكان أوغسطينوس من أعظم المفكرين والكتاب في الكنيسة المسيحية وأقدرهم وأغزرهم مادة وروحًا. وما زالت مؤلفاته نبعًا يفيض بالخير والخصب الروحي. وقد أفاض في كتاباته عن مبلغ توكل الإنسان على الله، حتى أساء فهمه بعض الكتاب المتأخرين وظنوا أنه ينكر إرادة الإنسان الحرة. والواقع غير ذلك؛ فإنه كان يفند بكتاباته نظريات شاعت في عصره ذهب أصحابها إلى أن الإنسان مستطيع أن يكون صالحًا بدون معونة الله.

وأشهر مؤلفاته (مدينة الله). فقد كانت الإمبراطورية في عصره آخذة في الانحلال، وفي سنة ٤١٠م أغار (ألاريك) القوطي على مدينة رومية واحتلها بعد حصار طويل وزعم القوم أن الدين المسيحي أضعف الدولة وأنزل غضب الآلهة التي صبت على البلاد هذه الكارثة الدهماء، فكتب مؤلفه (مدينة الله) دفاعًا عن المسيحية ووصف الكنيسة كمدينة لله يسكنها كل العابدين حقًّا ولا تقوى عليها أبواب الهاوية.

وفي سنة ٣٩٥م، سيم أسقفًا في (هبو) بأفريقية الشمالية، ومات في السادسة والسبعين من عمره أثناء حصار قبائل الفاندال للمدينة التي كانت مقر أبرشيته.

مجمع نيقية:

حفل القرن الرابع بالحوادث الجسام في تاريخ المسيحية. ومن أبرز هذه الحوادث مجمع نيقية الذي انعقد لتفنيد هرطقة آريوس ولقد ناضلت المسيحية من قبل اليهودية الضيقة والوثنية الغاشمة والعالمية الشاردة والأغنسطية المتفلسفة، وغيرها من نزعات الزيغ والإلحاد.

ومنذ أوائل القرن الثالث، برزت بقرنيها هرطقة أخرى، كانت على الكنيسة أشد خطرًا من سائر الهرطقات، وذلك أن كاهنًا من كهنة الكنيسة في الإسكندرية يدعى آريوس أعلن جهارًا على الملأ أن المسيح لم يكن إلهًا، بل هو كائن وسط بين الله والإنسان، شبه إله خلق منذ البدء وقد حبك دعواه في عبارات خلابة حتى ظن كثيرون أنه يقول الحق.

ومنذ البداية كان فرضًا على المسيحية أن تواجه السؤال القائل: ماذا تظنون في المسيح؟ وقد كان سر لاهوته المشكلة الأولى والعظمى أمام العقل المسيحي المثقف، فمن كتابات بولس ويوحنا إلى كتابات خلفائهم من بعد مدى الأجيال، يقوم الإيمان المسيحي على أن يسوع المسيح هو (الأول والآخر) (رؤيا ١: ١٧) و(بداءة خليقة الله) (رؤيا ٣: ١٤) و(كلمة الله) (رؤيا ٩: ١٣) الذي به خلق العالمين وهو حي قبل تأسيس العالم. وبهذا المعنى هو ابن الله، بل الله ذاته. وقد وجد العقل البشري نفسه أمام صعاب حين راح يفكر أن ابن الله الذي صار إنسانًا وارتضى قيود الجسد وذله، يحسب معادلًا لله وهو في الوقت نفسه منفصل عنه.

هل يكون المسيح مجرد إنسان قد امتاز بمواهب خاصة وقوى معجزية وكرامات قدسية؟ ليس هنا شيء من الصعوبة البتة. والواقع أن قليلين مالوا إلى هذا الحل ولكنهم كانوا قلة ضئيلة لم يكن لهم شأن في تاريخ الكنيسة واستؤصلت هذه الهرطقة وهي نبتة صغيرة، فلم تقم لها قائمة فيما بعد في التاريخ المسيحي واستقر الفكر الديني على التسليم بألوهية المسيح. ولكن الله إله واحد، لا إله إلا هو، لذلك ذهب بعضهم إلى أن الله الأب تجسد في المسيح وتألم على الصليب. وأن الله الأب والله الابن والله الروح

القدس، ليسوا إلا مظاهر مختلفة للإله الواحد الأحد. وذهب آخرون إلى أن الكائن الإلهي الذي ظهر في المسيح هو كائن روحي خلق قبل إنشاء العالم وهو مخلوق، ومع ذلك أقل مرتبة من الله.

وكلا الرأيين قد بعد عن الإيمان القويم كل البعد ولم يكن بد من وضع حد لهذه الآراء المتناقضة وصياغة قانون الإيمان السليم في مصطلحات ثابتة لا تعبث بها أهواء الهراطقة والملحدين. وقد فطن أسقف الإسكندرية إلى خطر دعاية آريوس، فحاول في لقاء شخصي معه أن يرده إلى الصواب ثم استدعاه إلى مجمع من الأساقفة، فلم يرض آريوس العدول عن آرائه التي نظمها في قصائد شعرية وأناشيد وأغان رائعة، فشجر نزاع عنيف بين الآريوسيين وبقية الكنيسة وانتقل النزاع من مصر إلى غيرها من الأمصار وبلغ نبأ هذا النزاع أسماع الإمبراطور قسطنطين وقد وطن العزم على أن يحتفظ بوحدة الكنيسة صيانة لوحدة الإمبراطورية، فبعث رسالة إلى الإسكندرية مع الرجل الشيخ (هوسيوس) أسقف قرطبة في أسبانيا، يرجو فيها زعماء الكنيسة فض هذا الإشكال إبقاءً على الوحدة المسيحية. فلما عاد الأسقف إلى الإمبراطور أبلغه أن المسألة جد خطيرة وأقنعه بعقد مجمع الأساقفة لفض هذا النزاع، وغيره من أسباب الخلاف الأخرى.

وقد عقدت الكنيسة من قبل مجامع إقليمية محلية في القرنين الثاني والثالث، أما الآن وقد تمتعت الكنيسة بحريتها واستندت إلى عون الإمبراطورية، فلم يكن ثمة ما يحول دون عقد مجمع مسكوني يحضره ممثلون من كل رقاع العالم المسيحي.

هرطقة آريوس ومجمع نيقية:

ولذلك انعقد المجمع في مدينة نيقية بآسيا الصغرى سنة ٣٢٥م، ولأول مرة في تاريخ الكنيسة اجتمع– على ما يقال– ثلاث مائة وثمانية عشر أسقفًا من أحبار الكنيسة قدموا من فلسطين وسورية وآسيا الصغرى ومصر وأفريقية وأسبانيا وبلاد القوط، ولم يستطع أسقف رومية الحضور لكبر سنه وضعف صحته، فأوفد اثنين من رجاله نائبين عنه وكان بين المؤتمرين نساك من الصحراء ورجال بدت على جسومهم آثار الاضطهاد والتعذيب،

بل كان هناك أيضًا نفر من الفلاسفة الوثنيين الذين ساقهم حب الاستطلاع إلى هذا المحفل العظيم. وكان آريوس هناك– رجلًا أسمر البشرة، نحيف القوام، شاحب الوجه، كليل العينين، معقوص الشعر، يرتدى ثياب الناسك الخشنة وكان صوته جذابًا، ساحراً في قوة الكلام وحسن التعبير. وإلى جانب أسقف الإسكندرية وقف شماس شاب، له شعر أسمر مائل إلى الاحمرار وله لسان قوي الحجة حلو الحديث وقد أحضره الأسقف معه ليكون كاتم سره. ومع أنه كان شابًا في مقتبل العمر، فقد ذاع صيته بكتابين قيمين أخرجهما للناس. أما ذلك الشاب فهو اثناسيوس بطل المسيحية فيما بعد.

وفي وسط القاعة أقيم عرش وضعت عليه نسخ من بشائر الإنجيل وفي أحد أطراف القاعة مقعد صغير مذهب وقف عنده الإمبراطور قسطنطين في ثيابه الأرجوانية المذهبة ينتظر الإذن من الأساقفة قبل الجلوس.

وقد ألح الإمبراطور عند افتتاح المؤتمر على المصالحة والهدوء ولكن المناقشات اتخذت طريقًا عنيفًا واشتد الجدال حول مسائل الخلاف الكثيرة وجاء دور مشكلة آريوس، فاستعان أسقف الإسكندرية وأنصاره بأقوال السفر المقدس وبقانون إيمان بسيط صاغه يوسيبيوس أسقف قيصرية. ولكنهم رأوا أن آريوس وأتباعه قد يقبلون هذه الألفاظ ولكنهم يعنون منها شيئًا آخر، فبحثوا واجتهدوا حتى عثروا على لفظة يونانية (homoousion) ومعناها (جوهر) ليثبتوا بها أن المسيح من جوهر الله ومعادل له وصاغوا بعض عبارات قانون الإيمان الذي عرف فيما بعد في التاريخ بقانون الإيمان النيقوى، ومطلعه:

(أؤمن وبرب واحد يسوع المسيح بن الله.. إله من إله، مولود غير مخلوق، ذو جوهر واحد مع الأب..).

وبذلك فض المؤتمر النزاع القائم وقرر إبعاد آريوس وأتباعه إلى حين وحرق الكتاب الذي أودعه آراءه الملحدة. وفي الكنيسة المسيحية اليوم ثلاثة قوانين إيمان تنطوي على عقائد واحدة وإن اختلفت في الصياغة إيجازًا وإسهابًا. وأقدمها وأوجزها: قانون إيمان

الرسل وهو يعبر بعبارة مختصرة بسيطة عما كان يعلم به الرسل الأولون عن الله الأب وربنا يسوع المسيح والروح القدس، والكنيسة والغفران والحياة الأبدية. والثاني: قانون الإيمان النيقوي وسمي هكذا لأن في مجمع نيقية اتفق أحبار الكنيسة على صياغة ألفاظ معينة للتعبير بها عن طبيعة المسيح وهو أطول من قانون إيمان الرسل وتتلوه بعض الكنائس في عبادة الشركة المقدسة. أما الثالث: قانون إيمان أثناسيوس، ولئن كان لم يكتبه بنفسه، فإنه يعبر عن إيمان القديس أثناسيوس ويقال إنه كتب في القرن السادس ليتلى كتسبحة بعد المزامير ولا يستعمل الآن إلا نادرا، لأنه مطول مفصل.

ولم تسجل في محاضر المجمع النيقوي الأقوال التي تفوه بها الشاب أثناسيوس ولكن الذي نعرفه أنه منذ ذلك التاريخ غدا رجلًا عظيمًا في تاريخ الكنيسة، يعجب به الكثيرون ويبغضه الذين لم يكونوا معه على وفاق في الرأي. وبعد المؤتمر بسنة واحدة، عين أسقفًا على كرسي الإسكندرية وقضى فترة من الزمن يكتب المؤلفات ويرعى شعبه في هدوء وسلام. وبعد ذلك انقلبت حياته سلسلة من المخاطر والمعارك في سبيل الإيمان؛ لأن قسطنطين وخلفاءه على العرش عادوا إلى محاباة آريوس وراحوا يضطهدون أثناسيوس وأنصاره، فطرد إلى المنفى خمس مرات على إثر الدسائس التي حاكها أعداؤه والتهم التي آثاروها ضده، وأكثر من مرة عاش طريدًا متخفيًا في أديرة صحراوات مصر، يتنقل من مكان إلى آخر متنكرًا والرهبان يخفون أمره ويتسترون عليه. ومن مخابئه بعث برسائل إلى أصدقائه الذين كانوا يبكون كنائسهم التي انتزعت منهم وسلمت إلى الآريوسيين.

ومرة أحاط الجند بكنيسته وذبحوا العابدين ذبح الأغنام وأخرجوا المذبح والستائر وأحرقوها في الطريق العام ونجا هو بحياته. ومرة فر في زورق فطارده أعداؤه ولكنه نجا من أيديهم بحيلة غريبة. وكانت أشد الضربات على نفسه هجر أصدقائه له وقبولهم عقيدة آريوس؛ خوفًا من العقاب أو الموت. وكاد يكون وحده في هذا النضال القاسي، ولكنه ما تردد ولا تزعزع وخلد بعده المثل المأثور (أثناسيوس ضد العالم كله) لوصف كل بطل يناضل وحده في معركة عنيفة.

انتصرت الآريوسية مدى حين في الشرق بفضل تعضيد الإمبراطور الذين ارتدوا عن الإيمان القويم ولكنها لم تستطع البقاء طويلًا؛ فقد انقسمت على نفسها شيعًا وأحزابًا وجاء الإمبراطور ثيودوسيوس– وكان من أنصار أثناسيوس– واستدعى مجمعًا مسكونيًّا ثانيًا في القسطنطينية (سنة ٣٨١م)، فأقر مرة أخرى قانون الإيمان النيقوي أساسًا لعقائد الكنيسة الجامعة وانطفأت شعلة الآريوسية من تلقاء نفسها؛ لأنه أعوزتها قوة المقاومة واحتما عواصف التاريخ. وكانت تلك الهرطقة المحاولة الأولى لإحلال الفلسفة العقلية المنطقية محل الإيمان المسيحي، فباءت في آخر الأمر بالخيبة والفشل. وانتصرت العقيدة النيوقية التي ميزت، وفي الوقت نفسه وحدت جوهر الآب والابن، وصاغت عقيدة الثالوث المقدسة، عقيدة الوحدانية الالهية في ثلاثة أقانيم. وعندنا أن انتصارها يرجع إلى أنها قد أعلنت– وفي الوقت نفسه أخفت في وقار وخشوع– سر طبيعة المسيح. وبهذا السر العميق تعلق رجاء الكنيسة مدى الأجيال، وهو سر وقفت أمامه الإنسانية خاشعة متهيبة تحاول الوصول إلى أغواره ولكن هيهات أن تفلح، فإن الإله الذي يدركه العقل البشري ويحيط به إحاطة تامة يبطل أن يكون إلهًا.

وبعد مجمع نيقية المسكوني، انعقدت مجامع مسكونية أخرى لفض الإشكالات الدينية التي ثارت حول طبيعة المسيح وذاته وغير ذلك من الخلافات الكنسية. وسميت تلك المجامع مسكونية؛ لأنها ضمت ممثلين من كافة الهيئات والعناصر المسيحية. ففي سنة **٣٨١م** انعقد مجمع القسطنطينية، وفي سنة **٤٣١م** مجمع أفسس، وفي سنة **٤٥١م** مجمع خلقيدونية.

***

بعض الشخصيات البارزة في هذا القرن:

كما حفل هذا القرن بالحوادث البارزة، حفل أيضًا بالشخصيات العظيمة. فهو القرن الذي برز فيه أمبروز وإيرونيموس والآباء الكبدوكيون الثلاثة العظماء وهو القرن الذي استهله أثناسيوس وختمه أوغسطينوس. ونرانا هنا مضطرين إلى ذكر بعض العظماء المجاهدين الذين كان لهم شأن خطير في تطور الحوادث في تلك الفترة من التاريخ المسيحي:

يوحنا فم الذهب:

من الشخصيات البارزة في تلك الفترة القديس يوحنا فم الذهب (٣٤٧– ٤٠٧) وقد رسم شماسًا في سنة ٣٨١م، ثم كاهنًا في مدينة أنطاكية سنة ٣٨٦م. وقد ذاع صيته كواعظ قدير وكانت الجماهير الحاشدة تهرع إلى سماعه، بحيث هيأ زحامها فرصة للنشالين والسارقين واضطر في آخر الأمر إلى أن يحذر جماهير سامعيه ليتركوا أكياس نقودهم في دورهم. وقد خلعت عليه فصاحته لقبًا عرف به في التاريخ (فم الذهب) أو (ذو الفم الذهبي). وفي سنة ٣٩٧م عين أسقفًا على كرسي القسطنطينية، فبدأ بذلك متاعبه وأعباء حياته ولم يكن الإقبال عليه هناك أقل منه في أنطاكية، ولكن خشونة طباعه وحدته في التشهير بالأشرار قد أثارت ضده عداء رجال البلاط والكهنة وطبقات الأغنياء. كما أغضب بصفة خاصة الإمبراطورة التي شبهها في إحدى عظاته مرة بإيزابل الشريرة وأخرى بهيروديا الخليعة. وكان بطريرك الإسكندرية، ثاوفيلس، عدوًّا له، فأصدر عليه حكمًا في مجمع محلي عقده على مقربة من القسطنطينية. وقد تآمر عليه الأعداء وأفلحوا في الحصول على حكم بنفيه سنة ٤٠٣م، ولكن محبة الشعب له وتعلق العامة به حال دون تنفيذ هذا الحكم واضطر أرباب السلطان إلى إعادته خشية نشوب ثورة الدعماء. وكل هذا لم يرهبه ولم يفقده شيئًا من شجاعته في الحملة على الأشرار وفضح أعمالهم، حتى آل الأمر إلى نفيه في السنة التالية وظل في منفاه حتى قضى نحبه من فرط ما عانى من سوء المعاملة والقسوة الوحشية.

ويحسب يوحنا فم الذهب أوفر الكتاب إنتاجًا بين الآباء الأولين وأكثرهم تقوى وورعًا وقداسة، لم يدانه أحد في اكتساب قلوب عامة الشعب ولكنه فشل في استمالة رجال الحكم والسلطان إليه. وموقفه من هذه الناحية أشبه بموقف زميل في الغرب معاصر له، هو القديس أمبروز أسقف ميلان الذي ألمحنا إلى ذكره في هذا الفصل.

الأسقف سينسيوس:

ولعله من الشائق أن نذكر اسم زعيم آخر من طراز غير الطراز الذي نعرفه، يمثل لنا

صورة تختلف كل الاختلاف عن الصور التي ألفنا رؤيتها في القرون الأولى من تاريخ المسيحية– فهو الأسقف سينسيوس وكان من مواطني ليبيا في أفريقية الشمالية التي سميت في التاريخ القديم (سيرانيكا). وقيل عنه إنه من سلالة الإغريق الذين غزوا هذه الرقعة الأفريقية قبل ألف عام من ذلك التاريخ. وبعد أن درس في مدرسة الإسكندرية تحت قدمي هايبشيا الفيلسوفة التي أعجب بها كل الإعجاب، انتقل إلى موطنه وانصرف إلى إدارة أملاكه الواسعة وقضى معظم وقته في الفلاحة والكتابة والدرس والصيد. وفي موضوع الصيد والقنص، كتب أول مؤلفاته وكان قنص النعام من أعز مطالبه. كذلك قرض الشعر ودرس علم التنجيم واخترع منظارًا لقاع البحر.

ولما غزت بلاده قبائل قطاع الطرق الذين خرجوا عليها من مجاهل الصحراء، تولى تدبير الدفاع، فسلح الفلاحين والزراع وعبيده الذين يملكهم وابتكر أسلحة جديدة للدفاع عن الوطن.

وفضلا عن هؤلاء الغزاة من الخارج، فإن أهل (سيرانيكا) أوقعتهم الأقدار تحت يد حاكم ظالم مغتصب. ولذلك لما خلا كرسي الأسقفية في (بتولمايس) ـ وهي الآن ميناء صغيرة تقع بين درنة وبنغازى ـ أجمع الشعب على اختيار سينسيوس لهذا المنصب ووافق على ذلك أساقفة الولاية، كما وافق تيودور أسقف الإسكندرية وكان رئيسًا لهؤلاء. أما سينسيوس فقد تمنع وتردد وحسب نفسه غير أهل لهذه الوظيفة وخشي أن يحرم ملذات الصيد والقنص واللذات الأخرى التي استهوته. وعلى حد قوله: (جثيت على ركبي طالبًا الموت أولى من كرسي الأسقفية).

وبعد ذلك نزل على إرادة الشعب، ولكنه اشترط أن يحتفظ بزوجته، وكان الأساقفة لا يتزوجون عادة. وفي هذا كتب يقول: (إن الله نفسه وشريعة البلاد ويد ثاوفيلس المباركة، قد وهبتني هذه الزوجة. ولذلك أعلن أمام الملأ أني لن أنفصل عنها وأرجو أن يرزقني الله نسلًا صالحًا يمجده على الأرض).

وقد عين أسقفًا على بتولمايس مسقط رأسه سنة ٤١٠م ووقع له ما كان يخشاه. فلم

يعد يجد فراغًا من الوقت لإشباع نفسه بالأمور التي أحبها وقضى حياته في كفاح مع السلطة الحاكمة لتبتعد عن كل تدخل في الشؤون الدينية وكفاحه أيضًا مع الغزاة الذين ما فتئوا يغيرون على البلاد، فإن عبء الدفاع عن الوطن ظل على منكبيه حتى بعد رسامته نزولًا على رغبة الشعب وهو أول أسقف دون التاريخ اسمه بين صفوف المحاربين، وإن يكن قد فعل ذلك دفاعًا عن شعبه ضد السلب والنهب والقتل.

على أنه مع هذا كله، قد قام بواجباته الأسقفية في مدته القصيرة على أحسن ما يؤدى المرء واجبه في نشاط وإخلاص وولاء.

القديس مارتن:

ومن قبل أشرنا إلى القديس أمبروز في الغرب وهو من زعماء الكنيسة في تلك الفترة من تاريخها. بقي أن نذكر اثنين آخرين، وهما: القديس مارتن والقديس إيرونيموس.

ويحسب مارتن عالمًا من علماء الكنيسة، وإن لم يكن من كتابها البارزين. ولد سنة **٣١٥**م في مكان يقرب من مدينة بودابست الحديثة وقد استمالته المسيحية من بدء حياته وأراد أن يكون راهبًا، ولكن والده حال بينه وبين ذلك وأمره أن ينخرط في سلك الجندية، حيث قضى سنوات في الجيش العامل. وفي يوم من أيام الشتاء القارصة– وهو مع فرقته في مدينة أميان بفرنسا– تقدم إليه شحاذ يكاد يكون عاريًا وطلب إحسانًا. ولم يكن لديه شيء من النقود، فانتزع مارتن عباءته وشقها نصفين وأعطى نصفها لذلك الشحاذ المسكين. وخيل إليه في تلك الليلة أنه شهد المسيح نفسه مرتديًا هذه الشقة من العباءة. وكانت تلك الرؤيا الحد الفاصل بين حياة قديمة وأخرى جديدة، فترك خدمة الجيش وصار تلميذًا لأحد الأساقفة وأنشأ في سنة **٣٦١** أول دير في بلاد الغال (فرنسا الآن).

وفي سنة **٣٧١**م عين أسقفًا على أبرشية (تور) في فرنسا. ولما رأى كثرة طلابه ومريديه، اختلى إلى غار في جرف يشرف على نهر اللوار، لا يمكن الوصول إليه إلا من طريق وعر منحدر. وهناك تبعه ثمانون من طلابه واحتفر كل منهم لنفسه غارًا في الصخرة يأوي إليه وارتدوا جميعًا جلود الأغنام ولم يأكلوا إلا وجبة واحدة في اليوم وأفرطوا في حياة

التقشف والزهد. وكان معظم الفلاحين في أبرشيته وثنيين، فجعل همه الأول هدايتهم إلى دين الحق وأخذ على عاتقه أن يهدم الهياكل الوثنية ويقيم الكنائس على أنقاضها. وكان رحيمًا بارًّا بالفقراء والمذنبين. وحدث مرة أن الكونت أفيتانوس حاكم الولاية جاء إلى (تور) ومعه نفر من الأسرى حُكم عليهم بالإعدام، فذهب مارتن في تلك الليلة إلى باب الكونت وأخذ يصيح حتى أيقظ صاحب البيت ولما خرج ألفي الأسقف مارتن مطروحًا على عتبة الدار ويداه ممدودتان بالتوسل والاستعطاف، فرفعه الكونت وطيب خاطره ووعده أن يستبقي حياة الأسرى؛ إكرامًا له واستجابة لطلبه الصامت.

وحدث مرة أخرى أن شخصًا يدعى (بريسكلان) وزملاء له أتهموا بالهرطقة، فجئ بهم أمام الإمبراطور مكسيموس وألح الأساقفة الذي دانوهم بالهرطقة على إعدامهم. ولكن مارتن احتج على المجئ بالمتهمين أمام سلطة عالمية وأصر على أن في حرمانهم العقاب الكافي ولم يغادر بلاط الإمبراطور حتى وعده بالعفو عنهم. ولما ذهب أقبل الأساقفة الآخرون وأقنعوا الإمبراطور بالعدول عن وعده، وفعلًا قطعت رأس بريسكلان وآخر معه وكانت هذه أول مرة أهرق فيها دم إنسان بسبب الهرطقة.

ولما بلغ الخبر أسماع الأسقف مارتن، غضب غضبًا شديدًا وأبرم على نفسه عهدًا بقطع كل صلة بالأساقفة الذين حملوا الإمبراطور على إتيان هذه الفعلة الشائنة. وأراد بعد ذلك أن يتشفع لدى الإمبراطور عن نفر آخر من أنصار (بريسكلان) حكم عليهم بالاعدام، فأبى الإمبراطور إجابة التماسه إلا إذا أعاد صلته المقطوعة بالأساقفة الآخرين، فاضطر إلى الإذعان إبقاء على حياة المتهمين ولكنه فعل ذلك تحت وخز ضمير لم يهدأ له روع إلى آخر حياته.

ومات في سنة ٤٠١م وودعه إلى مقره الأخير ألفان من الرهبان الذين أحبوه وأخلصوا له. وكانت صفاته وأخلاقه في عصره مصدر قوته وعظمته وعلو كعبه بين عامة الشعب الذين رأوا طرازًا جديدًا من القداسة وإنكار الذات.

القديس إيرونيموس:

ومن أبطال تلك الفترة القديس إيرونيموس، وهو صاحب ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية. وقبل عصره كانت الترجمات اللاتينية لأسفار العهد القديم منقولة عن الترجمة اليونانية المعروفة بالترجمة السبعينية. فتولى إيرونيموس ترجمة أسفار العهد الجديد عن اليونانية ونقل أسفار العهد القديم عن الأصل العبري، وقد تعلم العبرية لهذا الغرض بعد جهاد طويل شاق وعمل متواصل. وقد بقيت ترجمته المرجع المعترف به في الكنيسة الغربية إلى عهد الإصلاح، وما فتئت حتى اليوم الترجمة الرسمية في الكنيسة الكاثوليكية.

والجدير بالذكر أنه ترجم أيضًا بعض كتابات أوريجانوس وعدة بحوث لاهوتية أخرى. وكان له شغف شديد بكتابة الرسائل وخلد للكنيسة تراثًا لا يفنى من الرسائل الحافلة بشتى المعلومات عن حياة الكنيسة في عصره.

وقد اعتزم في أيام شبابه على أن يصير راهبًا، ولكنه لم ينفذ هذا العزم إلا بعد أن رأى رؤيا خلال مرض أصابه وهو في أنطاكية. وفي تلك الرؤيا تمثل نفسه واقفًا أمام كرسي دينونة الله، وسمع سؤالًا: (من أنت؟ فأجاب: أنا مسيحي). ولشد ما كانت دهشته أن يسمع الصوت يقول له: (أنت تكذب. لست مسيحيًّا). وبعد هذه الرؤيا بقليل بدأ حياة النسك في صحراء قريبة من أنطاكية، حيث قضى خمس سنوات وفي وصف حياة التقشف كتب يقول: (تهرأ جسمي من لفحات الشمس المحرقة واكتنفتني الحيات والعقارب واصفر وجهي من الصوم وتشوهت أعضاء جسمي من الجلود الخشنة واسود لون جلدي من فرط الإهمال، حتى صار مثل لون عبد حبشي. كان نصيبي طول اليوم الدموع والتأوهات..).

على أن زملاءه النساك الآخرين في الصوامع والخلوات، لم يكونوا راضين عنه واتهموه في عقيدته وحاول عبثًا أن يدفع عنه هذه التهمة بالإقرار والاعتراف، وأخيرًا اضطر إلى أن يعود إلى العالم. وبعد أن قضى زمنًا في رومية، انطلق إلى فلسطين سنة ٣٩٦م وعاش هناك راهبًا إلى آخر حياته في سنة ٤٢٠م.

القرن الخامس

رأينا في فصل سابق أن دستور الكنيسة ونظمها وضعت على أسس النظام الإمبراطوري في الدولة الرومانية، فكان للمدينة وما حولها أسقف محلى وكان لعاصمة الولاية أسقف يشرف على عدد من الأبرشيات الصغرى. ومن القرن الرابع، تألفت وحدات من الولايات المتقاربة على نحو ما اتبع في الإمبراطورية وأقامت عليها كبيرًا للأساقفة، أطلق عليه فيما بعد لقب (بطريرك).

وكان هذا التنظيم مما عنى به مجمع نيقية وأقر سلطان أسقف عاصمة الولاية metropolitan بالاشتراك مع المجامع الإقليمية على أساقفة وكنائس ولايته. على أنه كان لبعض تلك الأبرشيات الرئيسية مقام ممتاز خلعته عليها التقاليد التاريخية، فأقر المجمع أيضًا بالامتيازات التقليدية التي تمتعت بها تلك الكنائس وقد خص بالذكر كنائس رومية والإسكندرية وأنطاكية، عواصم الإمبراطورية الثلاث. فكان لكرسي الإسكندرية سلطان على مصر والبلدان المجاورة ولكرسي أنطاكية سلطان على سورية والأقاليم المتاخمة لها في الإمبراطورية الشرقية.

والآن يظهر أسقف القسطنطينية– أو بيزنطة– قوة جديدة في دستور الكنيسة؛ فبعد أن صارت بيزنطة العاصمة الثانية للإمبراطورية، أحس أسقفها أن من حقه بأن يحتل مكانًا بين أساقفة المدن الأخرى الكبرى، وخاصة بسبب علاقاته مع السلطات الإمبراطورية. وفي مجمع القسطنطينية الذي انعقد في سنة ٣٨١م، أعطى أسقف بيزنطة رتبة في الكنيسة تلي رتبة أسقف رومية مباشرة. وفي مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م، تقرر أن تضم إليه الأبرشيات الثلاث الكبرى في تراقية وآسيا الصغرى ويونطس، وبذلك خضع له أساقفة هرقلية وأفسس وقيصرية.

كذلك راعى مجمع نيقية مكانة أسقف أورشليم، فخلع عليه كرامة ممتازة؛ لأن

أورشليم مهد المسيحية وأم الكنائس كلها. وما أن حل النصف الأخير من القرن الخامس، حتى عدت الكراسي الخمسة الكبرى في رومية والقسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية وأرشليم مراكز الرئاسات العليا للعالم المسيحي التي يرجع إليها في تصريف شؤون الكنيسة المسيحية وصار أساقفتها (بطاركة) وأن يكن لقب (بطريرك) لم يعرف رسميًا قبل القرن التاسع. لكل من هؤلاء الخمسة رتبة (الأب الأعظم) أو (بابا) المسيحية. والآن تبدو في الأفق مشكلة أخرى، هي مشكلة الرئيس الأعلى للكنيسة ومن سيكون بين هؤلاء الخمسة الرئيس الأكبر للمسيحية كلها؟.

ويشهد التاريخ على أن من غرائز الإمبراطورية الرومانية في تاريخها أن تقبض على أعنة العبادة الدينية الرسمية وتجعل رجال الدين الرسميين آلات طيعة يأتمرون بأمرها. وأسقف القسطنطينية هو الآن أسقف البلاط الإمبراطوري يتنقل بين مظاهر الأبهة والجلال وهو صنيعة الإمبراطور الجالس على العرش، ولا تسنده في كرسيه تقاليد ولا امتيازات كنسية كما هو الحال في رومية أو أنطاكية، فكل سلطته مستمدة من العرش وكل كسب لهذا الأسقف هو في الواقع كسب للعرش. لذلك حمل العرش هذا الكرسي– وهو أحدث الكراسي المسيحية– فوق أجنحة النسور وسما به ليمسك بين يديه سلطانًا على الكنيسة. وكان معنى القرارات التي اتخذها مجمع القسطنطينية (سنة ٣٨١م) ومجمع خلقيدونية (سنة ٤٥١م) أن رئيس الكنيسة الأعلى ليس أسقف رومية ولا أسقف الإسكندرية ولا غيرهما، بل الإمبراطور ذاته. وكأنما كان عبثًا أن تناضل الكنيسة لوضع دستورها ونظامها لكي تقدم تاجًا لرئيس أرضي.

أفلم يكن في الكنيسة سلطة ما تتحدى الإمبراطورية وتدافع عن استقلالها ضد رئيس هذا العالم؟

هنا انبرى أسقف رومية للنضال مع القسطنطينية وأيده في هذا النضال كل الموارد والتقاليد الكنسية؛ فإن قضيته في تلك الفترة كانت قضية حرية الكنيسة وكان الحديث متواترًا منذ القرن الثاني أن كنيسة روسيي أسسها الرسولان بولس وبطرس وأن اسقف رومية هو خليفة بطرس، أمير الرسل. وإذا كان بطرس هو الصخرة التي أقيمت عليها

الكنيسة، وجب إذًا أن يكون أسقف رومية خليفته صخرة الكنيسة (ومن ذلك التاريخ نشأت فكرة الخلافة الرسولية التي تتشبث بها الكنيسة الكاثوليكية إلى اليوم).

***

رأينا كيف تطورت سلطة أسقف القسطنطينية وارتقى من رتبة أسقف بسيط خاضع لكرسي هرقلية إلى رتبة علت به فوق الأساقفة الآخرين. ورأينا كيف أخضع مجمع خلقيدونية لسلطانه ثلاثًا من الأبرشيات الكبرى، ثم أخضع له أيضًا الكنائس الأخرى، ليصير– وهو ليس أقدم ولا أعظم الكراسي الدينية– سيدًا على الجميع وأسقفًا للأساقفة. فكيف تم له ذلك كله؟!

بدء النزاع بين الغرب والشرق:

بعد موت الإمبراطور ثيودوسيوس سنة **٣٩٥**م، انقسمت الإمبراطورية الرومانية بين ولديه الشابين: أركاديوس للإمبراطورية الشرقية وعاصمتها بيزنطة، وهونوريوس للإمبراطورية الغربية وعاصمتها رومية. وكان اعتلاؤهما العرش فاتحة عصر جديد في التاريخ، وبداية انهيار الإمبراطورية بغزوات برابرة الشمال من قبائل القوط والفاندال والهون. وخلال السنوات ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠م حاصر ألاريك قائد البرابرة مدينة رومية ثلاث مرات. وفي المرة الثانية، سلمت المدينة وأقام على العرش صنيعة من صنائعه، ثم سار بجحافله إلى (رافنا) مقر الإمبراطور للمطالبة بتأييد سلطانه. وإذ يرفض طلبه، يعود أدراجه ليدخل المدينة عنوة وتمسى رومية الخالدة، سيدة العالم، فريسة سائغة للسلب والنهب بأيدي أولئك البرابرة.

على أن ألاريك ورجاله كانوا قد عرفوا المسيحية– وإن تكن مسيحية آريوس– فأمر جنوده بعدم المساس بحياة أحد من الناس وصيانة الكنائس الرسولية. ويروى أحد مؤرخي ذلك العصر قصة مأثورة تدل على الإحساس الديني في نفوس الغزاة، قال: إن جنديًّا دخل مسكن عذراء مسيحية عجوز للسلب والنهب وأمرها أن تسلم ما لديها من كنوز. وكانوا قد أخفوا عندها آنية الكنيسة الكبرى وزينتها، فأظهرت في هدوء وجلال ما لديها

من كنوز للجندي– آنية من الذهب الخالص كبيرة الحجم دقيقة الصنع. وقالت له: (هذه ملك القديس بطرس وأنا امرأة لا حول لي ولا طول لا أستطيع صيانتها ونفسي طاهرة نقية، فخذ هذه الآنية إن شيءت وقدم حسابًا لله...).

فما كان من هذا الجندي إلا أن بعث برسالة إلى قائده ألاريك. وتلقى منه الأمر أن تؤخذ هذه العذراء الطاهرة ومعها الكنوز في حراسة الجند إلى الكنيسة الكبرى لتوضع الآنية في مكانها.

ولكن القصور والهياكل الوثنية نهبت كل كنوزها وذخائرها وأمسى كثيرون من أفراد الأسر العريقة عبيدًا أرقاء وهرب نفر كبير إلى مدائن أفريقية ومصر والشرق حتى غصت بهم.

وكان أسقف رومية غائبًا في (رافنا) يستنجد بالإمبراطور، ولما عاد وجد رومية القديمة عبثت بها أيدي الدمار والتخريب والمجتمع الروماني القديم قد تبعثر وتشتت. أما الكنائس وبيوت الشعب فلم يمسها ضر. انهارت رومية الوثنية وقامت على أنقاضها رومية المسيحية. وغدا الأسقف أعظم رجل في رومية وزاد على الأيام سلطانه ونفوذه واحتفظ بأمواله وأملاكه وكنائسه.

أما الدولة الشرقية، فكانت أوفر حظًّا من الغربية، وإن كانت فقدت بعض أطرافها، إلا أنها بقيت محتفظة بعاصمتها ودستورها وحضارتها ودينها إلى القرن الخامس عشر.

***

انهيار الدولة الرومانية الغربية:

كانت الإمبراطورية الغربية– حتى قبل انهيارها– قد أمست ظلًّا وأمسك الإمبراطور الشرقي في بيزنطة أعنة السلطان على العالم الروماني.

وكانت رومية في ذلك الحين الكرسي الرسولي الوحيد في الغرب، يرتبط بوشائج من الاتحاد مع أفريقية اللاتينية وقرطاجنة وأسبانيا وبلاد الغال وكان له النفوذ الأعلى فوق الكنائس كلها. ولا يفوتنا أن رومية كانت عاصمة العالم يومئذ، المدينة الخالدة، سيدة

المدائن كلها. وكان لجماعة رومية المسيحية ـ منذ عهد الرسول بولس ـ فضل السبق والتقدم على الجماعات الأخرى حتى في الشرق. فكل الخلافات العقائدية التي ثارت في القرون الثلاثة الأولى بت فيها بعد استشارة الكنيسة في رومية ونبتت فكرة الأسقفية والقانون الكنسي والكنيسة الكاثوليكية الجامعة، في رومية أولا، وهي الكنيسة الأم للمسيحية الكاثوليكية (ونقصد بذلك المسيحية الجامعة). فضلًا عن ذلك فقد كان لها من سعة الموارد المالية وكثرة عدد الأعضاء والسخاء في الإعانات، ما قوى نفوذها، لا في الغرب فقط، بل في اليونان وآسيا وانتقل هذا النفوذ من الكنيسة إلى اسقفها، حتى لقد استطاع في نهاية القرن الثاني أن يصدر حكم الحرمان على كنيسة آسيا الصغرى في مسألة الخلاف حول موعد الاحتفاء بعيد الفصح كما رأينا من قبل.

رومية تنازع القسطنطينية:

بكل هذه الموارد الروحية والتقليدية والمادية، تقدم أسقف رومية للنضال ضد مطالب القسطنطينية التي كانت مطالب الإمبراطورية. وكان إعلان القسطنطينية عاصمة ثانية للإمبراطورية قبل قسمتها الضربة الأولى التي وجهت للحد من نفوذ أسقف رومية، فكلما مال مركز الثقل في الإمبراطورية إلى الشرق، زادت القسطنطينية نفوذًا وأصبح أسقفها الرئيس الروحي الأعلى الذي تسير وراءه كل الشعوب اليونانية في الشرق، وقد بدا هذا الميل بارزا في مجمعي القسطنطينية وخلقيدونية.

واستفادت رومية من شيء آخر في هذا النضال، فالهرطقة الآريوسية سويت في مجمع نيقية، ولكن جلس خلف قسطنطين على العرش، فاحتضن هذه الهرطقة التي ألفت مرتعًا خصيبًا في كل ربوع الشرق. وكان من جراء هذا الانتكاس، عزل أثناسيوس من كرسي الإسكندرية وفر إلى رومية– طالبا معونة أسقفها وحماه. وبينما حاد الشرق، ظل الغرب أمينًا للإيمان النيقوي بزعامة أسقف رومية، ولم يكن أثناسيوس الأسقف الوحيد الذي استأنف قضيته أمام رومية، فإن أساقفة الشرق الآخرين الذين آثروا الاعتصام بالإيمان القويم ضد الهرطقة الآريوسية حذوا حذوه وقد هيأ هذا فرصة لرومية لتتدخل

كرئاسة عليا في منازعات الكنائس كلها حتى الشرقية. وأصدر مجمع في رومية برئاسة أسقفها يوليوس قرارًا بإعادة أثناسيوس إلى كرسيه وبطلان قرار عزله. وقد اعترض أساقفة الشرق الموالون للآريوسية على هذا القرار ولكن اعتراضهم لم يغير من الأمر الواقع، وهو أن كرسي رومية غدا الآن ذا نفوذ وكرامة بين الكنائس في الغرب والشرق. وأفلح أسقف رومية في دعوة مجمع عام في سنة ٣٤٣م في مدينة صوفيا– عاصمة بلغاريا الآن– وانقسم الأساقفة حول الخلافات العقائدية وانشطر المجلس، فعقد أساقفة الشرق الآريوسيين مجمعًا خاصًّا لهم في (فيلبوبوليس) وظل الباقون في مجمع صوفيا، حيث أجمعوا على إعطاء أسقف رومية حق البت في قضايا الاستئناف التي تقدم له من الأساقفة المعزولين. وفي مجمع صوفيا تأيدت السلطة البابوية وأقر الغرب وبعض أساقفة الشرق سلطة وزعامة أسقف رومية.

وفي ختام القرن الرابع، انتهى الخلاف الناشب بهزيمة الهرطقة الآريوسية وكان انتصار قانون الإيمان النيقوي انتصارًا لرومية. ألم توصم أهم الكراسي الأسقفية في الشرق بوصمة هذه الهرطقة البغيضة؟ وأي كنيسة غير كنيسة رومية حملت لواء الأرثوذكسية الصحيحة في هذه المعارك كلها؟ والآن تتحداها القسطنطينية بكرسيها، فتستمد رومية من ماضيها ونضالها الطويل وتقاليدها عزيمة لكبح جماح السلطة الزمنية التي تروم الافتئات على السلطة الروحية.

ثم كانت تلك السيول الجارفة من الشعوب الجرمانية في الشمال التي زحفت إلى الجنوب واكتسحت أمامها الإمبراطورية الغربية كما تقدم وانتزعت منها سيادتها وأذلت كبرياء رومية. وكان سقوط الإمبراطورية في الغرب فرصة أتاحت للكنيسة التخلص من السلطة الزمنية التي تركزت في القسطنطينية. فلما أقر مجمع خلقيدونية (سنة ٤٥١م) سلطان القسطنطينية ومنح أسقفها حق الزعامة والتقدم، احتج مندوبو أسقف رومية ووقف الخصمان وجهًا لوجه. وقد توقف سير التاريخ في المستقبل على نتائج هذا الصراع؛ فقد كان بداية المقاومة العنيفة التي أدت إلى شطر الكنيسة إلى معسكرين: الكاثوليكية واليونانية.

بدأت المسيحية كتلة واحدة هائلة عظيمة، مثلها مثل دوحة وارفة الظلال نمت من

حبة خردل صغيرة، وتوزعت ثمارها في المشارق والمغارب وجاءت الشعوب لتحتمي تحت أغصانها. وبعد القرون الأولى، لاحت سحب قاتمة تنذر بهبوب زويعة عاصفة، ومن وسط هذا القتام نفذت الصاعقة التي شطرت جذع الدوحة العظيمة إلى قسمين. من أجل مطامع أسقفين وانقسام الإمبراطورية الرومانية نصفين وقيام عاصمة ثانية في القسطنطينية إلى جانب رومية القديمة، انشطرت الكنيسة المسيحية الواحدة شطرين...

وكان هذا الانقسام بداية الأوجاع التي نعانيها اليوم وأول بادرة من بوادر الغمة الأليمة التي تبسط ظلمتها على القلوب المخلصة الأمينة والتي أفقرت الكنيسة الجامعة في كل نواحي حياتها. وحين نفكر في الانقسام الأول في تاريخ الكنيسة بين الشرق والغرب، من ذا الذي تخامره ريبة في أن الكنيسة الشرقية تألمت من فقدانها الاتجاهات العملية القوية في كنيسة الغرب؟، كما أن الكنيسة الغربية بجنوحها إلى النزعة القانونية الجامدة كانت تنتفع كثيرًا لو أنها اتحدت بالكنيسة الشرقية التي امتازت بنزعتها الفلسفية التعبدية القوية. ألم يكن هذا الانفصال عاملًا لإفقار الكنيستين معًا؟ ثم هناك الانقسام الآخر في عهد الإصلاح بين الكنيسة الكاثوليكية الكبرى وبين الكنائس البروتستانتية– الذي سيجئ عنه الكلام فيما بعد– فإن الكنيسة اللاتينية ظلت خاضعة لتلك النزعة القانونية الجامدة ولم تتأثر بالحوافز الحرة في البروتستانتية. بينما جنحت الكنائس البروتستانتية إلى التعدد شيعًا وطوائف تحصى بالمئات؛ لأن ميولها إلى الحرية لم تتزن بتلك المؤثرات القانونية المركزة في الكنيسة الكاثوليكية.

الراهب بندكت:

كان القرن الخامس فاتحة انهيار الإمبراطورية وأيضًا بداية النزاع بين الغرب والشرق وكان فقيرًا في الحركات الجديدة وفقيرًا أيضًا في الشخصيات البارزة. على أنه من وسط هذه الغمائم يخرج نور يشق الظلام؛ ذلك أن رجلًا إيطاليًّا يُدعى (بندكت) عريق المحتد، نهض واتخذ طريقه إلى كهف على مقربة من أحد قصور نيرون الخربة في (سبياكو) وهناك أقام فترة من الزمن يصوم ويصلي، كما فعل القديس أنطونيوس المصري من قبل.

وانتقلت فكرة الرهبانية من الشرق إلى الغرب، وذلك لأنه لما سافر القديس أثناسيوس إلى رومية سنة ٣٣٠م صحب معه راهبًا من وادي النطرون يدعى أمونيوس. وكانت الرهبنة فكرة لم تخطر على الغرب ببال، فاستهواهم ما فيها من تعبد وروحانية وابتعاد عن شرور العالم ومنكراته وسمو الروح الإنسانية في هدأة النسك والاعتزال. ولما اعتزم أتباع القديس إيرونيموس التزام العفة وضبط الشهوة،لم يعتزلوا في أديرة في أول الأمر ولكنهم ذهبوا إلى خلوة في فلسطين، كما فعل معلمهم إيرونيموس.

ولم تتخذ الرهبانية في الغرب شكلًا منظمًا، إلا يوم هرع الراهب بندكت إلى ذلك الكهف سنة ٥٠٠م وتبعه جمهور من تلاميذه ومريديه. وبعد إقامته ثلاث سنوات في ذلك الكهف، طرده أعداؤه من (سبياكو)، فانطلق مع أتباعه إلى جبل كاسينو على مقربة من نابولي، وهناك هدم هيكلا قديما للإله أبولو وأقام على أنقاضه ديرًا، هو الأول في تاريخ المسيحية في الغرب. [٢]

ومن هذا الدير خرج رهط من الرجال، لم يحملوا سيوفًا في أيديهم، بل أمسكوا المحاريث لاستغلال الأرض واستنباتها والأقلام لكتابة الرسائل والمؤلفات. وبهذه الوسيلة الهادئة المسالمة، تغلبوا على الغزاة وأعادوا الإمبراطورية إلى مجدها البائد.

وكان دير بندكت طرازًا جديدًا من الأديرة؛ فقد عرف أن كثيرين ارتضوا طائعين أن يهبوا أنفسهم لخدمة الله كرهبان ويهجروا مقتنياتهم وحياتهم الزوجية السعيدة، ولكن قليلين يقدرون على معاناة حياة التقشف وشظف العيش التي ألفها رهبان الصحراوات في الشرق. ولذلك نظم قواعد ميسورة لا عنت فيها ولا إذلال ودبر أن يعيش الرهبان في أسر صغيرة، تخضع كل أسرة لرئيس تطيعه وتحترمه. ويبقى الجميع في أديرتهم ولا يتجولون في الأرض كما كان يفعل بعض الرهبان. على أن يكون كل دير مستقلًا بنفسه.

كانت الطريقة ميسورة خالية من الإفراط في القسوة والمشقة، فكان الرهبان

---

(٢) دير جبل كاسينو هو الدير المشهور الذي دارت حوله معارك عنيفة بين الألمان والحلفاء في الحرب العالمية الثانية، وقد اتخذه الألمان حصناً لمناعته، وتهدم منه جزء كبير بقنابل المحاربين ومدافعهم.

يستيقظون في الثانية صباحًا، ولكنهم كانوا يأوون عند مغيب الشمس. وكانت ثيابهم نظيفة مريحة لائقة وأباح لهم كل أصناف الطعام العادية، ما عدا لحوم ذوات الأربع. وكانوا يتناولون وجبتين في اليوم نصف السنة، والنصف الآخر وجبة واحدة. ولمدة ست أو سبع ساعات في اليوم كانوا يعملون بأيديهم في الحقل أو المصنع ولمدة ثلاث ساعات يقرأون ويكتبون ويدرسون سير رهبان صحراوات مصر. على أن أهم المطالب التي فرضها (بندكت) على رجاله كانت الصلاة والتعبد. فكانوا يصلون معًا ست مرات في اليوم ومرة أثناء الليل. وفي أيام الآحاد يمارسون فريضة الشركة المقدسة.

على هذه الحال عاش بندكت ورهبانه مدة خمسة عشر عامًا. وفي كل سنة كان ينزل إلى سفح الجبل ليتحدث مع أخته (سكولستكا) التي أنشأت ديرًا للعذارى على غرار الدير الذي أنشأه أخوها للرجال.

وفي سنة **٥٤٣**م مات هذا الرجل الصالح. وبعد ست وأربعين سنة من هذا التاريخ، أغار اللومبارديون على إيطاليا، ففر الرهبان البندكتيون من جبل كاسينو إلى رومية يحملون معهم نظامهم وطريقهم في الحياة.

وراح أولئك الرهبان يشيدون الأديرة في كل مكان، يشيدونها أولا على نسق منزل ريفي روماني، تحيط الأبنية بالفناء وتجاوره حديقة وطاحون ومستشفى ومخبز. وكان لكل دير كنيسته وقاعة للطعام ومنامة ومغاسل ومخازن ومطبخ.

وقد عكف الرهبان المجاهدون إلى شق أخاديد الأرض وإصلاحها وغرس الأشجار وتحويل الغابات والأراضى البور إلى حقول ومراعٍ تنبت فيها الحنطة غذاء للناس والعشب غذاء للبهائم. وإليهم وفد أهالي القرى طلبًا للعون واستمتاعًا بالصداقة والمودة. وعلى مر الزمن أضحت تلك المساكن البسيطة والأديرة البدائية أبنية فخمة تحيط بها الضياع والقرى والمدائن ونشط الرهبان في الخدمة، فلم يقتصروا على تعليم الناس الدين المسيحي، بل أطعموهم إبان المجاعات؛ لأن نشاطهم وأعمالهم جعلتهم من الأغنياء وأنشأوا المدارس للأحداث والمدارس للرهبان، وكتبوا بالخط الأسفار القديمة وأودعوها

مكتبات الأديرة، كما احتفظوا بكثير من مؤلفات الأقدمين الوثنية، فأنقذوا بذلك ما أمكن إنقاذه من حطام العالم القديم، وظلوا ردحًا من الزمن يعلمون الشعب القراءة والكتابة والفلاحة والبناء والنقش والتصوير.

ولم يبدأ الرهبان حياتهم ليكونوا معلمين أو فلاحين أو فنانين، ولكن في سبيل (خدمة الله). ففي ساعات النهار وفي بكور ساعات الليل، كانوا ينشدون ويرنمون الأغاني والتسابيح الدينية بألحان موسيقية محببة وكتبوا الأسفار المقدسة في صفحات من القرطاس مزينة بألوان زاهية متلمعة.

من ثم نرى الرهبانية تنتقل من مصر إلى بلدان الشرق الأخرى وتتخذ مواطنها في سواحل فلسطين الجنوبية وبادية الشام وبرية قورش وجبل الرها والجزيرة وطور عبدين وجبل الموصل وجبل ماردين وضواحي قيصرية كبدوكية وطور سينا.

وقد استمسك رهبان الشرق بعبادة الله وروَّضوا أنفسهم على التقوى وإذلال النفس والاقتصار على القليل من الطعام والإقبال على العمل الشاق، وكانوا يقضون الساعات الطوال.

ومن الشرق تنتقل الرهبانية إلى الغرب كما أسلفنا. على أن الأديرة في الغرب لم تستطع محاكاة أديرة الشرق في التشدد في الامتناع عن أنواع المآكل المغذية وتسامحت في كثير من المواد التي حسبها الراهب الشرقي متعة للجسد. كذلك ذهبت الرهبانية في الغرب في جهادها وتفكيرها إلى حد بعيد، حتى غدت خلايا الأديرة أشبه بمنائر تشع منها العلوم والثقافة وتحولت الأديرة مدارس للتعليم والتهذيب والعمل في الحقل والمصنع وخرجت منها مؤثرات كان لها أكبر الفضل في ترقية الحياة الاجتماعية والعلمية والعقلية والروحية. وانتقل الزاهدون من خطة الاعتكاف عن العمل إلى خطة أخرى، اتجهوا فيها إلى تهذيب العالم وبث روح الحياة والتجديد في البيت والدولة والكنيسة.

القرن السادس

الإمبراطورية الرومانية الشرقية

اندثر عرش الإمبراطورية الرومانية في روسية وتولى سلوك الفرنجة من قبائل الشمال سلطان الحكم في الإمبراطورية الغربية. ولكن بقيت سلطة أسقف رومية– أو البابا– مرعية مهيبة الجانب. أما خلفاء أباطرة الرومان، فقد احتفظوا بعرشهم في بيزنطة باسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو الإمبراطورية البيزنطية. وفي أوائل القرن لاسادس نهض أحدهم، وهو يوستنيان الأول (٥٢٧–٥٦٥م) فاستعاد كثيراً من الولايات التي اقتطعها الغزاة من جسم الإمبراطورية، واسترد إيطاليا نفسها وأخضعها للعرش البيزنطي واستجلب إلى عاصمة ملكه ثروات هائلة: بنى منها الكنيسة العظمى الرائعة في بيزنطة على النمط الشرقي التي سميت (كنيسة الحكمة المقدسة) (آيا صوفيا)، واستن قانونه المشهور المأخوذ من القوانين الرومانية القديمة وما زال باقيا حتى اليوم أساسًا لكثير من قوانين الشعوب المتحضرة. وخلال حكمه، حاول اللمبارديون والبلغار والفرس تدمير الإمبراطورية مرة أخرى ولكنهم باءوا بالفشل.

وقد حاول هذا الإمبراطور الشرقي بعد إعادة إيطاليا إلى ملكه أن يخضع أسقف رومية (البابا) لسلطانه ويجعله أداة طيعة في يده كعادة أباطرة الرومان. وبلغت به الرغبة الجامحة حد الإقدام على عزل أحد البابوات في سنة ٥٣٧م وترحيله إلى القسطنطينية، ثم نفيه إلى جزيرة نائية بعد ذلك حيث قضى نحبه. وقد أصر على أن يكون انتخاب البابا تحت إشرافه وبرضائه. على أن استيلاء الإمبراطور الشرقي على إيطاليا لم يدم طويلًا. ففي سنة ٥٦٨م تنحدر من الشمال قبائل اللومبارديين وكانوا أشد قبائل الغزاة بأسًا، وفي هذا يقول جبون المؤرخ الشهير: (لمدة مائتي سنة ظلت إيطاليا نهبًا مقسمًا بين اللومبارديين

ووالي (رافنا) [٣] عامل إمبراطور بيزنطة. وفي هذا النزاع الرهيب لم يستطع البابا توطيد سلطانه الأدبي الروحي وعانى الكرسي الديني في رومية أشد العناء).

البابا جريجوريوس العظيم:

لكن هذه الفترة القاتمة من التاريخ تنجب في القرن السادس رجلًا يمسك دفة السفينة في بحر متلاطم الأمواج ويقوى بسحر شخصيته وقوة نفوذه على رفع لواء المسيحية في الغرب- ونعني به البابا جريجوريوس الأول- الذي يخلع عليه التاريخ لقب (العظيم).

وينبري هذا (العظيم) لإبرام معاهدة صلح وسلام بين اللومبارديين في إيطاليا الشمالية وبين إمبراطور القسطنطينية الذي رضى بنصيبه في إيطاليا الجنوبية وعاصمتها (رافنا). وتخلو رومية من العرش الإمبراطوري ويخلو الجو فيها للسلطة البابوية وينتهز جريجوريوس هذه الفرصة، فيبسط نفوذه السياسي على حساب الشريكين اللذين تراضيا على قسمة إيطاليا. ولو أن عرش الإمبراطورية ظل في رومية كما كان والقسطنطينية صارت عاصمة أوروبا، لتبدل مصير البابوية كسلطة زمنية ولما حظيت بهذا الشأن الرفيع الذي كان من نصيبها في القرون الوسطى.

وقد بسط جريجوريوس العظيم سلطانه في رومية مدة أربعة عشر عامًا، وكان له اليد الطولى في تكييف الحوادث. وبقوة نفوذه على المستعمرات اللومباردية وعلى الإدارة والحكم، صان عقائد الكنيسة وحقوق البعثات الدينية والأديرة، حتى ليحسب بحق أعظم سياسي في الكنيسة في بكور القرون الوسطى.

مولده ونشأته:

ولد في رومية حوالي سنة ٥٤٠م وكانت رومية التي شهدتها أيام صبوته بائسة

---

(٣) (رافنا) هي المدينة التي جعلها يوستنيان الإمبراطور الشرقي عاصمة للإقليم الذي استرده من إيطاليا وكرسيا للوالى من قبله.

مهلهلة، قد أعمل فيها البرابرة القوطيون التخريب ولم يبق في قصورها إلى حفنة من كبار الموظفين المدنيين. لكنه شيد بها كنائسها السبع الفخمة وبينها الكنيستان الكبريان اللتان بنيتا إحياءً لذكرى القديسين بطرس وبولس على مكاني استشهادهما كما تقول التقاليد، كنيسة القديس بطرس الفاتيكان والقديس بولس في الطريق إلى أوستيا. ولم يكن في نظر مسيحي القرن السادس بقعة أقدس من هذه البقاع التي أقيمت عليها كنائس الشهداء الأولين ولا شيء أعز من رفات الرسل الذين شهدوا المخلص بعيونهم ولمسوه بأيديهم.

وكان والدا جريجوريوس تقيين ومن الأثرياء، من طبقة أعيان الرومان، وقضى أيام شبابه في بيت أبيه قبالة قصور رومية التي هجرها ساكنوها هربًا من البرابرة الغزاة. وتلقى الشاب علومه الكلاسيكية في الأدب اللاتيني والمنطق والبيان، كما كان يفعل أبناء الطبقات العليا في ذلك العصر ثم التحق بوظيفة حكومية. وفي بدء عهده بالخدمة، كان الغزاة اللومبارديون قد أخذوا يزحفون من الشمال، وما جاءت سنة ٥٧٣م حتى كانوا على أبواب رومية. وكان جريجوريوس في تلك السنة عمدة المدينة، وهي أكبر وظيفة مدنية، يرأس شاغلها مجلس الأعيان ويتولى القضاء المدني الأعلى في دائرة قطرها مائة ميل من العاصمة. وهو الذي يتعهد بتموين العاصمة بالحبوب ويعنى بموارد المياه ومصارفها ويتزعم الموظفين الباقين في رومية وله سلطة مالية واسعة.

وقد أكسبته هذه المهام خبرة واسعة في شؤون الإدارة والتنظيم. كما أن روح الآداب الكلاسيكية انسابت إلى عالم القرون الوسطى بواسطة عقلية أوغسطينوس وكتاباته، كذلك غدت فنون الإدارة والتنظيم تراثًا للكنيسة في القرون الوسطى بواسطة جريجوريوس العظيم.

ميله إلى حياة الرهبنة والتعبد:

وكان ميسورًا له أن يشغل وظيفة الوالي في (رافنا)، عاصمة الإمبراطور البيزنطي في إيطاليا، ولكنه ضحى بكل هذه المطامع والآمال الكبار وعدل عن الاستمرار في معارج الرقي المادي ومال إلى حياة الكمال المسيحي. ففي سنة ٥٧٤م باع جريجوريوس إرثه في

صقلية وأسس هناك ستة أديرة. ووهب باقي ميراثه للفقراء ولم يحتفظ إلا بقصر أبيه كدير خاص له وللإخوة الذين جمعهم حوله. وصار فيما بعد الحامي الأعظم للرهبان والمدافع عن حقوقهم وامتيازاتهم. وقد استهوته حياة الرهبنة وعكف إلى الصوم والصلاة والتأمل، حتى كان يشعر أحيانا أن روحه الحبيسة في الجسد– على حد قوله– كانت تنطلق إلى علياء السماء خالصة من سجنها البشري وتهفو إلى الموت كوسيلة للدخول إلى الحياة الكاملة.

رحلته إلى القسطنطينية:

ظل جريجوريوس أربع سنوات يتدرب على الحياة التي كان مقدرًا لها أن تطبع أعمق الأثر في حياة أوروبا في القرون الوسطى، ولكن في سنة ٥٧٨م أراد البابا أن يرفعه إلى مرتبة سامية في الكنيسة، فأخرجه من الدير وعينه شماسًا (سابعاً). وفي ربيع السنة التالية، أوفده البابا بلاجيوس ليكون مندوبًا عنه في القسطنطينية وليحث الإمبراطور على إيفاد المعونة والمال والجيوش لإنقاذ إيطاليا من غزوات اللمبارديين، ولكنه لم يوفق في هذه المهمة. ولئن يكن قد عاش في قصر– وهو في القسطنطينية– إلا أنه لم يغير حياة الرهبنة والتف حوله الرهبان مسوقين إليه بمحبته وعطفه. ولعل هذا الانزواء منعه عن تعلم اليونانية في القسطنطينية وكان بلاط الإمبراطور ما يزال لاتينيا في صبغته وكانت اللاتينية إلى ذلك الحين لغة الحياة العامة في الشرق

وعند عودته إلى رومية، عين رئيسًا لديره القديم وبقي فيه من سنة ٥٨٦م إلى سنة ٥٩٠م. ومن بين رهبانه الذين يذكرهم في رسائله أربعة عينوا فيما بعد أساقفة، أحدهم أوغسطينوس أول رئيس أساقفة في كنتر بري بإنجلترا. وأثناء مقامه في الدير هذب محاضراته عن سفر أيوب التي ألقاها على رهبانه في القسطنطينية وكان دائم الاتصال بالبابا بلاجيوس.

إعتلاؤه الكرسي البابوي:

وفي سنة ٥٩٠م توفي البابا بلاجيوس، فأجمع القساوسة والشعب على انتخاب

جريجوريوس وأقر الإمبراطور الشرقي هذا الانتخاب ورسم في خريف تلك السنة في كنيسة القديس بطرس. وظل أربعة عشر عامًا جالسًا على كرسي الأسقفية في رومية– يدفع أذى اللمبارديين عن إيطاليا الوسطى. وكان دائمًا يعد أذهان قومه إلى توقع أحداث رهيبة بأيدي اللمبارديين القساة. ورأى بعينه المسيحيين يربطون من أعناقهم كالكلاب ويباعون عبيدًا في أسواق بلاد الغال وسمع بأذنيه شكاوى القرويين المريرة الساكنين في المناطق الشمالية وشهد اللاجئين الجياع وهم يفرون زرافات إلى رومية طلبًا في المأوى والغذاء. على أن هذه الأحداث كلها، شحذت همته للعمل والجهاد ليل نهار في تخفيف آلام رعاياه والحد من نزوات الغاصبين وصيانة كرامة الكرسي الرسولي والحث على الاعتصام بأسباب البر والتقوى والهدوء ومعاناة الآلام في جلد وشجاعة.

نفوذه وسلطانه :

وفي عهده أفلحت البابوية في الاحتفاظ ببعض وظائف الحكومة المدنية وضم شمل كنائس الغرب تحت رعايته وإدارة أملاك الكنيسة وأموالها مستقلة عن الدولة وبمحاولة انتزاع السلطة الدينية العليا من بطريرك القسطنطينية وتركيزها في رومية كمركز للمسيحية العالمية وإرسال الوفود والبعثات إلى أنحاء أوروبا لدعوة الشعوب إلى المسيحية، ومحاربة الهرطقات ونظريات الالحاد. ففي عهده انتقلت أسبانيا من الآريوسية إلى المسيحية الحقة وخلصت أفريقية الشمالية من نظريات الهراطقة والملحدين.

وقد حاول بسط سلطانه على كنائس المشرق؛ لأنه كان يعتقد أن صاحب الكرسي الرسولي في رومية هو المسؤول عن إدارة الكنيسة في العالم كله كخليفة للرسول بطرس. وزعم أن من حقه تأديب الأساقفة والبطاركة الذين يحيدون عن الإيمان القويم، وإن قرارات المجامع ليست لها قوة التنفيذ إلا إذا أقرها الكرسي الرسولي. وكان أشد منافسيه في ذلك العصر بطريرك القسطنطينية الذي استند إلى سلطة الإمبراطور. وقد شجر الخلاف بينه وبين هذا البطريرك حول مسائل أهمها الخلاف على لقب (المسكوني) الذي خلعه بطريرك القسطنطينية على نفسه وقد احتج جريجوريوس على هذا الادعاء، واستعان ببعض

أساقفة المشرق وعنف الإمبراطور على السكوت ومدارارة البطريرك. ولكن ذهبت كل هذه المحاولات أدراج الرياح. بل أن الإمبراطورة كتبت إلى البابا تأمره أن يرسل رأس القديس بولس أو بعض بقاياه لإيداعها كنيسة تعتزم بناءها تكريمًا للرسول الكبير، فأجابها أن في نقل رفات القديسين تدنيسًا لكرامتهم وإثارة لعواطف الشعب وأبى عليها هذا المطلب.

ولم يكن جريجوريوس كاتبًا مبتكرًا أو لاهوتيًّا متعمقًا. ولكن كتاباته استندت إلى عقائد الإيمان والأسفار المقدسة، وإلى مؤلفات أوغسطينوس التي كانت موضع إعجابه وتقديره. واستقى فكرته عن الكنيسة من أوغسطينوس في كتابه (مدينة الله) وحسب الكنيسة ملكوت السماء على الأرض كما صورها الإنجيل. وبقيت كتاباته– على بساطتها– ذخرًا للأجيال المتعاقبة واحتلت مكانتها في الأديرة وفي مكتبات الكنائس، حتى أُطلق عليه (الدكتور الرابع في الكنيسة).

ولعل أعظم مآثره وأشهرها في التاريخ تلك البعثة التي أوفدها لدعوة أهل بريطانيا إلى المسيحية. ولابد لنا من كلمة تمهيد قبل ذكر هذا الحادث:

لمحة عن المسيحية في بريطانيا:

قبل أن يضع الراهب العظيم بندكت قواعد رهبانيته، أُقيمت في بلاد الغال وإيطاليا أديرة على غرار الأديرة التي قامت في صحراوات مصر. وإلى هذه الأديرة في الغرب دلف الحجاج والمسافرون للإنصات إلى تعاليم الرهبان والأخذ عنهم في مسالك الحياة ودراسة الكتب التي حفلت بها مكاتبها. وكانت تلك الأديرة بمثابة مراكز لنشر الدعوة يجئ إليها المسافرون ويعودون إلى أوطانهم حاملين رسالة المسيحية إلى شعوب أوروبا.

وفي سنة ٤١٢م، قدم إلى أحد تلك الأديرة في بلاد الغال بريطاني يدعى (بترك). وقد نشأ مسيحيًّا ولكن القرصان اختطفوه من حضن أبويه، وهو حدث صغير، وحملوه إلى جزيرة أيرلندا الوثنية. وهناك تمكن من الفرار والقدوم إلى الدير. وقد كان حينما جاء رجلًا خشنًا لم ينل قسطًا من الثقافة والعلم، ولكنه بقي في الدير زمنًا طويلًا وتتلمذ

للحبر الجليل الأسقف جرمانوس، حتى صار راهبًا ثم كاهنًا وأوفد إلى أيرلندا أسقفًا لها لنشر الدعوة بين أهلها. ويقول عن نفسه في اعترافاته إنه لم ينفك عن سماع هاتف داخلي يدعوه للذهاب إلى البلاد الوثنية وبذل حياته من أجلها. وما كان الأيرلنديون يدينون بالوثنية؛ لأن أسقفًا آخر سبقه إلى تلك البلاد ولكنه لقي من عنت الزعماء والحكام ما عرقل سعيه وخيب آماله ولم يفز إلا بالقليل من المهتدين على يديه.

وكانت حياة (بترك) جهادًا طويلًا ومغامرة مضنية بين تلك القبائل المتبربرة. ولكنه قضى بين ظهرانيهم ثلاثين عامًا ومات بعد أن صارت أيرلندا كلها مسيحية، فيها عشرات من الأديرة، منها خرج المرسلون والدعاة لنشر الدعوة في البلدان الأخرى.

ويحدثنا التاريخ أن الشعب الأيرلندي كان كثير الشغف بالموسيقى والرياضيات وأحب الثقافة اليونانية ومال إليها وكتب الكتب الخطية القديمة بخطوط جميلة تفنن في إبداعها وتزيين صفحاتها بصور رائعة دقيقة. ومن هؤلاء خرج سيل لا ينقطع من الدعاة والمرسلين إلى بلاد الغال وألمانيا وإنجلترا ونروج وأيسلندا، حاملين معهم عاداتهم وأساليب حياتهم الخشنة المتقشفة.

ومن أحد تلك الأديرة خرج الأمير الراهب (كولمبا) إلى جزيرة أيونا تجاه ساحل اسكتلندا، ليعيش هناك مع مائة وخمسين من صحابته في أكواخ صغيرة مقببة حول كنيسة صغرى في الصلاة والدرس ونسخ الكتب والتعبد لله. وكانوا يقومون بزراعة الأرض وصيد الأسماك لإعالة أنفسهم، وفي الوقت نفسه يعلمون هذا الدين الجديد لأهل أسكتلندا. وقد كان مسيحيون قليلون في اسكتلندا أقبلوا إلى هذا الدين على يد راهب من رهبان تور في بلاد الغال، ولكن جزيرة أيونا كانت منارة الدعوة التي توزع منها النور، لا على اسكتلندا وحدها، بل على الجزء الشمالي مما يعرف الآن بإنجلترا.

وكان الدين الجديد قد وصل إلى جنوب بريطانيا في تاريخ مبكر مع الغزاة الرومان، وكان فيها أساقفة من بنيها في سنة ٣١٤م. ولما كان بترك يجاهد في إيرلندا، تلقى معلمه جرمانوس وزميل له رسالة ليقبل إلى معونة الكنيسة في بريطانيا التي وقعت في أحابيل

الحيرة والاضطراب بسبب تعاليم بيلاجيوس الذي نشر آراء يناهض بها آراء القديس أوغسطينوس وسرعان ما عاد المرسلان إلى بلاد الغال بعد أن قاما بواجبهما حتى كان الغزاة الانجلوسكسون قد اكتسحوا البلاد للمرة الثانية وساقوا الأهلين أمامهم إلى ويلز وسومرست وكورنول على الشواطئ الجنوبية وعبر بعضهم بحر المانش ليستوطن الإقليم الشمالي من فرنسا الذي أطلق عليه (بريتانيا) وما يزال معروفًا بهذا الاسم حتى اليوم. ومن ثم صارت إنجلترا الجنوبية بلادًا وثنية مرة أخرى.

وحدث أن جريجوريوس العظيم كان يجوب سوق مدينة رومية للعبيد، فوقع نظره على غلمان شقر الوجوه تلمعت شعور رؤوسهم بلون ذهبي. ولما سأل عن موطنهم الأصلي، اعتزم أن يحمل إليهم رسالة الدين الجديد، قوال بأسلوبه الفكه وفي سرعة خاطر. إن أولئك الإنجليز لابد يصيرون يومًا ملائكة **Angels** وإن بلادهم ستنقذ من الغضب الآتي وترفع أناشيد التسبيح للإله الحي. وكان متأهبًا أن يرحل إلى إنجلترا، ولكن قومه أبوا عليه هذه المغامرة. وبعد عشر سنوات سنحت له الفرصة فاهتبلها؛ لأن ملك كنت السكسوني اثلبرت تزوج من أميرة مسيحية من بنات الفرنجة **Franks** تدعى برثا، فأوفد جريجوريوس راهبًا من خيرة رجاله يدعى أوغسطينوس ومعه خمسون من الرفاق لحمل رسالة الإنجيل للأسرة الملكية في تلك البلاد. ونزل الراهب على شواطئ الجزيرة واتخذ طريقه إلى مقر الملك يحمل معه صليبًا من فضة وعَلَمًا من خشب نقشت عليه صورة الصلب، وكتبه الثمينة (الكتاب المقدس في مجلدين والإنجيل وبعض سير الرسل والشهداء وتفاسير العهد الجديد). وهناك تقدم إلى الملك في موكب في العراء مقدسًا له هذا الدين الجديد. على أن الملك الوثني لم يفهم شيئًا ولم يقبل الدين. ولكنه أباح للراهب ورفاقه نشر الدعوة بين الشعب كما يشاءون وأقاموا فترة من الزمن في كنتربري، وشيدت الملكة برثا كنيسة صغرى لعبادة الله. واقتضى الحال جهودًا مضنية بطيئة واستمر الجهاد مائة عام قبل أن تصبح إنجلترا كلها مسيحية. ولكن منها انتشرت بعدئذ الدعوة في رقاع أخرى، فتزوج أدوين ملك نورثمبريا من ابنة الملكة المسيحية برثا، وهذه حملت معها إلى الشمال راهبًا يدعى بولينوس أفلح في حمل الملك وكهنته الوثنيين على اعتناق المسيحية.

وقد اعتمد أدوين في البقعة التي يقف فيها الآن أسقف يورك لعبادة الله وظل الراهب بولينوس وشماسه جيمس يذرعان البلاد شمالًا وجنوبًا، فآمن بدعوتهما أكثرية الأهلين، ولكن الملك الوثني (بندا) أغار على نورثمبريا وقتل ملكها وأمعن تقتيلًا في الشعب، فهرب الراهب بولينوس مع الملكة وأطفالها وظل الشماس جيمس في مركزه متحديًا الغزاة وبطشهم.

وخيل الآن كأنما جهود أوغسطينوس والدموع والآلام التي بذلت في سبيل هداية إنجلترا ذهبت ضياعًا وتوقع الناس أن تعود إنجلترا إلى سابق وثنيتها، ولكن أميرًا شابًا انجليزيا يدعى (أزوالد)– قد فر من وجه أعدائه إلى جزيرة أيونا وتعلم الدين الجديد هناك– عاد إلى إنجلترا وطنه ودافع عن نورثمبريا ورد عنها الغزاة الوثنيين وكسب المعركة، ثم بعث إلى أيونا يطلب معلمًا مسيحيًا، فأوفدوا إليه الراهب (إيدان) الذي أحبه الأهلون حبًّا خالصًا لدماثة خلقه ووداعته وصفاء نفسه.

وبعد ثمانية أعوام ثار (بندا) ملك الشمال مرة أخرى وقتل أزوالد بحد السيف، ولكنه كان آخر الملوك الوثنيين الذين عرفتهم البلاد وأخذت المسيحية تزدهر بعد موته ويقوى نفوذها ويسلب الناس سحر تعاليمها، وأصبحت إنجلترا بعد ذلك موطن كثير من مشاهير العلماء وكبار المرسلين الذين ذكر التاريخ أسماءهم مقرونة بالتجلة والإكبار.

وفي سنة ٦٦٨م قدم إلى إنجلترا ثيودور الطرسوسي، وهو راهب يوناني، موفدًا إليها كرئيس أساقفة، وقد وحد إنجلترا كلها وقسمها إلى أبرشيات أسقفية وحمل معه كتبًا قيمة من مؤلفات هوميروس ويوسيفوس ويوحنا فم الذهب.

وفي مدرسة اكستر، وهي إحدى المدارس الدينية الكثيرة التي أنشأها المرسلون المسيحيون، تهذب الراهب بونيفاس الذي عبر البحر مسوقًا بهاتف داخلي لنشر الدعوة في هولندا وألمانيا، والذي صار فيما بعد رسول ألمانيا وأسقفها.

القرن السابع

كنائس المشرق

كان لانقسام الإمبراطورية الرومانية بعد عهد قسطنطين إلى شطرين الشرقية بلغتها اليونانية والغربية بلغتها اللاتينية– أثر عميق في تاريخ الكنيسة. وقبل أن يحدث الانقسام في الكنيسة بالذات، بدأت المجموعة المسيحية اللاتينية والمجموعة المسيحية اليونانية تسير كل منهما في اتجاه خاص على أساليب من الفكر مختلفة، وتحت تأثير عوامل في الحياة متباينة. ولما نزلت قبائل الجرمان المتبربرة من الشمال ومزقت شمل الغرب اللاتيني وانتزعته من سلطان الإمبراطور الروماني الذي كان مقره بيزنطة، سارت الكنيسة في الغرب في مسرى مستقل واتخذت طريقتها الخاصة في التاريخ.

وقدر لتاريخ المسيحية في مستقبل الأجيال أن تتصل اتصالاً وثيقاً بعالم الغرب، وأن تكون المسيحية اللاتينية من أهم العوامل في تطور هذا التاريخ. أما المسيحية الشرقية فقد انطوت على تقاليدها وجمدت في تفكيرها، وكان لهذا الجمود أثره البالغ في مستقبل تاريخها. أجل، برز في هذه الفترة كتاب أجلاء أمثال الآباء الكبدوكيين، الذين كانوا في المرتبة الأولى من مفكري عصرهم وقد أخصبوا الفكر المسيحي بكتاباتهم ومؤلفاتهم. كذلك برز فيما بعد القديس يوحنا الدمشقي (٦٧٦–٧٥٧م) ذلك اللاهوتي البارع الذي حلل العقائد المسيحية تحليلاً فلسفياً كما فهمته الكنيسة الأرثوذكسية. ولكن يمكن القول إجمالاً أن سير التفكير والابتكار في الكنيسة الشرقية كاد يقف تماماً.

وكانت الإمبراطورية الشرقية البيزنطية حلقة من حلقات الإمبراطورية الرومانية القديمة، فظلت الكنيسة خاضعة للبلاط الإمبراطوري في بيزنطة كما كان حالها في عصر قسطنطين وخلفائه، وأمست شبه مصلحة من مصالح الدولة، وخلعت على الإمبراطور صفة مقدسة، ولم يكن لبطريرك القسطنطينية– وإن لقب بالمسكوني– مكانة البابا في عالم الغرب.

اللغات القومية في الإمبراطورية الشرقية:

وفي بعض ولايات الإمبراطورية الرومانية الشرقية نشطت اللغات القومية بين عامة الشعب وبقيت اليونانية لغة الخاصة والطبقات العليا، ولما انتشرت المسيحية بين عامة الشعب، ظهرت مؤلفات مسيحية بهذه اللغات القومية: السريانية في الجزيرة وبين النهرين، والأرمنية في أرمينية، والقبطية في مصر، والأثيوبية في الحبشة. وكان معظم هذه المؤلفات المسيحية الشرقية، إما منقولة نقلاً عن اليونانية، أو مقتبسة من الآراء والتقاليد المسيحية اليونانية. على أنها تميزت ببعض الصفات القومية، وكان من أثر ذلك ظهور نزعات قومية في شؤون الكنيسة تحدياً لكرسي القسطنطينية. ولم يكن انفصال جمهرة المسيحيين في مصر، عن الأرثوذكسية اليونانية الشرقية في القرن الخامس بسبب المشكلة التي يسمونها (الطبيعة الواحدة) في ذات المسيح، إلا ناشيءاً في الواقع عن تلك النزعة القومية التي أحست بها بعض الولايات الشرقية.

هرقل وانتصاراته:

وفي أوائل القرن السابع، يعتلي الإمبراطور هرقل عرش الإمبراطورية الرومانية الشرقية– أو دولة الروم كما يسميها مؤرخو العرب. وقد كان وخلفاؤه الخمسة من أسرة واحدة اشتهر ملوكها بالخلق الكريم والكفاية في الحكم وأفلح مؤسس الأسرة هرقل (٦١٠– ٦٤١م) في توطيد الأمن في ربوع إمبراطوريته ودفع غزوات الفرس.

وكان الفرس قبل اعتلائه العرش قد أغاروا في عهد عاهلهم خسرو الساساني على الجزيرة وبين النهرية وسورية وعبروا آسيا الصغرى وأقبلوا على خلقيدونية في سنة ٦٠٨م. وفي السنة التالية فتحت لهم قيصرية في كبدوكية أبوابها. وبعد أن اعتلى هرقل عرش الإمبراطورية، زادت هجماتهم شدة فدخلوا سورية سنة ٦١٢ واستولوا على دمشق سنة ٦١٣، وعلى فلسطين في سنة ٦١٤ وحمل عاهلهم الصليب الأصلي من بيت المقدس. وفي سنة ٦١٦، اجتاحوا مصر ثم توغلوا في آسيا الصغرى وحصنوا مدينة أنقرة لحماية خطوط مواصلاتهم.

وظل هرقل مدة اثنتي عشرة سنة يتلقى هذه الضربات بما في طاقته من صبر وجلد، ولكنه كان طيلة الوقت يعد عدته وينظم جيشه ويوحد جبهته الداخلية تأهباً للضربة القاضية. وقد استجاب الشعب إلى ندائه وعضده البطريرك سرجيوس، بطريرك القسطنطينية يومئذ، فوضع تحت إمرته كل كنوز الكنيسة وأموالها وألهب حماسة الشعب في حرب صليبية جديدة لاسترجاع الأماكن المقدسة وإعادة الصليب الأصلي الذي صلب عليه المسيح، وكان قد نهبه عاهل الفرس من بيت المقدس كما تقدم.

وفي خمس حملات متواليات يحطم هرقل شوكة الفرس، فيسترد أذربيجان في سنة ٦٢٣ وأرمينية في سنة ٦٢٤، وكيليكية سنة ٦٢٥. وفي سنة ٦٢٦ يهزم جيوش الفرس وحلفائهم الذين كانوا يحاصرون القسطنطينية. أما حملته الخامسة والأخيرة، فقد استرد بها الجزيرة (بين النهرين) فاستولى على نينوي سنة ٦٢٧ واقتحم عاصمة الفرس سنة ٦٢٨ وحمل من هناك الصليب الأصلي في موكب ظافر إلى القسطنطينية ثم أعاده بنفسه إلى بيت المقدس. وغدا هرقل بفضل هذه الانتصارات المتوالية عظيمًا من قادة الحروب الذين شاد التاريخ بذكرهم وكلل بالمجد هاماتهم. وتم له في سنة ٦٢٩ عقد صلح مع الفرس.

وكان عليه أن يعيد إلى الإمبراطورية وحدتها الدينية، ويرد إلى أحضان الأرثوذكسية الولايات التي انفصلت بسبب مشكلة الطبيعة الواحدة وهي سورية وأرمينية ومصر التي أنشأت بعد انفصالها كنائس مستقلة. ويرجع تاريخ هذه المشكلة إلى مجمع خلقيدونية (٤٥١م) وكان قد قرر فيما قرره من قواعد الإيمان أن المسيح أقنوم واحد ذو طبيعتين. واعتصمت القسطنطينية بهذه العقيدة، ولكن بعض كراسي المشرق، مسوقين في الأغلب بنزعات قومية، تحدوا القسطنطينية وتشبثوا بعقيدة الطبيعة الواحدة. وكان الإمبراطور في موقف حرج، فهم إذا هادنوا الولايات الشرقية أغضبوا رومية والغرب، وإذا ضغطوا على الشرق تمردت عليهم هذه البلدان التي بدأت تختمر فيها المشاعر القومية. على أن البعض ارتضوا السير مع المشرق، ففي سنة ٤٨٢ أصدر الإمبراطور زينو قانونًا حابى به القائلين بالطبيعة الواحدة، وقد أدى هذا إلى قطيعة بين الشرق والغرب طالت أربعين عامًا.

بوستنيان:

على أن الإمبراطور يوستنيان الأول وخلفاؤه (٥١٨-٦٠٩) ينتهجون سياسة جديدة ويصالحون الكنيسة الغربية ويلجأون إلى أساليب العنف لحمل ولايات المشرق التي شقت عصا الطاعة على الرجوع إلى أحضان الأرثوذكسية.

وكان يوستنيان مؤسس هذه الأسرة أعظمهم شأنًا ومن أنصار قانون مجمع خلقيدونية، ولكن زوجته ثيودورا كانت من أنصار الطبيعة الواحدة. ويقول أحد المؤرخين إن هذه المرأة غريبة الأطوار بدأت حياتها ممثلة وعاهرة وعرف عنها الخلاعة والتهتك. ويقال إنها كانت جذابة تنفذ نظراتها الخارقة إلى أعماق القلوب وإن تكن قصيرة القامة صفراء اللون. وبعد زواجها من الإمبراطور عافت رذائلها السابقة وأنشأت دارًا لكفالة الساقطات لتكفر عن ذنوبها الماضية. واشتهرت بالبخل والقسوة وحب السلطان وكانت صاحبة النفوذ في بلاد الإمبراطور، فاضطر يوستنيان تحت تأثيرها أن يخرج عن تقاليد أسرته ويصدر وثيقة يسترضي بها أنصار الطبيعة الواحدة ويحاول في الوقت نفسه أن يضمن رضاء بابا رومية. ثم عقد مجمعًا عامًّا سنة **٥٥٣**م أقر وثيقته، وكان ذلك المجمع مظهرًا لسلطان الدولة التي أكملت إرادتها على الكنيسة، لأن الإمبراطور استدعاه ورسم خططه ووضع قراراته.

على أن خلفاء بوستنيان عادوا إلى تقاليد الأسرة، فراحوا يضطهدون أنصار الطبيعة الواحدة ويمعنون في القسوة عليهم والبطش بهم، فزادت القطيعة وقويت النفرة، فانفصلت الكنيسة في أرمينية. أما في سورية فكان بها كرسيان أحدهما يدين بالولاء لقرارات مجمع خلقيدونية والآخر يعتصم بنظرية الطبيعة الواحدة. وأتباع هذا الكرسي أطلقوا على أنفسهم (يعاقبة). نسبة إلى كاهن يدعى (يعقوب البردعي) قد رسمه أسقف القسطنطينية السجين لخروجه على قرارات مجمع خلقيدونية، وبعد رسامته فر الكاهن بمعونة أحد أمراء العرب النصارى الغساسنة إلى سورية متخفيًا في ثياب شحاذ. ويقال إنه عين أكثر من ثمانين أسقفًا وألوفًا من الكهنة.

واعتنقت مصر أيضًا عقيدة الطبيعة الواحدة وكان الشعور القومي في تلك الفترة مضطرمًا. فلما عزل بطريرك الإسكندرية، نظر الشعب إلى خليفته كأنه صنيعة الغاصبين وظل الشجار محتدمًا مائتي سنة بين الملكيين– وهم حزب الإمبراطورية الناطق باليونانية– وبين المصريين الوطنيين– وهم أبناء الشعب الذي كان يتكلم لغة مصرية قبطية ويعتصم بعقيدة الطبيعة الواحدة. وقد استنكر الشعب إملاء الأجنبي الغاصب وأبغض حكم دولة الروم بغضًا شديدًا حمله على أن يفتح ذراعيه للعرب الغزاة سنة ٦٤٢م– وقد بقيت الكنيسة القبطية حتى اليوم على عقيدة الطبيعة الواحدة وما زال هذا الفارق قائمًا بين الكنيستين القبطية واليونانية.

***

قلنا إن هرقل حاول– بعد أن هزم دولة الفرس– أن يستعيد وحدة الإمبراطورية الدينية ولم تخل هذه المحاولة من أساليب القهر. وكانت في المشرق أربع بطريركيات، وهي: القسطنطينية وكانت يونانية في صبغتها، وأنطاكية وكانت سريانية في لغتها وإحساسها، والإسكندرية وكانت قبطية مصرية، وأورشليم وكانت في ذلك العصر أقل الكراسي شأنًا. وبينما رنت أنطاكية بأبصارها إلى بطرس الرسول مفاخرة بأنه مؤسسها، واعتزت الإسكندرية بنسبها إلى مرقس الرسول، فإن القسطنطينية تشامخت لأنها كانت مقر الإمبراطور ومركز السلطان في الإمبراطورية. وقد وضعها مجمع خلقيدونية فوق جميع الكراسي ما عدا رومية، وسعت سعيًا حثيثًا لبسط سلطانها على البطريركيات الأخرى. وكان طبيعيًا أن يطمح أسقف العاصمة الإمبراطورية في هذه السلطة الأتوقراطية، ولكن البابوية لم تفلح في الشرق مثلما أفلحت في الغرب بسبب الحزازات العنصرية واللغوية، ولم تكن اللغة اليونانية في الشرق لغة جامعة في العبادة الدينية كما كانت اللغة اللاتينية في الغرب.

***

من ثم نرى الكنيسة في الشرق تعبث بها أيدي التفرقة بالجدل الديني وتتسرب إليها عوامل النفرة والانقسام لأسباب، في ظاهرها دينية كمشكلة الطبيعة الواحدة، وفي باطنها

قومية عنصرية. ونرى الدولة موهنة العزمات بعد حملاتها المتوالية على الفرس. وفي هذه الأزمة تقف الدولة والكنيسة معًا أمام قوة جامحة تطلع من البادية، هي قوة العرب التي اكتسحت أمامها دولة الروم وأصابت الكنيسة الشرقية بطعنات في الصميم، فلم تقو على الصمود بسبب جمودها وتخاذل فروعها وضعف شرايين الحياة فيها.

وبدأت غزوات الإسلام في النصف الأول من القرن السابع، فاجتاحت أولًا دولة الفرس التي كانت موطن النساطرة المسيحيين وقد أتمت القضاء على دولة الفرس سنة ٦٥١م حينما فر آخر ملوكها (يزجرد) إلى ما وراء تخوم بلاده. وفي سنة ٦٣٤م سقطت دمشق بأيديهم واستولوا على بيت المقدس سنة ٦٣٧م. وفي سنة ٦٣٨م أغاروا على مصر، فاستولوا على الإسكندرية وأحرقوا مكتبتها. ويقال إن أقباط مصر رحبوا بقدومهم للتخلص من قياصرة الروم وأن العرب أكرموا البطريرك القبطي المصري بنيامين وأحسنوا إليه ومنحوه السلطة الدينية على رعاياه.

وبعد استيلائهم على الإسكندرية تيسر للعرب القيام بحملات بحرية، فحاصروا القسطنطينية (٦٦٨–٦٧٤) ولكنهم ردوا عنها خائبين. وسقطت قرطاجنة بأيديهم سنة ٧٠٣ وبسقوطها دانت لهم دولة الفاندال في أفريقية الشمالية. وفي سنة ٧١١م عبروا البحر إلى أسبانيا، فاجتاحوها كلها وكادت جيوشهم تتخطى نهر اللوار في فرنسا لتكتسح دولة الفرنجة في الغرب. كما قضوا على دولة الروم في الشرق، لولا أن تصدى لهم (كارل مارتل)، فأنقذ الكنيسة الغربية من المصير الذي حل بالكنيسة الشرقية.

وكانت أمة الروم خصيبة المواهب، لم تدانها أمة من قبل في غزارة الخيال وعمق التفكير وروعة الثقافة؛ فالحمال في الطرقات تفلسف وحوانيت الحلاقين والحانات والفنادق تجاوبت في جنباتها أصداء المنازعات والمناقشات الجدلية حول أسرار الدين وحفلت أحاديث العامة بالمشاكل الدينية واللاهوتية. ولكن تلك الأمة العريقة التي بزت كل أمم الأرض في التفكير وخصوبة العقل اجتاحتها دولة العرب ومزقتها شر ممزق بحيث لم تقم لها قائمة من بعد. وعلى إثر هذه النهضة العربية شهد الشرق ثقافة عربية بدلًا من

الثقافة الإغريقية. وتفوقت تلك الثقافة العربية على ثقافة القرون الوسطى في الرياضيات والعلوم الطبيعية والفلسفة، وكان لها بعض الفضل في إحياء ثقافة القرون الوسطى. كما امتازت ثقافة العرب بالهدوء في التفكير والخيال الشعري الشرقي الخلاب، على أنها كانت بلا شك دون الثقافة الإغريقية القديمة.

ذهبت دولة الروم وقامت على أنقاضها دولة العرب. وبسقوط دولة الروم سقطت معها الكنيسة اليونانية الشرقية. نعم بقيت قائمة كراسي الإسكندرية وأنطاكية والقدس وتمتعت بالتسامح الذي منحه إياها العرب، ولكن قوة التطور والنماء وقفت جامدة في بيزنطة والإسكندرية.

وكانت مشكلة الأيقونات والصور في الكنائس إحدى المشاكل التي أثارت الانقسام بين الأحبار والزعماء. وقد بدأها الإمبراطور ليو– وهو ذلك الجندي الباسل الذي أنقذ القسطنطينية وصد العرب عنها– فأصدر في مستهل القرن الثامن مرسومًا يقضي بتدمير كل التماثيل في الكنائس ومحو الصور والنقوش. وكانت تلك قد غدت أشبه بعبادة الأوثان وأمل الإمبراطور من وراء هذا الإصلاح أن يستميل اليهود والمسلمين إلى المسيحية النقية. ولكن نفوذ الرهبان وحاجة الشعب إلى المظاهر الخرافية، كانت أقوى من الإمبراطور وجيشه وأتفق أساقفة أورشليم وأنطاكية والإسكندرية على إبقاء الصور والأيقونات. وكان قرارهم فاصلًا في مجمع نيقية (سنة ٧٨٧م) وهو المجمع المكسوني السابع الذي اعتبر الأيقونات والصور ذكريات مقدسة. وكانت حجتهم في هذا الإبقاء أن الصورة للأمي الجاهل هي بمثابة الكتاب لمتعلم.

***

العالم يوحنا الدمشقي:

وفي أواخر القرن السابع يظهر العالم الكبير يوحنا الدمشقي وهو من أشهر العلماء اللاهوتيين الذين أنجبتهم الكنيسة الشرقية. ولد في دمشق في أواخر القرن السابع وكان

اسمه العربي (المنصور) وأطلق عليه لفصاحة بيانه وذلاقة لسانه (صاب الذهب). وكان والده سرجيوس مسيحيًّا، ولي وظيفة من وظائف الدولة في حكم خلفاء بني أمية في دمشق وقد خلفه ابنه يوحنا في وظيفته هذه.

وكان الدمشقي من زعماء حزب الصور والأيقونات، فكتب وهو في وظيفته سلسلة بحوث دفاعًا عنها وقد استبدت به نزعة روحية داخلية، فطلق وظيفته الحكومية وتنازل عن كل مقتنياته العالمية وهرع إلى دير مار سابا على مقربة من القدس، حيث قضى بقية حياته. وقد رسم كاهنًا بيد بطريرك بيت المقدس. وفي أواخر حياته، تجول في سورية يخطب دفاعًا عن بقاء الأيقونات والصور في الكنائس وزار القسطنطينية في عهد الإمبراطور قسطنطين كوبرونيموس معرضًا حياته لخطر داهم.

وقد جمع عقائد الكنيسة في سفر لاهوتي فلسفي رتيب وعالج نظريات الهراطقة والملحدين وحللها تحليلًا بارعًا وأفرد قسمًا في أحد مؤلفاته لعقائد الإسلام، وكتب حديثًا ثنائيًّا على لسان مسيحي ومسلم، وضع على لسان كل منهما أدلته المنطقية لإثبات دينه؛ وقد دل هذا الحديث الجدلي على تعمقه في علم اللاهوت وبراعته في المنطق والإقناع.

وكان من بواعث الفرقة بين الشرق والغرب كلمة أضيفت إلى العبارة الخاصة بالروح القدس في قانون الإيمان النيقوي وهي (المنبثق من الأب والابن). فقد اعترض الشرق على الغرب لإضافته كلمة (الابن) وأصر على أن تبقى العبارة (المنبثق من الأب) فقط. وللقديس يوحنا الدمشقي رأي للتوفيق والمصالحة ضمنه إحدى رسائله، فلقد اقترح أن تصاغ العبارة (المنبثق من الأب بالابن) إرضاء للفريقين. ولم يصغ أحد إلى نصحه يومئذ، لأن منشأ الخلاف في الواقع بين الكنيستين الشرقية والغربية، لم يكن هذه اللفظة ولا غيرها؛ بل حب الرئاسة والتنازع السياسي والتباين الفكري واللغوي بين اليونان واللاتين كما سنرى فيما بعد. على أنه بعد انقضاء قرون طوال، أخذ أنصار وحدة الكنيسة في القرن العشرين يفكرون جديًّا في هذا الرأي الذي شرحه يوحنا الدمشقي اللاهوتي الشرقي في القرن السابع.

وكانت أبحاثه ومصنفاته أخر مجهود عقلي للمسيحية اليونانية. وبعد هذا التاريخ، انطفأت شعلة النتاج الفكري في الكنيسة الشرقية وأمست عالة على الدولة. وكل الذي فعلته الكنيسة الشرقية بعد ذلك أن سلمت عناصر ثقافتها القديمة وعقائدها تراثًا إلى العناصر الصقالبية التي بدأت تهرع إلى المسيحية من كل الجوانب. ولكن الصقالبة أعوزتهم القوة الكافية لإحياء العالم اليوناني، فبقيت أمة اليونان والكنيسة اليونانية على ما هي عليه من ضمور وموات. ولا نغالي إذا قلنا إن الكنيسة الشرقية كما نشاهدها اليوم في روسيا– قبل البلشفية على الأقل– وفي بلاد البقان وبلدان الشرق الأدنى ما زالت على الحالة التي كانت عليها في القرن السابع. ولكن من دواعي سرورنا أن نهضة جديدة أخذت تدب في حياتها في بعض الأنحاء, ولنا ملء الثقة أن يوقظها روح الله لتنهض إلى حياة جديدة وتستعيد مجدها التليد وترفع من جديد لواء الثقافة المسيحية بما عهد فيها من خصب وعمق وابتكار.

طوائف المشرق:

ولعله من الشائق هنا أن نسجل لمحات خاطفة من تاريخ بعض طوائف المشرق ذات الشأن في تاريخ المسيحية قبل أن ننتقل في القرون التالية إلى قصة نشر الدعوة المسيحية في الغرب وعهد شارلمان الكبير ورهبانية القرون الوسطى والبابوية:

الأقباط:

القبط من أعرق الشعوب الشرقية؛ فهم سلالة الفراعنة تتصل مدنيتهم بأقدم أزمنة التاريخ. ومن المآثر الغراء التي خلدها التاريخ في أول عهد المسيحية زيارة الأسرة المقدسة لوادي النيل. وتقول التقاليد إن الأقباط أخذوا المسيحية عن الرسول مرقس الإنجيلي الذي يعتبر كاروز الديار المصرية وأول أساقفتها. وقد برز من بينهم علماء أعلام أمثال أوريجانوس وأثناسيوس وكيرلس وغيرهم الذين كللوا بالجد والفخار هامة الكنيسة في القرون الأولى من تاريخ المسيحية وحملوا لواء العلوم الدينية في ربوع الشرق وبذلوا دماءهم رخيصة في سبيل الاعتصام بالدين الجديد.

وقد سجل التاريخ مناظرات يؤسف لها بين كرسي الإسكندرية والقسطنطينية حول مسائل تناولتها المجامع المسكونية، وخاصة في نيقية وخلقيدونية. وأدى هذا الخلاف إلى انشقاق الأقباط ومعهم السريان والأرمن عن الكنيسة اليونانية الشرقية واستقلال كل منها بشؤونها الدينية وتنصيب أساقفتها. وكانت مصر قبيل الفتح العربي ولاية تابعة للدولة الرومانية الشرقية في بيزنطة، فلم يكن منهم إلا أن أبطلوا استعمال اللغة اليونانية في كنائسهم ومهدوا للعرب سبيل الاستيلاء على مصر في عام ٦٤٠م– وقد أراد الفاتحون الاعتراف بهذا الجميل، فظاهروا البطريرك القبطي بنيامين وطردوا البطريرك اليوناني من البلاد لتفصم بذلك كل الصلات مع كرسي بيزنطة.

ولئن كان الأقباط قد لقوا بعض التسامح في بدء الفتح العربي، فإن الولاة الذين أقيموا عليهم فيما بعد كانوا شرا من إمبراطورة اليونان، فساموهم كل صنوف الإذلال والعسف. ولما اشتد الضغط ثار القبط غير مرة ولكن ثوراتهم قمعت بالقسوة والعنف ونكل بهم أشد تنكيل، حتى اضطر الأساقفة إلى الهجرة ودان خلق كبير منهم بالإسلام فرارًا من الاضطهاد والموت.

وفي أوائل القرن الثامن تحولت كتابة الدواوين من القبطية إلى العربية وطرد الأقباط من وظائفهم لأقل سبب، ولكن الحكام كانوا يعيدونهم في أحوال كثيرة كلما أحسوا بعدم إمكانهم الاستغناء عن خدماتهم والحاجة إلى خبرتهم ودرايتهم.

وفي أوائل القرن الرابع عشر، ثار المسلمون على القبط بتحريض أحد الدراويش، فهدموا كنائس القطر المصري وأحرقوها بالنار وحدث شغب عظيم كان يقتل فيه الأقباط في الطرقات أينما ساروا وأقفلت معابد القبط مدة سنتين كاملتين ولم يكن يجرؤ أحد على الخروج من داره إلا خفية. وهنا تدخل الإمبراطور البيزنطي وحمل الخليفة الناصر على الكف عن هذا الاضطهاد، فهدأت الحال إلى حد ما، ولكن حظر على القبط ركوب الخيل أو البغال أو لبس العمامة البيضاء، ومن خالف الأمر حكم عليه بالموت. وكان الدهماء يشنون الغارات على الأقباط ويهدمون كنائسهم وينهبون منازلهم، وشجعت

الحكومة على هذا الاضطهاد في بعض الأحيان لحمل الأقباط على اعتناق الإسلام، كما حدث في عهد الخليفة المتوكل في القرن الرابع عشر وغيره من الأسلاف.

وبعد العرب دانت مصر للعثمانيين، فلم يكن الأقباط بأوفر حظًّا في عهدهم، فدان كثيرون منهم بالإسلام إبان الفتح التركي وتناقص عددهم بسبب اضطهاد باشوات الترك الذين كانوا يسلبونهم أموالهم، وقيل إن عددهم نقص في القرن السابع عشر إلى مائة وخمسين ألفًا بعد أن كانوا عند الفتح العربي سبعة ملايين (وفي رواية أخرى ٢٥ مليونًا).

وجاء نابليون بعد الترك. وقيل إنه أعلن إسلامه في مصر وتبعه في ذلك قائده الجنرال ميتو الذي سمى نفسه عبد الله وتزوج بابنة أحد عامة الشعب. ولم يأت القائد الفرنسي ورجاله هذا العمل حبًّ في الدين بل استرضاء للمسلمين، وكان من جراء هذا أن ذل الأقباط في عصر الفرنسيس كما ذلوا في عهد اليونان والعرب والترك.

إلى أن جاء عهد مُحَمَّد علي الكبير ـ مؤسس مصر الحديثة ـ فأحسن معاملتهم وأكرم كثيرين من رجالهم وانتفع بهم في خدمة الدولة، فتنفسوا الصعداء في عصره وعصور خلفائه وتمتعوا بالحرية الدينية التي حرموها دهورًا طويلة. ويبلغ عددهم اليوم قرابة مليونين نسمة وما تزال الكنيسة القبطية محافظة على تقاليدها القديمة، مجاهدة في سبيل الاحتفاظ بحرياتها الدينية كاملة.

النساطرة:

النساطرة نسبة إلى نسطور. ولد نسطور في مرعش وتلقى علومه في المدرسة الأنطاكية وعُين أسقفًا للقسطنطينية في أوائل القرن الخامس وأغلب الظن أن هذه الشيعة كانت أكثر فروع الكنيسة نشاطًا وجهادًا في فترة القرون الوسطى وبث الدعوة في الجزيرة وبين النهرين وبلاد الفرس والهند والصين.

وحدث في أوائل عهده بالأسقفية أن اتُّهم نسطور بالهرطقة والمروق عن العقائد القويمة المتعلقة بشخص المسيح وطبيعته. فقام عليه رجال الدين واتسع نطاق الخلاف وأحيل الأمر على مجمع أفسس (سنة ٤٣١) وكان زعيم هذه الحركة كيرلس الإسكندري

يعاونه أساقفة أورشليم وفلسطين وقيصرية ورومية، وحكموا على نسطر بالإدانة وقرر الإمبراطور نفيه إلى مدينة تانيس في صحراء مصر حيث توفي هناك في سنة ٤٤٠.

على أن مبادئ نسطور وعقائده لم تندثر؛ فإن كثيرين من أشياعه في أنطاكية وسورية أخلصوا لها وفروا إلى بلاد الفرس إثر الاضطهاد الذي قام ضدهم وهناك استقبلهم الأكاسرة بحفاوة وإكرام وأعانوهم على بث الدعوة في بلادهم، ومن ثم صارت الكنيسة الفارسية نسطورية في عقيدتها. على أن الباعث لم يكن دينيًا بحتًا، فإن دولة الفرس كانت منافسة لدولة الروم قرونًا طوالًا، وكان حكامها من عبدة الشمس واضطهدوا المسيحية التي هي دين أعدائهم ومنافسيهم في الشرق، ولكنهم أكرموا وفادة الفارين نكاية في أمة الروم. وكان أعظم من جاهد لنشر الآراء النسطورية في بلاد الفرس شخص يدعى (برسوم) أسقف نصيبين ودأب في جهاده وسعيه حتى حمل فيروزشاه ملك الفرس على فصل النساطرة عن مذهب قياصرة الروم أعدائهم، ومن ذلك العهد استقل النساطرة– أو الكلدانيون وهو لقبهم القديم– في شيؤونهم الكنسية وانفصلوا عن الكرسي الأنطاكي.

وقد كان النساطرة أنشط الدعاة الذين عرفتهم المسيحية إلى ذلك العصر، فبثوا الدعوة في العراق والجزيرة وكردستان وبلاد الهند والصين وأنشأوا الأديرة والكنائس في هذه الأقطار كلها وظهر بينهم أساقفة وكتاب وعلماء كثيرون وأقاموا الكراسي الأسقفية في أنحاء الصين وسمرقند والهند وسورية وبلاد العرب وفارس.

ولما سقطت المدائن بيد العرب سنة ٦٣٧م، تبعثر النساطرة في العراق وفر كثيرون منهم إلى الصين، فاستقبلهم ملك البلاد أحسن استقبال وأباح الحرية للمسيحيين وانتشرت المسيحية في أنحاء البلاد بسرعة فائقة وخيل في القرن الثامن أن الصين ستنجب للعالم (قسطنطينًا) آخر ليجعل المسيحية الدين الرسمي، لولا التقلبات السياسية التي أساءت إلى الكنيسة كل الإساءة وماتت المسيحية الصينية النسطورية، على أن التاريخ يروى في القرن الثالث عشر ذكر كنيسة مسيحية ناشطة في ولاية المغول وقصة راهب صيني قام برحلة من بكين لزيارة الكنيسة في الغرب وبلاط ملك الفرنجة.

ويروى الرحالة (مارك بولو) البندقي أنه التقى بالنسطوريين في أشهر المدائن التي مر بها في رحلته إلى الشرق الأقصى. وفي بداية القرن الرابع عشر، كانت لهم أساقفة في كل أنحاء آسيا ولكن الضربة القاصمة أصابتهم بيد الطاغية تيمورلنك في أواخر القرن الرابع عشر الذي كاد يمحوهم من الوجود، وفر الأحياء منهم إلى جبال كردستان وكذلك قتل الأكراد منهم في منتصف القرن الثامن عشر. وخلال الحرب الأوروبية الكبرى ذاقوا الأمرين بيد الأتراك ولم يبق منهم إلا أربعون ألفًا لجأوا إلى العراق في نهاية الحرب ولم يكن حظهم خيرًا من حظهم في البلدان الأخرى.

وفي جنوب الهند ما تزال حتى اليوم كنيسة نسطورية يرجع تاريخها إلى القرن السادس ويبلغ عدد أعضائها نحو ثلث مليون.

وجاهد النساطرة في القرون الوسطى جهاد الأبطال لنشر الدعوة المسيحية في رقاع آسيا وعانوا في هذا السبيل ما عانوا من اضطهاد وموت وتشريد وتقتيل، ولولا الثورات السياسية في تلك القارة وتقلبات التاريخ السيئة الطالع، لكان لهم اليوم شأن آخر.

السريان:

أما السريان فهم أحفاد الأشوريين القدماء وقد اعتنقوا المسيحية في القرن الأول، في الوقت الذي اعتنقها فيه الكلدانيون، وكان موطنهم في أول عهدهم بالمسيحية بين النهرين وشمال العراق وكردستان وسورية. وحل بهم زمن انقسمت فيه وحدتهم إلى قسمين، غربيين وشرقيين، يفصل بين القسمين نهر الفرات، فمن كانوا إلى غربه أطلق عليهم السريان الغربيون، ومن كانوا إلى شرقه أطلق عليهم السريان الشرقيون.

وكانوا في أول عهدهم خاضعين لأسقف أنطاكية كسائر طوائف المشرق. ولما ظهرت في عالم الجدل اللاهوتي المسيحي نظرية (الطبيعة الواحدة) التي جاءها مجمع خلقيدونية (٤٥١)، رفضوا قراراته وانشقوا عن الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية وكان شأنهم في هذا شأن القبط والأرمن.

وقد حاول قياصرة القسطنطينية رد السريان إلى حظيرة الكنيسة الأرثوذكسية بشيء

من العنف والشدة. فلم يزدهم هذا إلا صدًا ونفورًا. وعرف السريان كطائفة مستقلة منذ القرن السابع الميلادي.

وبعد الفتح العربي، خضع السريان لسلطتين، الذين في الشرق خضعوا للعرب والذين في الغرب للدولة البيزنطية. وهؤلاء الأخيرون مالوا أخيرًا إلى الأرثوذكسية اليونانية. أما الشرقيون فقد اضطر كثيرون منهم اعتناق الإسلام لأسباب سياسية وفرارًا من الجزية، وإن يكن بعض زعمائهم البارزين عاد إلى المسيحية فيما بعد. وفي القرن الثاني عشر، انقسمت طائفة السريان إلى شيع ثلاث بسبب تنافس الرؤساء والبطاركة، وكانت لهم ثلاثة كراسي: أحدها في ماردين، والثاني في كليكية، والثالث في طور عبدين؛ وعلى أثر هذا الانقسام ضعف شأن الطائفة كلها ولاذ كثيرون من الأعضاء بالحبر الروماني، ولذلك تجد بينهم اليوم كنيسة للسريان الكاثوليك.

وفي خلال الحرب الكبرى (١٩١٤- ١٩١٨م) نكبوا بالفواجع والمآسي؛ فاستشهد منهم حوالي ثمانين ألفًا بسبب دينهم ومات كثيرون من الجوع والوباء ويقدر عدد الباقين منهم في ديار الشرق بأكثر من مائة وعشرين ألفًا، مبعثرين في العراق وما بين النهرين وسورية وفلسطين.

وبقي منهم في بلاد الهند عدد وافر يقدر بأكثر من ثلث مليون لهم أساقفة من الهنود تحت إشراف قائد بطريركي شرقي برتبة مطران. وقد نبغ في هذه الطائفة كثيرون من العلماء والكتاب، وخصوصًا في دراسة اللغات الأجنبية واليونانية.

الأرمن:

من الطوائف الشرقية القديمة، وتقول التقاليد القديمة إنهم أخذوا المسيحية عن الرسولين تداوس وبرثلماوس، والثابت في التاريخ أن ملكهم اعتنق المسيحية في أوائل القرن الرابع وصارت الأمة الأرمنية من ذلك التاريخ شعبًا مسيحيًا. على أن المسيحية لم ترسخ أقدامها في بلاد الأرمن إلا بعد ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الأرمنية على يد النابغة الأرمني القديس مسروب الذي كان كاتمًا لأسرار الملك. وقد تمكن هذا العالم من

اختراع الحروف الهجائية الأرمنية دون استعارة شيء من لغات أخرى وقام بالترجمة هيئة مؤلفة من مائة وستين شخصًا، نقلوا أولًا العهد القديم من اللغة اليونانية إلى الأرمنية عن النسخة السبعينية وقد استغرقت الترجمة قرابة ثلاثين عامًا.

وقد عانى الأرمن في تاريخهم ألوانًا من التعذيب والاضطهاد وحلقت الاضطرابات السياسية ببلادهم التعيسة، فخضعت أولًا للفرس ثم لليونان ثم للعرب، وأخيرًا الأتراك. وفي كل هذه التقلبات كانت أرمينية ميدانًا للقتال وسفك الدماء، وقد أرغمهم الفرس والعرب، لأسباب سياسية، على أن يقطعوا علاقاتهم باليونان والكنيسة الأرثوذكسية ورفض قرارات مجمع خلقيدونية ووقف الأرمن من القرن السادس إلى التاسع موقفًا حرجًا كانوا فيه كريشة في مهب رياح السياسة. وبعد أن انتصر الإمبراطور هرقل على الفرس، انعقد مجمع أرضروم وحضره الإمبراطور نفسه وعادت الكنيسة الأرمنية مرة أخرى إلى أحضان الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية. ولما استولى العرب على أرمينية في سنة ٦٩٣ فترت العلاقات بين الكنيستين للأسباب السياسية عينها وعمت البلاد اضطرابات في هذه الفترة قيل إنه قتل فيها من الأرمن ما يقرب من مائة ألف نسمة وهاجر كثيرون إلى بلاد القوقاز وفر غيرهم إلى بولندا وملدافيا وهنغاريا في أوروبا، والذين آثروا البقاء في الأناضول موطن أجدادهم وأسلافهم، نزحوا إلى الجنوب واستوطنوا كيليكيا وسموها أرمينية الصغرى.

وكانت القرون الستة التي قضاها الأرمن– بعد خروجهم من تحت سلطان اليونان– حافلة بالشدائد والمحن والنكبات وظل الكرسي الديني يتنقل من مدينة إلى أخرى لا يستقر فيها على حال. وعانى الأرمن في القرن الأخير من الويلات ما لم يخطر ببال إنسان وأعملت في رقابهم سيوف الأتراك في خلال الحرب العظمى، ولكن بقوا مع ذلك أمناء لدينهم وكنيستهم وقوميتهم ويقدر عددهم اليوم حوالي مليون نسمة موزعين على خمس بطريركيات.

الأحباس:

من الشعوب القديمة في التاريخ، وقد أطلقت كتب التاريخ على بلادهم (إيثوبيا). وسماها العبرانيون (بلاد كوش). وقد مضت في تاريخها القديم بلاد الحبشة الحالية وجزءًا

من مصر والنوبة وكردفان. وتقول التقاليد إن أول ملوكهم كان ابنًا لسليمان الحكيم، وذلك– على حد قولهم– إن سليمان أحب ملكة سبأ ونظم في وصفها قصيدة (نشيد الإنشاد)، ثم تزوجها وعادت إلى بلادها وهي حامل، فولدت غلامًا اسمه (منليك). فلما كبر أرسلته إلى أورشليم، فخشي سليمان الفتنة من وجوده عنده، فنصبه ملكًا على الحبشة وأعاده إلى والدته. وفي سنة ٩٥٥ق.م انتقل الحكم إليه ويزعمون أن الأسرة المالكة من هذه السلالة ملكت حتى الآن ٢٩٠٠ سنة.

ومن مفاخرهم المأثورة التي يتباهون بها أن الخصى الحبشى وزير كنداكة ملكة الحبشة كان من أوائل الذين اعتنقوا المسيحية في الشرق وتعمد على يدي فيلبس في سنة ٣٧ ب.م (ا ع ٨: ٢٦–٤٠).

على أن انتشار المسيحية في بلاد الأحباش يرجع الفضل فيه إلى القديس فرومنتوس أول أسقف رسم على الحبشة في القرن الرابع. وهم الذين نشروا المسيحية في بلاد اليمن. وفي سبيل ذلك استشهد كبير من كبرائهم يدعى القديس (أزقير) ما زالوا يحيون ذكراه في عيد سنوي حتى اليوم. وكذلك هم الذين نشروا المسيحية في بلاد النوبة في القرن السادس وظلت النوبة مسيحية إلى القرن السادس عشر حين أغار عليها الترك وأخذت المسيحية تضعف حتى كادت تتلاشى في أيام المهدي في القرن التاسع عشر.

وللأحباش مآثر أخرى في الدفاع عن النصارى؛ فلما ثارت قبائل حمير على نصارى العرب في القرن السادس، تدخل الأحباش وعزلوا الملك الذي أساء معاملة نصارى نجران وأقاموا ملكًا نصرانيًّا حكم وأسلافه مدة أربع وسبعين سنة وشيدوا لهم كنيسة جميلة في نجران ضموا تحت جدرانها عظام شهدائهم وأقاموا عليهم أسقفًا اشتهر في التاريخ بالخطابة والعلم.

كذلك حاموا عن القبط غيره مرة في التاريخ. ففي عهد الخليفة الناصر (١٣٢٠م) لما اشتد الضغط على الأقباط، بعث إليه ملك الحبشة برسالة تهديد متوعدًا إياه أن يقطع مجرى النيل عن مصر إذا لم يكف عن اضطهاد الأقباط.

وكانت الكنيسة الحبشية– وما زالت– تابعة لكرسي الإسكندرية– أي بطريرك

الأقباط– يعين فيها مطرانًا من قبله نائبًا عنه، وقد وقعت حوادث في التاريخ أدت إلى توتر العلاقات بين الكنيستين، بل التقاطع والنفور. وفي التاريخ الحديث فقدت الحبشة استقلالها مدة خمس سنوات لما أغار عليها موسوليني الزعيم الإيطالي، ولكنها استعادت استقلالها في الحرب الأخيرة (١٩٣٩– ١٩٤٤) بمعاونة الجيوش البريطانية، وعاد الإمبراطور إلى عرشه بعد صلوات ودموع وآلام.

ويقال إن عدد الأحباش يزيد الآن عن عشرة ملايين ثلثهم مسيحيون والثلث الباقي مسلمون ويهود.

الموارنة:

ذكرنا لمحة عن الكنيسة السريانية. والواقع أن سلالة السريان أشبه بشجرة متفرعة إلى ثلاثة أغصان، وهي: السريان المشارقة وهم النساطرة من الكلدان، والسريان المغاربة الذين أطلق عليهم لقب اليعاقبة، والموارنة وهم الفرع الثالث من هذه الشجرة.

وقد روى الإنجيل الكريم قصة المرأة الفينيقية الغربية التي نالت من المسيح مبتغاها بفضل إخلاصها وحلو منطقها وقوة إيمانها (مر ٧– ٢٦) ويقولون إن هذه المرأة من سلالة الموارنة الأقدمين. كذلك تقول التقاليد إن الموارنة أخذوا المسيحية من الرسل رأسًا. وفي القرون الأولى من تاريخ الكنيسة كانوا تابعين للكرسي الأنطاكي وظلوا مخلصين له على حين انفصل عنه السريان الآخرون من نساطرة ويعاقبة بسبب مشكلة الطبيعة الواحدة والطبيعتين. وقد عرضهم هذا الولاء لكثير من ضروب الاضطهاد على أيد بني جنسهم السريان، ففر كثير منهم إلى فينيقية واعتصموا بجبال لبنان ولاذوا بحمى الراهب يوحنا مارون واستقرت الطائفة في تلك البقعة الجبلية المنيعة، ورسم يوحنا مارون أول أسقف عليها في سنة ٦٨٥م وظل الموارنة دهرًا طويلًا حريصين على استقلالهم الروحي والمدني على الرغم مما بذله قياصرة الروم وخلفاء العرب. وصمدوا أمام هذه القوى كلها معتصمين بمناعة ربى لبنان وقمم جباله، وبقي تاريخ الموارنة قرابة خمسة قرون لا يعرف عنه شيء.

ولما فتح الصليبيون سورية رحب الموارنة بهم واتحدوا معهم على خصومهم وأعلم نفر

كثير منهم انضمامه إلى الحبر الروماني في رومية ليتخلصوا من مضايقة قيصر بيزنطة. وظل أساقفة رومية يستميلونهم بشتى الأساليب حتى امتلكوا قلوبهم وأنشأوا لهم مدرسة لاهوتية في روسية لتخريج القساوسة ومعلمي الدين. واكتسب الموارنة عطف ملوك أوروبا الكاثوليك، فمنحتهم فرنسا حمايتها في القرن السابع عشر وما يزال الموارنة حتى اليوم طائفة كاثوليكية شرقية وما زال بطريركهم صاحب الكلمة المسموعة والرأي النافذ في لبنان. ويبلغ إحصاء هذه الطائفة قرابة ثلث مليون تدير المئات من المدارس المفلحة التي يتخرج منها في كل عام ألوف من الطلاب.

القرن الثامن

رأينا في القرن السابع ما آل إليه حال الكنيسة في الشرق ولم يكن حال الكنيسة في الغرب خيراً منه؛ فإن الإمبراطورية العظيمة التي رفرفت أعلامها على العالم دهرًا طويلًا انهارت وأخذت تزحف عليها قبائل الجرمان محطمة في طريقها كل ما شيدته الحضارة الرومانية، حاملة معها المظاهر البربرية من الحراج والغابات في ألمانيا.

القبائل الجرمانية تعتنق المسيحية:

أقبل ما أطلق عليه التاريخ بالقرون المظلمة، ولم يكن في الأفق بارقة تومئ إلى انبثاق الفجر الجديد. على أن شعاعًا من نور شق سدفة الظلام، ذلك لأن الإمبراطورية قد انهارت حقًا، ولكن دون الكنيسة. ففي الشرق اندثرت الكنيسة مع الإمبراطورية وضاعت ثقافة هذه وتلك. أما في الغرب فقد بقيت الكنيسة صامدة وفي عالم يسوده الدمار والخراب وقفت شاهدة مستمسكة بتاريخها الماضي، فأنقذت نظمها وعقائدها من العالم القديم وسلمتها إلى جيل جديد وابتلعت الغزاة في أحضانها وضمتهم إلى صدرها، فغدا الغالب مغلوبًا وأقبلت القبائل الجرمانية إلى اعتناق المسيحية التي اضطهدتها من قبل، فأنقذت بذلك الكنيسة وأنقذت ثقافتها، وبقيت تلك الثروة العقلية الدينية سليمة لم يمسسها ضر. والفضل في ذلك يرجع إلى خلايا الأديرة الصامتة والعلماء الرهبان الذين اكتنزوا في عقولهم وفي أديرتهم ذلك الذخر الثمين إلى أن حان الوقت الذي أخرجوه فيه من مخابئهم لينير عالمًا جديدًا وامتزجت العناصر التوتونية والجرمانية بالعناصر اللاتينية، لتكون للعالم المسيحي تاريخًا.

في العصور الأولى تولت الكنيسة الشرقية زعامة المسيحية. والآن قد انتقل هذا الصولجان من الشرق إلى الغرب. وأنه لمن المؤلم حقًّا أن يسجل المؤرخ المنصف– وخاصة إذا كان شرقيًا– أنه بينما ضعفت الكنيسة الشرقية أمام غزوات العرب ولم تقو على

استمالتهم وإدماجهم فيها لضعفها وتفرق كلمتها وتشاحن رؤسائها، فإن الكنيسة الغربية أفلحت في ترويض برابرة الجرمان وضمهم إلى أحضانها.

***

ولئن تكن الإمبراطورية الرومانية قد انهارت، فإن الفكرة في إحيائها ظلت حلمًا من الأحلام العذبة طوال القرون الوسطى، وبقي شبح الإمبراطورية الرومانية قائمًا أمام الجرمان الغزاة المثل الأعلى، يعللون النفس بتحقيقه وإحياء تلك العظمة الدارسة التي بهرهم نظامها البديع. تلك كانت أحلام الجرمان في القرون الوسطى ولعلها لم تبرح خيالاتهم طوال العصور حتى يومنا هذا. وما تلك الحروب المتعاقبة التي أغرقوا فيها أوروبا إلا متنفسًا لتلك الفكرة التي سحرتهم واختمرت في عقولهم وقلوبهم بإنشاء إمبراطورية عالمية يكونون فيها السادة الحاكمين كما كان الرومان من قبل. ولم تكن فكرة إحياء الإمبراطورية مطمح أنظار السادة الجرمان فقط، بل حلمًا براقًا صورته كتابات العلماء وخيالات الشعب بصور غامضة، أدت فيما بعد إلى مغامرات البطولة الخالدة وإنشاء دولة الفرنجة **Franks** أولًا، ثم الإمبراطورية الجرمانية ثانيًا.

وكانت المسيحية التي اعتنقتها القبائل الجرمانية آريوسية– أي مستمدة من تعاليم آريوس التي وسمت في القرون الأولى بالهرطقة والإلحاد– لأن الإمبراطورية الشرقية كانت في خلال القرن الرابع أميل إلى الآريوسية، وكانت القبائل التي قطنت نهر الدانوب مثل القوط والفاندال والبورجنديين قد تلقت مسيحيتها عن تلك الإمبراطورية الشرقية. وها نحن نرى الآريوسية– بعد أن شجبت واختفت من الإمبراطورية الرومانية– ظلت حية بين العناصر الجرمانية التي اعتنقت المسيحية. ومن هنا ثار النزاع الديني، فضلًا عن النزاع القومي، بين القبائل الجرمانية القاهرة وبين رومان الإمبراطورية الرومانية المقهورين.

على أن مملكة واحدة في أوروبا حافظت منذ البداية على مبادئ الدين الصحيح، وهي مملكة الفرنجة، فإن ملكها (كلوفيس) اعتنق المسيحية على مبادئ الكنيسة الكاثوليكية، وتبع في ذلك دين الملوك والنبلاء والأساقفة في بلاد الغال وممالك أوروبا

الأخرى. وتعاون هؤلاء مع كلوفيس على خلع نير الهراطقة الآريوسيين وآثر الكل أن يتجمعوا تحت لواء ملك الفرنجة، واتحدت الولايات الأوروبية المتفرقة وصارت مملكة واحدة، شملت فيما بعد العالم الجرماني الروماني وعرفت في التاريخ بإمبراطورية (كارل العظيم).

وإلى جانب مملكة الفرنجة القوية قامت أيضًا كنيسة (إفرنجية) كان لها من القوة ما هيأ لها سبيل التقدم والتطور من نواحٍ كثيرة. ولكن ما حل القرن السابع حتى كانت الكنيسة قد ناءت تحت عبء ثروتها المادية وسطوتها الزمنية ولعب أسقف رومية دور السيد الآمر وتزعم ثورة الطبقة الأرستقراطية ضد الأسرة المالكة وأهملت الشؤون الروحية وبطل استدعاء المجالس الكنسية، وكثرت المنازعات والدسائس فيها. وفي مستهل القرن الثامن أصاب الهيئة الدينية انحلال مريع وتمكن (كارل مارتل) من إخضاع الكنيسة لمطالب الإمبراطورية واستخدم أموالها وثرواتها لتنفيذ مآربه عند الحاجة.

من ثم افتقرت الكنيسة في ذلك العصر إلى من يصلحها وينهضها من كبوتها. فمن عساه أن يكون ذلك، هل ترجع إلى سيدها وحاميها أسقف رومية؟ كان أسقف رومية نفسه موزع الميول، يميل إلى اليونانيين تارة وإلى اللومبارديين تارة. ومن ناحية أخرى طغت على سلطته المملكة الجرمانية ومملكة أسبانيا ومملكة الفرنجة في بلاد الغال، ومملكة اللومبارديين في إيطاليا، ونزعت منه كل سلطان على الكنيسة. وانحلت الكنيسة الغربية إلى كنائس قومية لا تربطها وشيجة ولا ترعاها رأس. فهناك الكنيسة الأسبانية والفرنجية واللومباردية والإنجلوسكسونية. وفقدت البابوية ذلك السلطان الأعلى الذي كانت تفرضه على كنيسة الغرب كلها. فمن ذا الذي يقيل الكنيسة من عثارها ويرد إليها وحدتها؟

كانت ألمانيا في القرن السادس وثنية. وكان فرضًا واجبًا على كنيسة الفرنجة أن تدخل المسيحية إلى ألمانيا جارتها، ولكنها لم تفعل. وكان ذلك من بواعث انحطاطها وضعفها وكل كنيسة تكتفي بذاتها وتنطوي على نفسها وما لبثت الدعوة خارج نطاقها، تفقد حيويتها ويدركها الفناء. وقد قدر لألمانيا أن تتناول المسيحية من الجزر البريطانية، فإن رهبانًا من إيرلندا وإسكتلندا رحلوا إلى ألمانيا في أوائل القرن السابع متفرقين وكانوا من

الكلت يتكلمون لغة غريبة، وجعلوا مهمتهم نشر الإنجيل في ربوع ألمانيا وحملوا معهم عاداتهم وأساليب حياتهم، ومسيحية ذات طابع كلتي خاص تختلف عن المسيحية اللاتينية في الغرب، فقد أباحوا زواج الكهنة واحتفوا بعيد الفصح على طريقتهم الخاصة على غير ما نسجت عليه كنيسة الغرب. وفضلًا عن ذلك لم يعترفوا بالدستور الأسقفي، وهو النظام الكنسي الذي كان مرعيًا في كل العالم المسيحي يومئذ، فكان الدير محط تعليمهم ومركز سلطانهم، فأنشأوا في ألمانيا كنائس تميل إلى نظام الرهبنة أكثر من أي نظام آخر، نظمت على النسق الكلتي الخاص. وبذلك تأسست في ألمانيا كنيسة ذات طابع خاص ونشأ عنصر جديد من عناصر التفرقة والانحلال في العالم المسيحي الغربي.

وفي مستهل القرن الثامن، تعرضت الدولة ذاتها في الغرب إلى خطر داهم؛ وذلك لأن الدولة القوطية الغربية اكتسحها العرب أمامهم في سنة ٧١١م وتوغلت جحافلهم حتى عبرت جبال البيرينيه وبلغت نهر اللوار في فرنسا. وفي الوقت نفسه أخذ المهاجرون الصقالية يزحفون من الشرق للاستيطان في حوض نهر الرين.

فأين الحمى وأين المصير؟ قد انهارت مملكة (كلوفيس) القوية وتقاسم المملكة النبلاء الذين شقوا عصا الطاعة واستقل كل منهم بالأمر في ولايته. وابتلع العرب أسبانيا وجزءًا كبيرًا من فرنسا وسادت الفوضى كل أنحاء الغرب، فاغتصب الأشراف والنبلاء والأساقفة ورؤساء الأديرة على قدر ما استطاع من نفوذ وسلطان.

كارل مارتل وبونيفاس:

باتت الكنيسة، بل المسيحية كلها، في خطر داهم. ولكن في هذه الساعة الحرجة ينهض رجلان لينقذا الغرب من ورطته، أحدهما سياسي والآخر مصلح ديني– هما كارل مارتل وبونيفاس.

وكانت معركة بواتيه (٧٣٢م) التي هزم فيها كارل مارتل العرب إيذانًا بإحياء الإمبراطورية المفككة الأوصال وكان ظهور بونيفاس مرسلًا إلى ألمانيا من قبل الكرسي البابوي علامة لإحياء الكنيسة.

بونيفاس الإنكليزي:

رأينا كيف دخلت المسيحية إلى ألمانيا، وكيف أنشأ الرهبان الوافدون من الجزر البريطانية جماعات مسيحية مبعثرة في مناطق متباعدة لا رئاسة لها ولا نظام فيها. أما الزعيم المسيحي الذي أضفى الفضل على الكنيسة في ألمانيا وهولندا في القرون الوسطى فهو الرسول بونيفاس، وقد كان أنجلوسكسونيًّا، فاستطاع أن يحمل رسالة المسيحية إلى قبائل التيوتون بلغتهم الأصلية. ومنذ حداثته تضرست في نفسه رغبة ملحة لحمل رسالة الإنجيل إلى أرض آبائه وأجداده التي رحلوا منها أولًا قبل أن يستوطنوا الجزر البريطانية.

وكان بونيفاس أول أسقف إنكليزي ختم حياته بدم الاستشهاد بين الوثنيين في ألمانيا. ولم تكن حدود أوروبا الوسطى في القرن الثامن كما عرفنا اليوم على الخريطة. فقد كانت مملكة الفرنجة التي حكمها الدوق كارل مارتل تشمل– حسب التخوم الحالية– فرنسا الشمالية وألمانيا الغربية. وكان بين الفرنجة المسيحيين وسكان الإقليم المعروف الآن بهولندا (والذي سمي يومئذ فريزية) عداء شديد وحروب متوالية. فلما رحل بونيفاس أولًا إلى هولندا يحمل رسالة المسيحية إلى قبائلها الوثنية، استقبله ملكها على غير رحب وأقصاه عن بلاده.

وفي الوقت الذي صار فيه بونيفاس رئيس أساقفة ألمانيا، كان وليه ونصيره كارل مارتل يصد الغزاة العرب عن أوروبا الغربية. ففي الشمال، أنقذ الأول بجهاده السلمي شمال أوروبا من غزوات البرابرة وثبت فيها أقدام المسيحية. وفي الجنوب، أقام الثاني بجهاده الحربي سدًّا منيعًا حاول دون انهيار المسيحية في أوروبا الجنوبية...

ولد بونيفاس في أسرة من سراة السكسون يمتون بصلة القرابة للأسرة الملكية في ويسكس[٤]. وأطلق عليه أبواه اسمًا سكسونيًّا (وينفريد) أي الجميل الجذاب. وكان الصغير يصغى في حداثته إلى الزائرين الذين كانوا يغدون إلى دار أبيه ويروون قصص

---

(٤) **Wessex** ويسكس ولاية في إنجلترا وكانت مملكة في ذلك العهد. وهي بلد السكسونيين الغربيين كما أن **Essex** و **Sussex** هما بلدا السكونيين الشرقيين والجنوبيين على التوالي.

الأسفار والمخاطر في البلدان الأجنبية، وقد أثارت هذه القصص الدم السكسوني في عروقه وأحس بهاتف يدعوه إلى عبور البحر لزيارة البلدان الأجنبية.

وفي ذات يوم وفد إلى الدار طائفة من الغرباء– زمرة من رهبان إيرلندا– وقد بدت عليهم علائم الإعياء والتعب من وعثاء السفر وأخذوا يقصون على الحاضرين الروايات المثيرة وراح الصبي السكسوني يصغى في انتباه ولهفة إلى روايات القوم ومغامراتهم عن حمل الرسالة المسيحية عبر البحار إلى القبائل الهولندية والجرمانية في رقاع القارة، وكان لتلك الليلة أبلغ الأثر في توجيه حياته في مستقبل الأيام.

تلقى وينفريد علومه في مدرسة الدير كعادة ذلك العصر وتعلم الشعر والتاريخ والكتاب المقدس، حتى غدا عالمًا كبيرًا وقدر له عارفوه أنه سيكون يومًا رئيس ذلك الدير. ولكن أحلامًا كانت تجوس في خواطر الصبي لم يعرف كنهها أحد واضطرمت في قلبه رغبة ملحة أن يحمل رسالة المسيحية إلى القبائل الوثنية في بلاد الجرمان التي هاجر منها آباؤه وأجداده قبل أن يستوطنوا هذه الجزر. وفاتح بعض رفاقه، ولشد ما كانت غبطته أن يرتضوا الرحيل معه في هذه المغامرة الكريمة.

نزل وثلاثة من رفاقه سفينة غشيمة الصنع من الخشب، حملتهم إلى ساحل هولندا، على أنهم لم يلقوا ترحابًا؛ لأن ملك البلاد كان مشتبكًا في حرب شعواء مع كارتل مارتل المسيحي ملك الفرنجة، فأغلظ لهم القول وأمرهم بمغادرة البلاد، فقفلوا راجعين في سفينتهم الخشبية إلى شاطئ إنجلترا.

على أن هذه الصدمة لم توهن عزيمته، بل فكر في وسيلة أخرى لتحقيق حلمه ورام أن يزور المناطق الواقعة على ضفاف نهري الألب والرين حيث تسكن القبائل السكسونية، وكان له أثر أن يعرج أولًا على رومية ليستأذن البابا ويلتمس تعضيده لنشر الدعوة في أوروبا الوسطى.

رحل عن طريق فرنسا متخذًا الطريق الذي يسلكه عادة الحجاج الذاهبون إلى رومية وكانت رحلة شاقة خطرة فوق معابر جبال الألب الثلجية. وفي إيطاليا، تعرض هو

وزملاؤه إلى هجمات قبائل اللومبارديين. ولما مثل الشاب السكسوني الصافي الذهن، القوي الفؤاد، أمام البابا جريجوريوس الثاني، أعجب به أيما إعجاب وبارك مهمته.

بونيفاس الإنكليزي أول أسقف على ألمانيا:

وراح وينفريد يجاهد في نشر الدعوة بين قبائل الجرمان المتبربرة، فلبى الدعوة كثيرون. ولما بلغ الأمر أسماع البابا، استدعى وينفريد وأقامه أسقفًا على الكنيسة الناشئة في ألمانيا والمناطق الواقعة شرق ضفاف نهر الرين وأعطاه البابا أيضًا رسائل توصية للدوق كارل مارتل ليقدم كل معونة ممكنة للمرسل الإنكليزي بين القبائل السكسونية. وفي هذه الزيارة خلع على وينفريد الاسم اللاتيني بونيفاس.

ولما عاد بونيفاس إلى عمله بين قبائل السكسون في ألمانيا، وجد بعضهم راسخين بدينهم القديم في الوقت نفسه. وكان القوم يعيشون وسط الغابات والحراج، فآمنوا أن أرواح الغابات والأنهار والبرك تحاول دائمًا إيقاع الأذى بهم، فأراد بونيفاس أن يطمئن قلوبهم وينزع الخوف منها ويظهر لهم أن آلهتهم التي يعبدونها عاجزة عن إيذائهم.

وكان بين أشجار الغابة بلوطة ضخمة، جبارة، قالوا عنها (بلوطة الرعد) وقدسوها لأحد آلهتهم، وكان المسيحيون أنفسهم يقدسون هذه الشجرة. فاستدعى إليه بونيفاس الوثنيين والمسيحيين وتقدم أمامهم والفأس بيده وطفق يكيل لها الضربات ولم يعبأ بما شهد على وجوههم من علائم الغضب والوجوم. وكانت الشجرة جوفاء من الداخل، فلم تلبث طويلًا حتى انكفأت وسقطت. وأمر بونيفاس بعد ذلك أن يبني بأخشاب هذه البلوطة الجبارة أول كنيسة مسيحية لمجد الله في تلك البلاد.

ظل بونيفاس يجوب البلاد، سائرًا على قدميه أو ممتطيًا جواده، يدعو الناس ويعمدهم ويعمل بيديه أحيانًا لتطهير بقعة من الأرض في الغابة لإقامة كنيسة عليها. ولما اتسع نطاق عمله بعث إلى وطنه يطلب الأعوان والمتطوعين من رجال ونساء. وكانت له ابنة عم أمدته وأصحابه في الجهاد بالكتب والملابس. فلما بلغها نبأ الحاجة إلى مجاهدين، كانت أول من لبى النداء للعمل بين فتيات الجرمان في الغابات والحراج، وخرج في أثرها

من أديرة بريطانيا العظمى سيل جارف من الأرامل والعوانس وأمهات وأخوات وبنات عمومة المرسلين الذين نزحوا إلى ألمانيا، ولم يلبث أولئك الجرمان الكواسر الذين ولغوا في الدماء والعراك حتى خروا على ركبهم طائعين وادعين عند أقدام رسل الرحمة ودعاة المحبة والخير.

ولما بلغ بونيفاس الخامسة والسبعين من عمره، ألقى رداء الأسقفية جانبًا وارتدى ملابس الرهبان الخشنة وشرع مع اثنى عشر من صحابته في آخر مغامرات حياته. وقد أحس أن نهايته وشيكة، فأقام من يخلفه للإشراف على العمل في غابات ألمانيا وسار مع تلاميذه الاثنى عشر إلى هولندا، البلاد التي دعته أولًا بهاتف روحي إلى ركوب البحر. وظل يعمل هناك سنتين كاملتين بين أشد القبائل شراسة وقسوة وتنقل فوق الأنهار والمستنقعات ومجاري المياه، يبنى هنا وهناك الكنائس الخشبية لمن يقبلون دعوته المسيحية وبدت في الأفق بوادر الفوز والنصر، وأقبل إليه كثيرون يلبون دعوته.

ولكن حدث في يوم من أيام الصيف من سنة ٧٥٥م أن نصب بونيفاس وأصحابه خيامهم على شاطئ نهر استعدادًا لإقامة عبادة خاصة يثبت فيها عددًا غفيرًا من المسيحيين الهولنديين وكانت المروج المنبسطة أمامهم متلمعة بالأزاهير الوادعة المتفتحة لاستقبال نور شمس الصباح. وفيما هو يترقب بفارغ الصبر مجئ الناس، أقبل بغتة– عوضًا عن مواكب المسيحيين– عصابة مسلحة بالتروس والرماح، تدك الحشائش بأقدامها وتصيح صيحات الحرب الرهيبة. فلما رأى أصحابه هذا المنظر المخيف، نهضوا للدفاع عن سيدهم. أما بونيفاس فخرج من خيمته وبرباطة جأش استقبل المتوحشين المسلحين الذين أرادوا القضاء على المرسلين وكل جهودهم، والتفت إلى زملائه مخاطبًا إياهم في هدوء وسكينة: (أيها الإخوان: كونوا أبطالًا ولا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولا يقدرون أن يقتلوا الروح... تقبلوا الموت ببسالة لكي تكونوا مع المسيح إلى الأبد). وهجم الوثنيون على المسيحيين القلائل وفتكوا بهم عن آخرهم.

فضله على البابوية:

وقد أخلص بونيفاس للكرسي البابوي في رومية وآمن في غير مواربة بأن خلاص

الكنيسة في الغرب متوقف على رومية، فلم يأل جهدًا في توطيد دعائم البابوية، وهو صاحب الفضل فيما نعمت به من نفوذ وكرامة خلال القرون الوسطى.

ومن أجل أعمال بونيفاس وأبعدها أثرًا، إعادة تنظيم الكنيسة في دولة الفرنجة؛ فقد أمسك كارل مارتل كنيسة بلاده بيد من حديد وأبى إدخال أى إصلاح فيها. ولكن بعد موت مارتل تمكن بونيفاس في زمن قصير من إحياء الدستور الكنسي في مملكة الفرنجة وإحياء المجالس الكنيسة الإقليمية تحت رئاسة رؤساء الأساقفة للإشراف على شؤون الشعب. وكما فعل في ألمانيا أخضع كنيسة بلاد الغال لسلطان البابا، فغدا الجالس على الكرسي الديني في رومية الرأس الأعلى للعالم المسيحي في الغرب، ومرة أخرى أعيدت إلى الكنيسة الغربية وحدتها.

وكان هذا في الواقع خيرًا للكنيسة، فإن الانحلال إلى عدة كنائس قومية لم يجر عليها غير الضعف والخذلان أمام السلطات الزمنية. وكان لهذا الاتحاد أثره البالغ في الاحتفاظ برسالة الإنجيل في غضون القرون الوسطى والإبقاء على المسيحية وسط أعاصير السياسة وأهواء الحكام ونزوات الملوك وغزوات الطغاة. وكانت وظيفة البابوية في ذلك العصر إحياء نظام الكنيسة الجامع الشامل والمناداة بالمبادئ المسيحية لتهتدي بنورها شعوب القرون الوسطى.

والفضل في توطيد زعامة البابا– كما قلنا– يرجع أكثره إلى بونيفاس الإنكليزي منشيء الكنيسة الألمانية، وفي هذا يقول (رودلف سوم) المؤرخ الألماني: إن بونيفاس لم يبع الكنيسة الجرمانية للبابا، ولكنه زودها– كما زود المسيحية كلها– بتلك القوة الحية المنتجة التي كانت مصدرًا لعظمة الكنيسة وثقافة القرون الوسطى.

القرن التاسع

البلغار

مشكلة الأيقونات:

يحدثنا التاريخ أن باباوات رومية كانوا خاضعين للإمبراطور الشرقي خلال القرن السابع. وقد تجاسر البابا مارتن الأول (٦٤٩- ٦٥٥م) على حرمان بطريرك القسطنطينية لانضمامه إلى القائلين بالطبيعة الواحدة في ذات المسيح. فأثار بذلك سخط الإمبراطور واستدعاه إلى القسطنطينية حيث جرده من ثيابه وأمر بجره في شوارع المدينة بعد أن علق طوقًا من حديد في عنقه. وبعد ذلك زجه في خابية رطيبة إلى أن قضى نحبه من جراء هذا التعذيب. وكان البابا قسطنطين (٧٠٩م) آخر من دان بالولاء والخضوع للإمبراطور الشرقي؛ لأن مشكلة الأيقونات وانشغال الإمبراطور في محاربة العرب قد دفعتا البابا جريجوريوس الثاني (٧١٥- ٧٣١م) إلى خلع نير القسطنطينية وعقد مؤتمر عام في رومية أصدر فيه حكم الحرمان على الإمبراطور وجميع أشياعه.

من ثم يأمن البابا في هذه الفترة هجمات الإمبراطور الشرقي ويظفر في الوقت نفسه بسلطانه التام على كنيسة الغرب بعد الجهود التي بذلها رسوله بونيفاس. ولكن ناحية واحدة يأتيه منها الخطر هي قبائل اللومبارديين في جنوب إيطاليا الذين حاولوا الهجوم على رومية وغزوها عنوة. فاستغاث البابا بملك الفرنجة (كارل مارتل) الذي أفلح في خضد شوكة اللومبارديين وضمن للبابا سلطته الروحية على الغرب.

وقد توثق هذا التحالف في عهد (بيبان) خلف كارل مارتل الذي توجه البابا ملكًا على الفرنجة وصار الملك شبه حام للبابوية. على أن أزهي عصر شهدته المسيحية الغربية في القرون الوسطى هو عصر شارلمان الكبير ابن (بيبان) هذا، وحفيد كارل مارتل العظيم.

ولعله العاهل الوحيد في التاريخ الذي قبض بين يديه على مقاليد كل الأشياء في عصره. وكان محاربًا من الطراز الأول، وعند موته انضم تحت لواء ملكه الأقاليم المعروفة الآن بفرنسا وبلجيكا وهولندا ونصف ألمانيا والنمسا والمجر وأكثر من نصف إيطاليا وشمال أسبانيا وبعض الولايات الصقلبية في الشرق. وكان أيضًا نصيرًا للعلوم والفنون وسيد الكنيسة وحافظ النظام، لم يترك شاردة ولا واردة إلا وعاها واعتنى بها.

أما فضله على المسيحية فلا ينكر، وقد كان من سياسته أن يضم الأقاليم التي يخضعها إلى حظيرة المسيحية ولو بالقوة. ومن مآثره أنه أخضع السكسونيين في ألمانيا. وكان بونيفاس قد أنشأ هناك كنائس انضم إليها خلق كثير. أما هو، فجعل المسيحية دينًا رسميًّا في تلك البلاد وانضمت القبائل الجرمانية الناشطة الفتية إلى الأسرة المسيحية الأوروبية لتعلب دورها الخطير في مستقبل التاريخ.

عهد شارلمان الكبير:

وقد بدا للناس كأن ذلك العاهل الذي امتد سلطانه السياسي إلى أبعد الحدود والذي أوقف جهوده على نشر المسيحية وإعلاء شأنها– يعيد إلى أوروبا مظهر الإمبراطورية الدارسة فلا عجب أن نرى البابا ليو الثالث (٧٩٥– ٨١٦م)– الذي وقاه شارلمان شر استبداد النبلاء الرومان في إيطاليا– ينتهز الفرصة السانحة ليضع على هامة ملك الفرنجة التاج الإمبراطوري الروماني وهو جاث على ركبتيه في كنيسة القديس بطرس في ليلة عيد الميلاد من سنة ٨٠٠م، وقد استقبل الشعب هذا الصنيع بالهتاف والتهليل، متوقعين أنه سيعيد إلى الغرب صولجان الإمبراطورية الذي ظل قروناً في يد الجالس على عرش القسطنطينية. وكأنما قد شغل شارلمان مقام خلافة أوغسطينوس، ودمغت إمبراطوريته بالطابع التيوقراطي، وزعمت شعوب أوروبا أن الإمبراطورية الرومانية لم تمت وأن الله قد مسح إمبراطورًا غربيًا ليعيد إليها مجدها التالد. ولم يكن هذا الشعور تحديًا لإمبراطور القسطنطينية، فإن أيام الدولة الرومانية الأخيرة قد شهدت عرشين ولم يكن في هذا شيء من الغضاضة، وقد اعترف إمبراطور القسطنطينية ليو الخامس (٨١٣–

٨٢٠م) بلقب زميله الغربي الذي خلعه البابا على شارلمان.

وقد كان هذا التتويج في رومية بعيد الأثر في حياة الغرب وفي حياة البابوية، لأنه كان مدعاة للمنازعات العنيفة التي ثارت فيما بعد خلال العصور الوسطى بين السلطتين الإمبراطورية والبابوية، كما أنه قوى في الناس الشعور بأن الكنيسة والدولة ليستا إلا وجهين لترس واحد، أحدهما يقود الإنسان إلى السعادة الزمنية، ويقوده الآخر إلى الغبطة الأزلية، وكلاهما مقترنان معًا على أساس المعونة المتبادلة.

وقد نسج التاريخ حول شارلمان سلسلة من الأساطير والقصص عن شجاعته وبسالته وحسن بلائه في الحروب، على أنه لم يكن جنديًّا عظيمًا وحاكمًا قديرًا وحسب، بل كان مسيحيًا كاثوليكيًّا تقيًّا، أصر على أن يخضع أعداؤه، لا لسلطانه الزمني فقط، بل لمبادئ الدين المسيحي أيضًا. وكانت القبائل في ذلك الزمن تتبع زعماءها في العقائد الدينية دون تفكير ابتغاء المنافع فقط، ويروى عن زعيم من الزعماء الذين قهرهم شارلمان، أنه تعمد عشرين مرة ليجمع لديه عددًا من الثياب البيضاء الأنيقة التي كانت تقدمها الكنيسة عادة للمنتصرين!

على أن شارلمان لم يرضه أن يكون شعبه مسيحيًّا بالاسم فقط، فأراد أن يلقنه مبادئ الدين الصحيح ويروضه على الحياة الكريمة الفاضلة. ولما اعتلى العرش كانت الأحوال سيئة، فالحروب المتواصلة والغزوات المتكررة دمرت كثيرًا من الأديرة وأفقدتها كتبها القيمة وشردت علماءها ومعلميها، وتولى المناصب الأسقفية رجال جهلاء لا يمتون للتقوى بصلة، فكان أول ما عمل أن استقدم إليه فريقًا من العلماء للاستعانة بهم في إنشاء المدارس وإصلاح الأديرة وتعليم الشعب. وكان بين الذين نالوا لديه حظوة خاصة ومقامًا ممتازًا، راهب إنكليزي يدعى (ألسيون)، وقد اختاره شارلمان قسيسًا خاصًّا له ومعلمًا للأسرة المالكة وتدريب المعلمين في الإمبراطورية.

ويمكن أن يقال إن إحدى المعارك التي فاز فيها شارلمان فوزًا مبينًا كانت معركة الكتب. ففي تلك الأزمنة المظلمة التي أحرقت فيها كتب كثيرة وقتلت طائفة من العلماء

وطرد آخرون وشردوا، لم يكن هينًا العثور على نسخة سليمة من الأسفار المقدسة أو كتب العبادة الكنسية، وذلك لأن بعضها قد شوه والبعض الآخر نقله قوم جهلاء، فما خلت صفحة واحدة من الأخطاء والأغلاط. أما الذين كانوا يقرأون هذه الكتب فقلما كانوا يفهمونها والمستمعون إليها لم يطرق آذانهم إلا خليط من الألفاظ التي لا معنى لها. كذلك اضطربت الموسيقى الجميلة الرائعة التي وضعت ألحانها في رومية. لذلك كان هم (ألسيون) أن يصحح قبل كل شيء نسخ الكتاب المقدس الخطية وكتب العبادة التي خطتها أيد جاهلة، وأن يعطيها بعد ذلك إلى رهبان متعلمين لكتابة نسخ أخرى كثيرة، وقد استغرق تصحيح الكتاب المقدس سبعة أعوام، وقدمه (ألسيون) هدية التتويج للامبراطور شارلمان في سنة ٨٠٠م.

وفي الوقت نفسه استقدم شارلمان من رومية اثنين من مشاهير الملحنين لتعليم الموسيقى الصحيحة، وأنشأ مدارس للموسيقى في متز وسواسون، بعث إليها كل معلمي الجوقات الموسيقية بكتبهم لتصحيح ألحانها.

وفضلاً عن تصويب الكتب الخطية، بذل الراهب (ألسيون) جهدًا جبارًا في مدرسة القصر لتعليم شارلمان نفسه وأبنائه وبناته ومشيرته وأبناء النبلاء والأحرار الذين جمعهم شرلمان حوله لهذا الغرض. كذلك جاهد الراهب في إنشاء المدارس الملحقة بالأديرة في أنحاء الإمبراطورية. وكان ملحقًا بكل دير مدرسة صغرى يمكن لكل مسيحي أن يتعلم فيها أركان الإيمان والأدعية والموسيقى الكنسية والمزامير وقواعد النحو في اللغة اللاتينية، ومدرسة كبرى تنقسم إلى قسمين: أحدهما للرهبان والآخر لأفراد الشعب لتلقين بعض موضوعات الدراسة الصعبة كالفلك والحساب والموسيقى والأدب. وقد نشطت هذه الأديرة في اقتناء الكتب والمؤلفات، وفاخر بعضها أن يقتني مؤلفات هوميروس وفرجيل علاوة على الأسفار المقدسة وكتابات الآباء الأولين.

ولم يكن نشاط شارلمان نفسه بأقل من نشاط معلمه، فأصدر قوانينه الخاصة في الإصلاح، وأمر قساوسه أن يجمعوا حولهم الأحداث ويعلموهم، وأوعز إلى الفلاحين أن يتعلموا الموسيقى الكنسية بإنشادها وهم يحرثون الأرض ويرعون مواشيهم، وألهب روح

الحماس والعمل في نفوس الأساقفة، ووضع قواعد النحو للغة الجرمانية القديمة التي كان يتكلمها هو والشعب الانكليزى في ذلك الزمن، وأبى على معلمه المحبوب (ألسيون) أن يقضى أخريات أيامه في وطنه الأصلى إنجلترا واستبقاه في أحد الأديرة في فرنسا لمتابعة عمله في نسخ الكتب وتثقيف المعلمين والرهبان حتى مات هناك في سنة ٨٠٤م.

وبعد عشر سنوات من هذا التاريخ مات الإمبراطور العظيم شارلمان، وظلت المدارس التي أنشأها قائمة بعملها المجيد فترة من الزمن، ولكن الحروب احتدمت بين أبنائه، وثارت المنازعات بين النبلاء الذين كان قد خلق منهم طائفة قوية حوله للدفاع عن الإمبراطورية، ونزلت من الشمال قبائل الهون فأعملت مرة أخرى معاول التخريب والتدمير في هذه الإمبراطورية الزاهرة كما سنرى فيما بعد.

على أن معركة الكتب التي كسبها شرلمان لم تخسر بعد ذلك، وبقيت هذه التحف الثمينة وسط الحروب والمنازعات ذخائر قيمة مكتنزة بين جدران الأديرة ليطلع منها النور مرة أخرى في سماء أوروبا.

الإمبراطورية الشرقية في القرن التاسع:

هذا كان شأن الغرب في بكور القرن التاسع. أما في الشرق فنرى إمبراطورًا قويًّا يدعى باسيل المدوني يجلس على العرش في بيزنطة سنة ٨٦٧م– وكانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية– أو دولة الروم كما يسميها مؤرخو العرب– قد حصرت نشاطها في أوروبا الشرقية– بعد أن اقتطع العرب ولاياتها الأسيوية والأفريقية وسلمت من الانهيار بارتداد العرب عن القسطنطينية. وراحت هذه الإمبراطورية تصطبغ بالصبغة اليونانية البحتة في أفكارها ولغتها، وطفقت تقف موقف العداء حيال الغربيين (اللاتين). وحيال مطالب البابوات وتدخلهم في شؤون الكنيسة وقام شجار عنيف بين الشرق والغرب حول إضافة كلمة إلى قانون الإيمان. (٥)

---

(٥) وهي كلمة الابن التي أضيفت مؤخراً إلى عبارة قانون الإيمان عن الروح القدس (المنبثق من الأب والابن).

وبلغ الشجار ذروته يوم عزل الأسقف أغناطيوس بسبب شجاعته في لوم الإمبراطور الشرقي وعذله على خطاياه ونصب أسقف آخر في محله يدعى فوتيوس وقد رفع الاثنان دعواهما إلى البابا، فأصدر حكمه في صالح أغناطيوس.

وظل النزاع قائمًا إلى أن كانت سنة ١٠٥٣م، فأصدر البابا حكم الحرم على أسقف القسطنطينية. فلم يكن من هذا الأخير إلا أن أذاع على سائر أساقفة المشرق أن الكنيسة في الغرب هرطقت وحادت عن الإيمان القديم وأن الكنيسة الشرقية هي الكنيسة الأرثوذكسية الصحيحة. ومن ذلك التاريخ أطلق عليها هذا الاسم. وكان ذلك الحادث التعيس فاتحة نزاع مر قاس شطر الكنيسة أخيرا إلى شرقية وغربية. وظاهر الأمر أن الشرق احتج على الغرب بسبب إضافة كلمة إلى قانون الإيمان النيقوي دون استشارته واعترض على بعض العادات الكنسية المقتبسة من الغرب ومنها ضرورة بقاء الكهنة عزابًا. هذا هو منشأ النزاع في الظاهر، ولكن حقيقة الأمر أن هذه المنازعات مصدرها الشعور القومي والحسد السياسي، وجب الرئاسة والتباين في التفكير واللغة بين اليونان واللاتين.

الأخوان الرسولان:

وفي تلك الفترة أخذت الشعوب التي أخضعها إمبراطور بيزنطة في شرق أوروبا تتقرب إلى الدين المسيحي، وهؤلاء تلقوا الأنباء في بادئ الأمر من معلمين جهلاء، فالكنيسة لم تعن في هذه الفترة بإعداد معلمين صالحين لإشباع حاجة الشعوب الكثيرة، وهؤلاء شهدوا بعيونهم أحيانا رجال الكنيسة ورجال الدولة يعيشون حياة لا تختلف عن حياتهم، ولكنهم شهدوا أيضًا كثيرًا من الجمال والروعة في حياة المسيحيين حقًّا، وكان أمراء تلك الشعوب والقبائل يطلبون تارة إلى البابا وأخرى إلى الإمبراطور أن يوفد إليهم رسلا لتعليمهم الدين المسيحي.

وكانت مشكلة اللغات في ذلك الزمن أعقد المشاكل، فالغرب ظل محافظًا على اللغة اللاتينية كلغة رسمية وتكون الأدعية والعقائد والأسفار المقدسة ترجمت في بعض

الأحوال للاستعمال الشخصي. وكانت إنجلترا وبلاد الغال (فرنسا) وألمانيا وسكندناوه تتكلم اللغة التيوتونية ويمكنها التفاهم بها فيما بينها. واستعملت الإمبراطورية الشرقية اللغة اليونانية، أما البلدان والأقاليم الواقعة شمال اليونان وغرب ألمانيا– ومنها بلاد روسيا الشاسعة الأرجاء– فلم تكن تفهم إلا اللغة الصقلبية.

وتلبية لنداء هذه الشعوب والقبائل أوفد ميشيل إمبراطور بيزنطة في سنة ٨٦٣م رسولين أخوين راهبين من سالونيك– هما كيرلس وكان كاهنًا تلقى العلم على يدي الأسقف فوتيوس وكان مرة أمين مكتبة القصر الإمبراطوري، وميثودوسيوس وكان فنانًا وجنديًا وتولى الحكم مرة في ولاية (بانوينا) اليونانية الصقلبية. وكانت ولاية مورافيا المسرح الرئيسي لجهودهما. وكان شارلمان من قبل قد غزا هذه الولاية وبذل رئيس أساقفة سالزبورج جهودًا لكسب أهلها إلى المسيحية، ولكن رسله كانوا يجهلون اللغة الصقلبية، وكان الكتاب المقدس بلغة لم يفهمها الشعب، فلم تصادف جهودهم توفيقا يذكر. فكان على الرسولين الأخوين– كيرلس وميثودوسيوس– أن يضعا الحروف الأبجدية للغة الصقلبية ويترجمها سفر الأعمال وبشائر الإنجيل وبعض العبادات الدينية إلى هذه اللغة. ولما بلغ مسامع البابا أن العبادة تتلى باللغة الصقلبية حنق وأصدر حكمه عليهما، ولكن الأخوين دافعًا عن نفسيهما في رومية دفاعًا روحيًا مجيدًا، فاضطر البابا إلى إلغاء حكمه والرضاء عنهما. ومات كيرلس في رومية سنة ٨٩م. أما ميثودوسيوس، فقفل راجعًا إلى مقر جهاده بعد أن رسمه البابا رئيس أساقفة (بانوينا) في سنة ٨٧٠م وصار بعد ذلك رئيس أساقفة مورافيا.

على أن أساقفة الجرمان الحاسدين والولاة والحكام أخذوا يعرقلون جهوده، ولكنه تغلب على كل معاكساتهم بصبره وإخلاصه. وطرد مرة من كرسيه ولكن البابا أعاده إليه، واستدعى مرة أخرى إلى رومية متهماً بالهرطقة، ولكن أطلق سراحه، وأرسل إلى القسطنطينية متهماً بالخيانة، وهنا أيضًا اتضحت براءته وعاد إلى مقر عمله مزودًا بالهدايا والكرامة. وفي أواخر حياته أوقع عداته بينه وبين أمير (بانوينا) ولكنهم فشلوا في عرقلة جهوده، وتغلب عليهم بصبره وإخلاصه، وظل يجاهد حتى موته في سنة ٨٨٥م بعد أن

شهدت عيناه اهتداء كل الشعوب الصقلبية من دلماتيا وكرواتيا على شواطئ الادرياتيك إلى تخوم بولندا. وعلى يديه اعتنق دوق بوهيميا المسيحية.

البلغار:

وهنا كلمة عن البلغاء بالذات: فالبلغاريون هم المغول الذين نزحوا من أواسط آسيا وكان أول الدعاة بينهم الأسرى المسيحيين الذين حملوهم معهم عند استيلائهم على مدينة أدرنة في سنة ٨١٣م. وقد شهد أولئك الأسرى لدينهم وهم في الأسر وختم كثيرون منهم شهادتهم بدمائهم. وحوالى سنة ٨٦٠م بعث بوريس الملك البلغاري يطلب إيفاد معلمين مسيحيين، وذلك بناء على إلحاح أخته وتوسلها، وقد اعتنقت المسيحية وهي أسية في القسطنطينية. وقبل هو وشعبه الدين المسيحي.

وحدث مرة في إحدى رحلات ميثودوسيوس أن استدعاه البلاط البلغاري ليرسم للأمير صورة صيد. وقال له الأمير: اجعلها كبيرة رائعة مريعة، فطلب الأسقف أن يعطى خلوة لرسم الصورة، ولما فرغ منها دخل الأمير قاعة القصر، فبدلًا من أن تقع عيناه على صورة الصيد، رأى صورة المسيح جالسا على عرشه يدين الخير والشر في اليوم الأخير. ولما عرف الأمير معناها، تقدم نحو الصورة وأحنى رأسه أمامها والتفت إلى الفنان، وقال: (زدني من هذه المعرفة لأكون في اليوم الأخير في الجانب البهي المنير من هذه الصورة).

القرن العاشر

نشأة الدولة الروسية

كانت روسيا آخر الدول الأوروبية التي اعتنقت المسيحية وآخر الشعوب التي استنارت بالحضارة الحديثة. وقد بدأت روسيا كدولة في القرن التاسع الميلادى يوم أغارت بعض القبائل الشمالية من سكندناوة على المنطقة الواقعة شرق بحر البلطيق، وقد زحف أحد قوادهم واسمه (روريك) حتى مدينة كييف في الجنوب، حيث أنشأ نواة الدولة التي امتدت فيما بعد وصارت الإمبراطورية الروسية، فوحد القبائل الصقلبية واضطر الغزاة إلى إدماج قوميتهم السكندوناوية الشمالية بالصقالية الذين كانوا تحت حكمهم وامتزج الغالبون والمغلوبون في قومية واحدة. وقد أطلق الصقالبة اسم (روس)، وهو لقب صقلبي على أولئك الغزاة الشماليين، ثم تزوج ابن القائد (روريك) من سبية اسكندناوية تدعى (أولجا) كانت على قسط كبير من الجمال الرائع.

وإلى سنة **٩٣٥**م كان الشعب الروسي وثنيًّا عاكفًا على تقديم الذبائح البشرية. والأميرة السكندناوية أولجا صاحبة الفضل الأكبر في تأسيس المسيحية الروسية. ومما يقوله عنها التاريخ الروسى القديم: (مهدت الطريق للمسيحية في روسيا، كما يمهد الفجر الطريق لانبثاق أنوار الشمس).

وقد عرفنا مما تقدم أن الإمبراطورية الرومانية قد انقسمت شطرين في أواخر القرن الرابع– شرقية وغربية. وراح دبيب الانقسام يسرى بين الكنيستين الشرقية والغربية لأسباب بعضها سياسية وبعضها دينية. ورأينا كيف راضت المسيحية القبائل الجرمانية التي انحدرت من الشمال إلى الجنوب للاستيطان في أرجاء أوروبا الوسطى والجنوبية، وانضم بعض هذه الشعوب المغيرة إلى الكنيسة الغربية بزعامة الباب في رومية، والبعض الآخر إلى الكنيسة الشرقية التي تزعمها في أوروبا يومئذ بطريرك القسطنطينية. وبذلك اندمج

الإنكليز والفرنسيس والجرمان في أسرة الكنيسة الغربية. أما الصقالبة الذين استقروا في بلاد البلقان وحوض الدانوب منذ القرن السادس، فتلقوا المسيحية عن الكنيسة الشرقية اليونانية وذلك بحكم اتصالهم بالإمبراطورية الرومانية الشرقية.

وقد تم تنصير روسيا على يد الكنيسة اليونانية في الفترة التي بدأ فيها الشقاق يدب بين الكنيستين الغربية والشرقية (وقد تم الانفصال سنة ١٠٥٤م). وكان لانسياب المسيحية والحضارة إلى روسيا عن طريق القسطنطينية مركز المسيحية الشرقية– لا عن طريق رومية مركز المسيحية الغربية– أثره البارز في تطور مستقبل روسيا.

وثمة أسطورة لا يؤيدها سند تاريخي تقول إن القديس أندراوس ـ أحد الحواريين تلاميذ المسيح ـ انطلق شمالًا ينادي برسالة الإنجيل حتى بلغ مدينة (كييف) الروسية في طريقه إلى رومية. وهناك وقف على هضاب (كييف) العالمية، وصاح: (أترون تلك الجبال الشامخة. إن نعمة الله ستنيرها يومًا وسيكون فيها مدن عظيمة وتشيد كنائس كثيرة). ثم ارتقى أعالي تلك الهضبة وباركها وأقام هناك صليبًا.

ومثل هذه الأسطورة كثير غيرها ترويها الأحاديث الروسية المتواترة. ولكن الثابت تاريخيًا في مدونات الراهب نسطور (أبي التاريخ الروسي) أن المسيحية امتدت في روسيا في عهد الملكة أولجا وحفيدها فلاديمير في القرن العاشر.

قصة دخول المسيحية إلى روسيا:

ويروي التاريخ قصة شائقة عن دخول المسيحية إلى روسيا. فقد حدث أن أولجا الملكة الوالدة في ذلك العصر ذهبت إلى القسطنطينية في زيارة رسمية لامبراطورها سعيًا وراء حق جديد. ويعتقد نسطور مؤرخ تاريخ روسيا (في سنة ١٠٣٥م) أن بينها وبين ملكة سبأ كثيرا من أوجه شبه، مع فارق واحد هو أنها ذهبت إلى البلاط الإمبراطوري سعيا وراء حكمة سماوية. بينما رحلت ملكة سبأ سعيا وراء حكمة أرضية. وهناك تعمدت بيدي الحبر الأكبر في سنة ٩٥٧م وصارت عضوًا في الكنيسة اليونانية، وقد أعجب الإمبراطور بسحر جمالها ورقة أنوثتها وأراد أن يتخذها زوجة له، فأبت عليه ذلك. ولما

عادت إلى وطنها حملت معها كاهنًا يونانيًّا لنشر الرسالة المسيحية بين الصقالبة الوثنيين، وحاولت إقناع ولدها وحمله على اعتناق المسيحية، ولكنه خشي سخرية شعبه، ولم يكن بطبيعته أهلا للدين المسيحي، فقد كان محاربًا قاسيًا عنيفًا، ميالًا إلى حياة المعسكرات... ولم يكن يستسيغ الطعام المطهي، بل أحب شرائح لحم الخيل تشوى شيا على نار المعسكرات وتؤكل نصف نيئة.

فلاديمير:

وقد عاشت الملكة أولجا في قصرها في كييف مع حفيدها الصغير (فلاديمير)، وكانت تروي له الأقاصيص الدينية التي لم يكن يمل سماعها وشغف بها كل الشغف. أما والده الأمير، فلم يتسع له الوقت للإشراف على تربية ولده؛ لانهماكه في إدارة شؤون الأقاليم الروسية وعهد بهذه المهمة إلى الجدة.

وكثيرًا ما كان يجلس فلاديمير إلى جانب جدته أولجا ويلح عليها أن تروي له قصة الرحلة مرة أخرى، فتبدأ له القصة من أولها، كأنها الراهب المؤرخ نسطور يسجل (أيامه)، فتقول:

(في سالف الزمان قام أميران من (كييف) اسمهما (اسكولد) و(دير)، وأبحرا في نهر الدنيبر بأسطول قوامه مائتا سفينة مسلحة لغزو مدينة بيزنطة العظيمة عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية. ولما اقتربت السفن إلى أسوار المدينة، هبت عاصفة هوجاء وتلاطمت الأمواج العجاجة، فحطمت السفائن الحربية كلها. وقيل يومئذ إن البطريرك– رئيس الكنيسة في بيزنطة– رفع الدعاء إلى الله ليحمي المدينة ويقيها شر الغزاة. فلم يفلح الأميران في غزوتهما ولم تمس المدينة بسوء. وكان من آثار هذا الفشل أن اعتنق الأميران المسيحية وعادا إلى روسيا يدعوان إلى الدين الجديد، مبتدئين من كييف).

(وفي كنيسة كييف الصغرى، سمعت لأول مرة عن الإله الحق وتاقت نفسي أن أستزيد من هذه المعرفة وأيقنت أني سأجد ضالتي في مدينة بيزنطة، مقر البطريرك. فنزلت يوما في سفينة مع جمع من الرفاق في نهر الدنيبر. وقد مررنا في رحلتنا بالزوارق الصغيرة التي يصنعها سكان الغابات لحمل العسل والشمع والعراء والكتان إلى أسواق الجنوب.

ويعد عبور البحر الأسود يبلغون بيزنطة فيستبدلون سلعهم هذه بالحرائر النفيسة والجواهر التي يبتاعونها من الإغريق. أترى هذه الجوهرة الثمينة التي أعلقها في عنقي. لقد ابتعتها في الرحلة التي أروي لك الآن خبرها).

(وأخيرا بلغنا المدينة العجيبة، مدينة كتدرائية القديسة صوفيا الرائعة، ليس كمثلها شيء مما أعرف أنا وأنت[٦]. جدران مطلية بالذهب والفضة والحجارة الثمينة وأعمدة سامقة من الرخام الملون البديع، وقباب هائلة متعالية في الفضاء. وتعمدت بيد البطريرك بوليكتوس. وقد عرف شدة لهفتي على نقل هذه الأخبار المفرحة إلى شعبى، فوضع يديه على رأسي وقال هذه الكلمات وهو يباركني: (مباركة أنت بين نساء روسيا، الأجيال الروسية تطوبك).

وإذ تنتهي الجدة من قصتها، كان يعلو وجهها سحابة من الكآبة والكمد وقد عرف فلاديمير الصغير أن مبعث هذه الكآبة هو صدود والد الأمير عن الاستماع إلى جدته وإتباع الإله الحي. وحين كان يقارن الشاب فلاديمير أخلاق جدته الرقيقة الرضية بخشونة والده وغلظته، كان يفكر ويسائل نفسه عن المصير الذي سيختاره في الحياة بعد أن يصير رجلًا.

... يكبر فلاديمير، ولكنه ينسى– إلى حين– الشيء الكثير مما تعلمه على لسان جدته ويشغل فكره بالمطامع الأنانية القاسية. ولما مات والده، نزع إلى الطموح والعظمة، فضم إلى نصيبه من الأرض أنصبة أخوته واستأثر بكل الأقاليم التي خلفها أبوه. ويقول عنه المؤلف نسطور إنه كان أشبه بسليمان في شدة تعلقه بالنساء، فكانت له خمس زوجات وثماني مائة من المحظيات، وغيرهن كثيرات من النساء اللواتى كان يتصل بهن في فترات متقطعة. وكان أيضًا شديد التمسك بالآلهة القومية الوثنية، فأقام تمثالًا لأحد الآلهة

---

(٦) بنيت كنيسة (أيا صوفيا) في القسطنطينية (بيزنطة) على النمط البيزنطى، وتعد من أروع بدائع هذا الفن في العالم. بناها الإمبراطور يوستنيان في القرن السادس. وكانت الكنيسة في عهد أولجا وفلاديمير باقية على روعتها وجلالها قبل أن يسلبها جمالها وروعتها برابرة الغرب في الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢– ١٠٢٤) ولما استولى الأتراك على القسطنطينية سنة ١٤٥٣م جعلوها مسجداً. ولكن الأتراك الحديثين جعلوها متحفاً بعد أن أزالوا النقوش الإسلامية وكشفوا عن رسومها ونقوشها الأصلية.

كانت تقدم عند قدميه الذبائح البشرية.

على أن مؤثرات الطفولة وتعاليم جدته لم تطمس جذوتها في نفسه، على الرغم من هذه الضلالات. وكان قد التقى في فتوحاته الجديدة بأقوام من المسلمين واليهود والمسيحيين وعرف أن أديان جميع هؤلاء تفضل دينه، فلم يرضه دين آبائه وآثر أن يبحث في هذه الأديان ليختار منها ما يرضاه لنفسه ولقومه.

وجاءه أولًا قوم من المسلمين من بلغاريا، وقالوا له: (أيها الأمير. إنك على الرغم من حصانتك وأصالة رأيك، لا دين لك، فخذ ديننا وقدم ولاءك لنبينا مُحَمَّد). وبعد أن ناقشهم في أمور الدين صرفهم قائلًا: (أريد شيئًا آخر). ثم أقبل إليه قوم من رومية، مهد المسيحية الغربية، موفدين من البابا، فأصغى إلى أقوالهم ولكنه لم يقتنع. ثم أقبل إليه قوم من يهود القرم وحاولوا إقناعه بقبول اليهودية دينًا له. ولكنه لما وجدهم مبعثرين مع إيمانهم أن موطنهم في أورشليم، سألهم قائلًا: (كيف تعلمون غيركم وأنتم رفضتم وتبعثرتم في أوطان غريبة؟، أتريدون أن يحيق بنا هذا المكروه الذي حاق بكم؟). وذلك لأن فلاديمير أراد أن يوحد شعبه بعقيدة راسخة متينة لا تزعزعها الخطوب.

ثم جاءه راهب يوناني حاملًا إليه نبأ المسيحية كما يعرفها في بيزنطة. وهنا تذكر فلاديمير الروايات التي قصتها عليه جدته الطيبة القلب وأحس أنه يوشك أن يجد ضالته التي ينشدها ولكنه مع ذلك آثر الحذر وأراد أن يقدر لرجله قبل الخطو موضعها، فصرف الراهب لحال سبيله ووعده أن يفكر في الأمر.

وبعد ذلك يرسل فلاديمير جماعات من أشراف قومه لزيارة المساجد الإسلامية والمجامع اليهودية والكنائس الرومانية واليونانية، لكي يروا كيف يعبد الله كل من هذه الطوائف. وبعد عودتهم، استدعى فلاديمير حكماءه ومشيريه مرة أخرى ليمهدوا له بنصحهم سبيل الاختيار.

وراح المبعوثون يشرحون لأميرهم ما رأوا وما سمعوا ومواطن الضعف وأسباب الروعة في كل العبادات التي رأوها. ووصفوا له في إسهاب عبادة دينية حضروها في كاتدرائية

القديس صوفيا بالقسطنطينة، فقالوا: (ما درينا أكنا في السماء أم على الأرض. فإن المشهد لا مثيل له على الأرض. ليس كمثله شيء ولا قبل لنا على وصفه. على أننا شعرنا هناك أن روح الله تسكن مع البشر. حاشا أن ننسى الجمال الذي تغذت به عواطفنا وحاشا أن نبقى بعد اليوم على الوثنية).

وتذكر فلاديمير وهو يصغى إلى أقوال حكمائه قصة الرحلة التي روتها له جدته من قبل التي أحبها وشغف بها في عهد صبوته. وتذكر كيف جاهدت وسعت حتى ظفرت في بيزنطة بعبادة الله الحي. وتفوه الحكماء بأقوال عبرت عن خلجات قلبه، حين قالوا: (لو كان دين اليونان باطلًا، لما قبلته جدتك أولجا وهي أحكم بني البشر).

بلغ خاتمة المطاف في تفكيره واعتزم فلاديمير أن يصير مسيحيًّا، ولكنه لم يكن قد عرف معنى المسيحية الحقة. فقد كان في مقدوره أن يتنصر في كييف قاعدة ملكه التي كان بها كنائس ومرسلون من القسطنطينية، ولكنه كان مزهوًا فخورًا، طامعًا طامحًا وأراد أن يؤثر في البطاركة والأباطرة اليونان بمظاهر حربية لإعلان مجده وعظمته. وكأنما حال كبرياؤه بينه وبين إذلال نفسه في أعين اليونان والظهور أمامهم بمظهر المتوسل الذي يلتمس الخضوع لكنيسة المسيح، وساقه تفكيره إلى طلب المعمودية كغنيمة من غنائم الانتصار الحربي، وكأنما أراد أن يرغم اليونان على إعطائه شيئًا من حقه، لا منحة يلتمسها منهم. وفي سبيل تحقيق هذه الفكرة، تولى قيادة جيش عرمرم وزحف به إلى (سباستبول) في شبه جزيرة القرم وكانت يومئذ من أملاك الإمبراطورية البيزنطية. ونذر أن يتنصر إذا استولى على المدينة عنوة واقتدارًا. وبعد أن تم له النصر، بعث إلى الإمبراطور يطلب يد أخته (حنة) زوجة له، مهددًا إياه بالزحف إلى القسطنطينية إذا تأبى. ويقال إن الأميرة اليونانية بكت وانتحبت أن تقع فريسة بين ذراعي رجلٍ قاسٍ. ولكنها قبلت بعد إذ علمت أنها ستكون الأداة لحمل الشعب الروسي على اعتناق المسيحية. ولم يمض زمن طويل حتى تعمد فلاديمير في الكنيسة المسيحية وتزوج من الأميرة (حنة). وبعد ذلك بنى كنيسة في (سباستبول) ثم رد المدينة إلى الأباطرة الرومان أصحابها الأصليين.

يعود الأمير فلاديمير إلى روسيا مع زوجته ونفر من المرسلين اليونانيين ويحطم التمثال

الذي أقامه للإله الوثني ويلقيه في النهر، ولكنه يأتي عملًا يدل على أنه ما فتئ الأمير القوي الباطش، لا الزعيم المسيحي المصلح؛ فقد أصدر مرسومًا يدعو به الشعب عن بكرة أبيه للمجئ إلى ضفاف نهر الدنيبر للمعمودية. وما من شك أن بين الذين أرغموا على اعتناق المسيحية عددًا غفيرًا من الناس انضم إلى هذا الدين الجديد خشية غضب الأمير أو ابتغاء مرضاته. والمسيحية لا تكتسب أنصارها بمثل هذه الوسائل وهي أبعد الأديان عن أسباب الإغراء والوعيد.

على أنه بعد أن عرف المسيحية معرفة أفضل، أدرك أن القوة ليست الوسيلة الملائمة لاستمالة الناس إلى المسيح وآثر أن يترك قومه أحرارًا ولم يرغم من آثروا البقاء على حياتهم القديمة. وبدلًا من القسر والإرغام، راح يقنعهم بالملاينة والملاطفة وأنشأ المدارس لتعليم الأحداث وبنى الكنائس في المدن وعين المعلمين والكهنة وبعث أبناء النبلاء إلى القسطنطينية لإعدادهم ليكونوا دعاة ورسلًا بين الشعب. ولعل الأثر العظيم الذي خلد اسم فلاديمير والذي اقتبسه من بيزنطة، هو الكاتدرائية الرائعة التي شيدها في كييف عاصمة ملكه على الطراز اليوناني، وهي كاتدرائية الشعب التي أقامها لمجد الله في قلب المملكة الروسية.

***

هذا ما فعله فلاديمير في القرن العاشر. على أن تنصير روسيا لم يتم إلا في عهد ولده ياروسلاف (١٠١٧– ١٠٥٤م) ويقول عنه التاريخ إنه أحب رجال الدين وأكرمهم، وخاصة الرهبان، وشغف بالدرس والبحث والإطلاع وجمع حوله نخبة من العلماء قاموا بترجمة الكتب الدينية من اللغة اليونانية إلى الصقلبية وإعداد كتب كثيرة لتعليم الأحداث مبادئ الدين. وبنى كنائس كثيرة واختار رجال الدين بنفسه من المشهود لهم بحسن السيرة وصفاء الذهن وواسع العلم. وفي عهده ازدهرت المسيحية في طول البلاد وعرضها وبلغت شأوًا رفيعًا.

القرن الحادي عشر

عهد الظلام في أوروبا

مات شارلمان العظيم، الجندي والمصلح الديني الكبير في أوائل القرن الثامن، فيعقب موته قرنان غرقت فيهما أوروبا في أظلم عصورها وأرهبها؛ فالإمبراطورية الغربية التي أنشأها على غرار الإمبراطورية الرومانية تداعت أركانها وتزاحم على السلطان ملك الفرنجة وإمبراطور ألمانيا (الذي دعا نفسه خليفة شارلمان) والنبلاء الذين خلقهم شارلمان حول عرشه ليكونوا له صونًا وحمى. وقد استقل كل النبلاء بما اقتطعه لنفسه من رقعة في أوروبا وقضى حياته يشن الحرب على جيرانه، وأحيطت قلاعهم الحجرية الهائلة بأراض واسعة يسخر فيها الفلاحون كما لو كانوا عبيدًا أرقاء، وكان لكل نبيل أنصار من تحته يتلقون الأمر منه ولهؤلاء الأنصار أتباع أقل منهم شأنًا يسكنون في رقاع أصغر ويحوزون قطعًا من الأرض أقل من سادتهم الذين كانوا يؤدون لهم الطاعة والنبلاء يصطنعون الحرب اصطناعًا في شكل مباريات يقتتل فيها الشجعان والأبطال وقد امتلأ تاريخ هذه الفترة بأقاصيص رهيبة تروي حوادث القتل والتعذيب، ولم يكن ثمة صوت يحتج على هذه الفظائع غير صوت الكنيسة المسيحية في بعض الفترات المتقطعة.

ففي جنوب فرنسا مثلًا، حاولت المجالس الكنسية أن تحد من المعارك بين النبلاء وأتباعهم، فوضعت قانونًا اسمه (معاهدة الله) فرض على الناس أن يكفوا عن القتال في أيام الصوم وفي أربعة أيام من الأسبوع ويمتنعوا عن مهاجمة الأديرة ورجال الدين والحجاج والنساء ويتركوا العبيد المساكين الذين يرزحون تحت عبء العمل في الحقول والضياع في دعة وسلام. وكان عقاب من يخالف هذا القانون أن يحرم تناول الأسرار المقدسة ويمتنع المسيحيون عن زيارته في حالة المرض.

مات شارلمان سنة ٨١٤م وتابع ولده لويس التقي خطى أبيه في الإصلاح، ولكن

أعوزته تلك الشخصية الفذة، فثار عليه إخوته ونبلاؤه وأفسدوا عليه كل أغراضه وضاعت جهود شارلمان وكأنما كانت باطلة مزيفة أنوار الفجر التي أشرقت على أوروبا فترة من الزمن. فما كادت تظهر حتى أعقبتها أحلك أزمنة الظلمة في العصور الوسطى. ولم تكن المصيبة مقتصرة على تطاحن الأمراء والنبلاء في داخل الإمبراطورية، فإن الخوارج أغاروا على أطرافها من كل ناحي. ففي سنة ٨٤١م أغار الدنماركيون أهل الشمال- وكانوا باقين على وثنيتهم الأولى- فأحرقوا مدينة روان وكل الأديرة الواقعة على نهر السين في فرنسا. وفي سنة ٨٤٢م أغار العرب من الأندلس حتى بلغوا نهر الرون ونهبوا مدنه العامرة. وفي سنة ٨٤٣م، فتكت قبائل الشمال بأسقف باريس أمام مذبحه الأعلى، وفي سنة ٨٤٥م أحرقوا مدينة همبرج وفي سنة ٨٤٧م صعد العرب في نهر التيبر ونهبوا كنيسة القديس بطرس في رومية وحملوا معهم المذبح الأعلى وكل كنوز الكنيسة، وفي سنة ٨٨٤م كتب أحد مؤرخي اللاتين يقول: (ما انفك أهل الشمال يعذبون المسيحيين ويقتلونهم ويهدمون الكنائس والأسوار والمدن؛ ففي كل طريق تقع العين على أجساد الكهنة والنبلاء وعامة الشعب والنساء والأطفال، لم يخل طريق ولا مكان من أجساد الموتى).

وفي تلك السنة أغار المجر الوثنيون في شرق أوروبا على ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وأحرقوا المدن والأديرة وأدخلوا الرعب والفزع في قلوب الأهلين وظلوا قرابة خمسين عامًا لعنة أوروبا ومماردها المخيف. وفي كل هذه الأعاصير عانت الكنيسة ألوانًا من التعسف والإذلال وكانت الأديرة والكنائس أهدافًا للسلب والنهب.

الوثائق المزورة:

لم تلق الكنيسة سلاحها في هذا الصراع وتحدت أعداءها في الداخل والخارج. ولكنها لم تلجأ- مع الأسف- في هذا الدفاع إلى الأسلحة الروحية، بل عمدت إلى تزوير أسانيد ومراسيم تؤيد سلطانها المطلق. وذلك أن راهبًا من بلاد الغال أصدر في منتصف القرن التاسع مجموعة من القوانين والمراسيم عرفت في التاريخ باسم **Pseudo-isidore**

وتضمنت هذه المجموعة القوانين والمراسيم البابوية الصحيحة، ولكن دست فيها قوانين مزورة نسبت إلى باباوات العصور الأولى،وقبلها الناس كأنها وثائق صحيحة لا غش فيها، ولم يجرؤ أحد على إلقاء ظل من الشك عليها إلا في القرنين الخامس والسادس عشر، بينما الكنيسة في رومية تشبثت بها ولم تعدل عنها إلا في عهد الإصلاح في القرن السابع عشر.

وكان الغرض من دس هذه القوانين المزورة حماية سلطان الكنيسة وصيانة أملاكها وثروتها والحيلولة دون التدخل في شؤونها. فمن مقتضاها لم يكن يسمح لعلماني، ولو كان إمبراطورًا، أن يتدخل في أمر من أمور السلطة الروحية أو المجالس الكنسية أو محاكمة رجال الدين. وقد قضت أن تنتقل السلطة من الإمبراطور إلى البابا أو من ينوب عنه وحظرت على الإمبراطور أن يدعو المجالس الكنسية كما فعل شارلمان. وبينما حرمت الدولة التدخل في شؤون الكنيسة، فإن الكنيسة منحت لنفسها حق التدخل في شؤون الدولة، باعتبارها رقيبة أدبية على تصرفات السلطة الزمنية. ولحماية أشخاص الأساقفة أنكرت على أي علماني أو كاهن أصغر أن يكون شاهدًا في أي قضية ضد أحد الأساقفة وجعلت سلطة محاكمة رجال الدين مركزة في البابا دون سواه.

وكانت هذه المجموعة المزورة من أقوى العوامل لتدعيم السلطة البابوية في القرون الوسطى فيما بعد، وصانت نظم الكنيسة من التدهور، فلم تشارك الإمبراطورية مصيرها وقبضت البابوية على السلطتين الروحية والزمنية ردحًا من الزمن. وفي هذه الفترة تمكنت البابوية من إملاء إرادتها على الكنيسة في الغرب وعلى الملوك أنفسهم، وكذلك على الأساقفة ورؤساء الأديرة ومدت يدها إلى الشرق أيضًا، فتنازع بابا رومية مع فوتيوس بطريرك القسطنطينية، لأنه رفض الاعتراف بقرار رومية الذي قرر أن أغناطيوس– لافوتيوس– هو صاحب الكرسي الديني الشرعي. وقد تبادل الزعيمان الحرم وأدخلا في نزاعهما مسائل تتعلق بالعقدية وكان هذا الحادث بداية النزاع المكشوف بين عاهلي المسيحية اللاتينى واليوناني وراح البابا بعد ذلك يتهجم على عرش الإمبراطورية في القسطنطينية، حتى انتهى الأمر إلى الفصل التام بين الكنيستين في القرن الحادي عشر.

الكراسي البابوية في القرنين التاسع والعاشر:

دخلت البابوية على ميراث شارلمان الكبير وقبضت يديها على سلطة واسعة النطاق في الشؤون الروحية والزمنية، ولكن كان ذلك على حساب حياتها الروحية التي أخذت في الضمور والانحلال واعتلى كرسي البابوية في الفترة بين أواخر القرن التاسع ومنتصف للقرن الحادي عشر– أشخاص ممن لا خلاق لهم، إذا استثنينا الفترة القصيرة التي ظهر فيها واحد أو اثنان من خلفاء بطرس ممن نعوا تلك الحالة الروحية التي تدهور إليها زعماء الدين ونادوا بالإصلاح في غير طائل، فكانوا كواحات خضراء في وسط تيه من البيداء المقفرة، أو الفترة الأخرى التي نزل فيها أوتو ملك الجرمان على إيطاليا وانتزع السلطة من البابوات اللاتين ونصب على الكرسي الرسولي باباوات من الجرمان.

النزاع بين السلطتين:

قلنا إن البابوية اتخذت من هذه المجموعة المزورة لتدعيم سلطانها على الدين والدنيا، ولكن كان عليها قبل الظفر بهذا السلطان المطلق أن تدخل في منازعات طويلة مع إمبراطور الجرمان. كما سنرى فيما يلي:

بعد انحلال إمبراطورية شارلمان، كانت جرمانيا أول من أعاد شكل الدولة الجديدة في أوروبا وتمكن ملكها أوتو الأول من طرد الغزاة الهنغاريين وقهر قبائل الدنمارك الوثنية في الشمال. وفي سنة ٩٦٢م، توج أوتو الكبير إمبراطورًا بيد البابا واستقر تاج شارلمان على أمة وريث كان له من القوة ما جعله سيد أوروبا إلى حين. على أن الموقف السياسي الذي وجد فيه هذا السيد الجديد يختلف عن موقف سلفه شارلمان؛ وذلك لأن مملكته لم تشمل إلا جزءًا من فرنسا والأقاليم الواقعة على ضفاف نهري الألب والرين وبعض مناطق حوض الدانوب وإيطاليا، وكانت العقيدة السياسية في أوروبا في العصور الوسطى أن السلطة الإمبراطورية لن تكون كاملة إلا إذا خضع لها العالم أو على الأقل العالم الغربي، وهو ما لم يكن مكفولًا في حالة الإمبراطور الجرماني الذي لم تعترف بسلطانه البلاد الخارجة عن نطاق إمبراطوريته.

ثم إن النظام الإقطاعي طغى على دستور الدولة ولم يعد النبلاء والأمراء الذين كانوا من قبل سندًا للإمبراطور وعمالًا له، تلك القوة التي اعتزت بها الدولة، بل كانوا ملوكًا وحكامًا في إقطاعياتهم. وخشي الإمبراطور أوتو أن يغدو مجرد كبير أمراء لهؤلاء السادة المستقلين، ولذلك احتال على الأمر بوسيلتين:

أولاهما: قصر إعطاء ألقاب النبلاء على أفراد أسرته وجعل مواردهم وثرواتهم ملكًا للدولة، ولكن هذا الإجراء لم يصادف توفيقًا تامًا؛ لأن أخاه وولده ملكي بافاريا وسوابيا شقا عصا الطاعة عليه ولم يخضعا له. أما ثانيهما: فهي استعانته بالكنيسة وذلك بأن أغدق الهبات والعطايا على الأساقفة وأجزل لهم في الامتيازات العامة وخلع عليهم ألقاب الإمارة– كل هذا لكي تتحدى سلطة الأمراء الروحيين كبرياء الأمراء الزمنيين واحتفظ لنفسه بحق تعيين الأساقفة ورؤساء الأديرة، بأن يخلع عليهم عند تنصيبه حلة ووصولجانًا، وبهذه الوسيلة استطاع أن يعين من كانوا على ولاء له.

وحتى ممتلكات المؤسسات الروحية غدت ملكًا للدولة، فكل مكسب تنتزعه الكنيسة من الأمراء يعتبر في الواقع ربحًا للإمبراطورية، لذلك ظاهر الإمبراطور أمراء الكنسية على أمراء الإقطاعيات وخص الأولين بأوفر قسط من رعايته وتعضيده وبهذه الوسيلة توطدت أركان الإمبراطورية الجرمانية في العصور الوسطى واستمدت سلطانها من قوة الكنيسة وكانت الحلة الملكية التي تخلع على الأساقفة عند تنصيبهم شعار الولاء والتبعية للملك.

قامت الإمبراطورية الجرمانية على أساس عريض ولكنه لم يكن متينًا. أفلا يهتز وينهار يوم تنهض الكنيسة– بحكم نزعتها الروحية– للتحرر من سلطان الدولة؟.

دبيب الحياة بعد النكسة:

قلنا فيما مضى إن البابوية بعد موت شارلمان أخذت في سبيل تدعيم سلطانها بالقوانين المزورة، في الضمور والانهيار الروحي ولم تفز بالسلطان المطلق إلا في مناسبات منفردة وظهرت من جديد فكرة الكنائس القومية المستقلة في ألمانيا وفرنسا وإنجلترا. وهنا تدخلت

سلطة الإمبراطور لصيانة الكنيسة من الانقسام والانحلال. وقد سادت العصور الوسطى فكرة قوامها أن الإمبراطور يمتاز بفضائل روحية خاصة وكانت المجامع الألمانية الكنسية التي ترأسها في القرنين العاشر والحادي عشر ممثلة للكنيسة كلها، وكان الإمبراطور– بحكم مركزه كرأس العالم الغربي– مضطرًا أن يرفع من شأن البابا كزعيم المسيحية.

على أن كرسي البابوية في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر قد احتله، كما قدمنا، أناس جلبوا السبة والعار على العرش البابوي، فكان فرضًا على إمبراطور الجرمان أوتو الكبير وولده وحفيده أن يتدخلوا المرة تلو الأخرى لإنقاذ البابوية من الارستقراطية اللاتينية التي عبثت بها وحاول الإمبراطور عند كل تنصيب جديد أن يستخدم نفوذه لإدخال حياة جديدة في البابوية ولكن ذهبت ضياعًا كل جهوده. ففي منتصف القرن الحادي عشر، كان الأمراء في رومية يتنازعون على البابوية كأنها ميراث الأسرة؛ ففي سنة ١٠٣٣م وضع على الكرسي البابوي بندكت التاسع وهو صبي في الثانية عشرة من عمره، فلطخ الكرسي بكل صنوف الرذيلة وقامت ضده ثورة عامة اضطرته إلى الهرب من رومية سنة ١٠٤٤م ليحل محله منافسه سلفستر الثالث. ولما عاد بندكت التاسع إلى رومية على رأس قوة مسلحة باع البابوية إلى جريجوريوس السادس دون أن يتنازل عن السلطة البابوية. والآن بلغت الفضائح منتهاها، فاضطر الإمبراطور الجرماني هنري الثالث– خليفة أوتو الكبير– أن يتدخل وبإيعازه وقوة نفوذه قرر المجلس الكنسي العام في سنة ١٠٤٦م عزل البابوين المتنافسين وانتخب الإمبراطور أسقفًا جرمانيًّا ليتولى منصب البابوية تحت اسم كليمندس الثاني ووضع هذا الأخير التاج الإمبراطوري على هامة هنري الثالث وخلع عليه رتبة وامتياز الإمارة الرومانية ومنحه حق تعيين البابا الروماني.

من ثم غدا تعيين الباباوات من حق جرمانيا، لا من حق رومية، وأظهر الإمبراطور سلطته في تعيين ثلاثة باباوات على التعاقب، فنظرت إليه الكنيسة– نظرتها إلى شارلمان الكبير– حاميها ورئيسها الأعلى، ما دام من حقه أن يعين أكبر رأس فيها ليكون خاضعًا له.

على أن السلطة الروحية الكامنة في الكنيسة لم تقبل هذا الوضع طويلا. وإن قبلت

حماية الإمبراطور ورعايته، فذلك بحكم الضرورة فقط، ولم يكن الحل ملائمًا موفقًا؛ لأن الإمبراطور مستطيع أن يحمي الكنيسة ما دامت ذراعه قوية، وكان إذا تراخى وانشغل في أمور أخرى، تقع البابوية فريسة بين أيدي أمراء رومية الطامعين. فلم يكن بد من إصلاح روحي وتركيز السلطة الروحية في أيدي أصحابها الشرعيين وصيانة الكنيسة والبابوية من طغيان السلطات المادية الزمنية. فهل دقت الساعة لمثل هذا الإصلاح؟

رهبانية كلوني:

أجل، ينبثق نور الإصلاح من خلايا الأديرة وأخذ هذا النور في موجات متلاحقة ليغمر أوروبا كلها، فيجدد البابوية والإمبراطورية معًا، وإليك بيان هذا:

كانت العلوم في القرنين العاشر والحادي عشر قد اصطبغت بالثقافة اللاتينية وغلب على هذه الفترة الفن الروماني في بناء الكنائس والقصور الملكية وسادت الثقافة الرومانية في التفكير والحياة. فكان فرجيل أكرم الشعراء وأرفعهم مكانة في ذلك العصر وكانت اللاتينية لغة رجال الدين والطبقات الراقية عامة ونقلت كثير من الأناشيد والأغاني شعرًا لاتينيًا.

وكما غصت قصور الملوك والأمراء بمظاهر الثقافة اللاتينية، كذلك غصت بها الأديرة التي كانت بمثابة الجامعات في ذلك العصر ومواطن الثقافة الأوربية. فبين جدرانها بقيت الحياة العقلية نابضة في صدور العلماء الرهبان والأساتذة المعتزلين الذين لم يبعد عن مدى تفكيرهم فن ولا علم ولا دين ولا سياسة، وحذقوا كل فن من فنون الحياة الفكرية من غناء وموسيقى وأدب وشعر وتصوير. كانت الأديرة في ذلك العصر مركز القوة العقلية في أوروبا.

ولكن هل كان غرض الرهبانية التسلط على العلام عقليًا، والتمتع بكل أطايب الحياة ومشاطرة الأمة الترف العقلي؟ ألم يكن مثلها الأعلى اعتزال العالم ونبذ مظاهر الترف واحتقار كل الأشياء، لأن أشياء العالم كلها ممتزجة بالشر والخطية والفساد؟

كان الغرض الأصلي من الرهبانية إفناء الذات وقمع كل الميول الشريرة والرغبات

الأرضية وهدم كل المواهب والقوى التي تتعلق بالإنسان. ولكن رهبان الأديرة البندكتية في فرنسا وألمانيا حادوا عن هذا المثل الأعلى، فتسرب إلى الأديرة، لا الشعور فقط بكل نبيل عظيم في ذلك العصر، بل أيضًا الإحساسات العالمية الوضعية الدنيئة وتدهورت أخلاق الطلاب في الأديرة، بل كان رؤساء الأديرة أنفسهم، في بعض الأحيان، من المذنبين. وكلما قويت في الدير الروح القومية وشاعت في خباياه حياة الثقافة العامة، اختفت مظاهر الرهبانية القديمة التي قامت على الصرامة وتعذيب النفس وبدت عوضًا عنها أنماط من الحياة الإباحية المنهمكة في اللذات وبطلت قاعدة الاعتزال والخلوة مع الله وانقلبت مواطن التقشف مراتع للترف ورفاهة العيش.

كانت تلك الأشياء معاول قوية أصابت حياة الأديرة في الصميم، فطغت مطالب الثقافة على مقتضيات الزهد والتقشف وأضاعت الرهبانية لذتها الروحية الأولى ونكهتها التي تعطرت بها النفوس التقية المتعبدة. وكان حتمًا أن تذوى رهبانية كهذه امتزجت بثقافة الرومان وتفكير فرجيل. والفضل في هذا الانقلاب راجع إلى دير (كلوني) الذي قام على تربة فرنسا متحديًا الرهبانية التي حادت عن مبادئها القويمة.

إصلاح الأديرة والكنيسة:

كان السبق في هذا الجهاد لرئيس الدير (أودو) (٩٢٧- ٩٤١) الذي جدد عهد الرهبنة البندكتية وأدخل قواعد الحياة الصارمة لقمع الميول العالمية الجسدية. وكان أودو ابن أحد النبلاء الأتقياء. وفي بدء حياته، هجر العالم واعتزل في أحد الأديرة بفرنسا ونال لقبًا دينيًا ساميًا، ولكن حياة الدير لم ترقه ولم يعجبه مسلك زملائه الذين كانوا يرتدون الثياب الملونة الزاهية ويزجلون عبادة نصف الليل حتى انبثاق نور الفجر خشية أن يعلق الوحل في ظلام الليل بأحذيتهم المصقولة. فاعتزل الحياة وحده في خابية مجاورة للدير واتخذ من الأرض الصلبة فراشًا له وتوسد الثرى واقتات بالخبز الجاف وقليل من البقول، وفي خابيته انضم إليه صديق جندي ليشاطره هذه الحياة.

وراح أودو وزميله يزوران الأديرة المختلفة؛ رغبة في الانضمام إلى دير يرتاحان له،

وكان ملك فرنسا قد أنشأ في كلوني على الحدود الفرنسية ديرًا جديدًا نزولًا على إلحاح أحد المصلحين واستقر الرأي على أن يكون أودو رئيسًا له سنة ٩٢٧م، وصار دير كلوني مركزًا للإصلاح والتجديد وأشهر الأديرة في العالم المسيحي، امتدت روحه الإصلاحية إلى أوروبا كلها ونسجت على منواله أديرة كثيرة في فرنسا وإيطاليا وألمانيا وإنجلترا، فكان يطلب الملوك والنبلاء والأساقفة إلى رؤساء هذا الدير أن يبعثوا رهبانهم للإشراف على المؤسسات الدينية الجديدة وإحياء الأديرة التي أدركها الاضمحلال والفناء.

ومن المبادئ الجديدة التي أدخلها رؤساء هذا الدير على نظم الرهبنة، مراعاة فترات للصمت الخاشع في أوقات معينة؛ للتسلط على النفس وإيقاظ الحياة الداخلية الروحية. وقد أحيا رهبان كلوني الفكرة الرهبانية القديمة القائمة على إنكار الذات وإذلال الجسد التي اقتبستها رهبانية الغرب عن رهبان الشرق، ولكنها حادت عنها وغرقت في ماديات الحياة وترف الثقافة، ولم يلبث أن صار الرهبان بأجسادهم المرهقة وعيونهم البراقة ووجوههم الشاحبة، القديسين المكرمين بين الشعب، لأن فيهم قد صار من جديد المثل المسيحي الأعلى كما فهمته العصور الوسطى وفيهم رأى الفلاح، الغارق في الشهوانية الخشنة، روح المسيحية التي تغلب العالم وتذله تحت أقدامها.

وأصبح دير (كلوني) بمثابة الأم لأديرة كثيرة انضمت إليه وقبلت إشراف رئيسه وزعامته ووضع دستور جديد للأديرة، فلم يعد كل منها مستقلًا في شؤونه حسب هوى رئيسه وميوله وغدا رئيس دير (كلوني) المشرف الأعظم والرئيس الأكبر والقائد في نظام الرهبانية وامتد سلطان هذا الدير إلى الغرب كله، فرحب بهذه الحركة الإصلاحية إمبراطورة الجرمان ومدوا يد المعونة في قلب نظام الرهبانية القديم وتوطيد هذا النظام الجديد حتى في أديرة ألمانيا.

ومن هذه الرهبانية المصلحة المجددة، أنسابت القوة التي خلقت حياة داخلية جديدة في الكنيسة، تمكنت بها من استمالة أكثرية الشعب إلى مبادئها وأنقذت نفسها من قبضة السلطة الزمنية عليها وولدت عصر الحكم الكهنوتي الذي علا شأنه في القرون الوسطى.

فمن خلايا الدير نهض عالم القرون الوسطى. ومن الخلايا عينها نبتت جراثيم الفساد التي قضت عليها في عهد الإصلاح كما سيأتي فيما بعد.

وقد تقرر مصير المستقبل يوم ظاهر إمبراطور الجرمان هنري الثالث حركة كلوني الإصلاحية وأسندها بكل قوته ونفوذه. وبعدئذ يوم تسنمت رهبانية كلوني عرش البابوية– في شخص جريجوريوس السابع وهو الراهب هلدر براند.

***

ولم تكن المبادئ التي احتضنها دير (كلوني) مقتصرة على إصلاح الأديرة، بل قد شملت أيضًا الكنيسة والهيئات الدينية الأخرى. وقد كان الغرض الأساسى منها إنقاذ الكنيسة من بين براثن العالم. ولتحقيق هذا الغرض شق الإصلاح طريقه في اتجاهين:

أولهما أن تنبذ الكنيسة العالم، وبعباة أخرى أن تبرأ من إيراداتها وثرواتها وكراماتها ورئاستها وامتيازاتها وأمجادها، وعن طريق نبذها على سلطة زمنية تستطيع بحق وعدل أن تخلع عنها كل نفوذ زمنى قد يحاول الطغيان عليها. وقد كان هذا الاتجاه النتيجة المنطقية لمبادئ دير (كلونى) الذي نذر أتباعه الفقر والعزوبة. وقد رام المصلحون أن تتشبه الكنيسة بالدير في الافتداء بفقر المسيح وعزوبته، وأصروا على أن ينبذ رجال الدين كل مقتنياتهم، وأن يمتنعوا عن الزواج إطلاقاً، وأن تبطل المتاجرة بالوظائف الكهنوتية التي كانت تباع وتشرى كسلع في الأسواق.

وأما الاتجاه الثاني الذي سارت فيه موجة الإصلاح فهو فرض سيادة الكنيسة على العالم. وقد قالوا أن الكنيسة تستطيع أن تتحرر من العالم بإخضاع العالم لسلطانها وسيادتها. وقد كان المألوف في ذلك الزمن أن تشرف السلطة الزمنية على تعيين الأساقفة ورؤساء الأديرة، وكان من حق الإمبراطور أن يخلع على الأسقف حلة ثيابه الكهنوتية، وأن يقدم له الصولجان أى عصا الأسقفية. ولكى تتحرر الكنيسة من هذه السلطة المفروضة عليها، جاهدت طويلاً ودخلت في منازعات مدى قرون مع صاحب السلطة الزمنية في خلال القرون الوسطى. وقد أصرت الكنيسة في سبيل توطيد سيادتها وسلطانها على

الاحتفاظ بمقتنياتها العالمية وثروتها المادية ورفضت كل سلطان للدولة عليها. وطالبت الكنيسة أن تأخذ العالم في حضنها وأن تضمه إلى صدرها، وأن تكون دولة روحية زمنية تملك بين يديها ما لله وما لقيصر معاً. ومن ثم نرى اتجاهين متضادين، أحدهما يسير إلى الفقر والعزوبة بزعامة الكهنة المترهبين في الأديرة، والآخر يسير إلى بسط السيادة والسلطان بزعامة الأساقفة أو الكهنة العالميين، إذا جاز لنا هذا التعبير.

وقد أخذ سير التاريخ في القرون الباقية من القرون الوسطى يتأرجح فيميل تارة إلى هذا الاتجاه وأخرى إلى ذاك. وأحياناً تمتزج الفكرتان ويسير التياران متحاذيين. على أن زعيماً دينياً قوياً كان له من القوة وبعد الأثر في هذا الصراع ما يحمل المؤرخ على أن يجعله بطل المسيحية في هذا القرن، ونعني به البابا جريجوريوس السابع.

هلدربراند أو جريجوريوس السابع:

والواقع أن أوروبا الغربية لم تعترف منذ القرن الرابع بسلطان مطلق عليها أو حكم الفرد فيها، ولكن البابوية في عهد هلدر براند– أو البابا جريجوريوس السابع– يشتد بأسها ويقوى سلطانها من منتصف القرن الحادي عشر، فتقبض بين يديها على السلطتين الروحية والزمنية حتى القرن السادس عشر، إلا في فترات متقطعة تمكنت فيها السلطة الزمنية من خلع هذا النير وشق عصا الطاعة على الكرسي البابوي.

وفي هذا يقول أحد المؤرخين: (إن من يفكر في أصل السلطان الكنسي الهائل، يرى أن البابوية ليست إلا شبح الإمبراطورية الرومانية، متوجة فوق رأسها، وكان البابوات في إدعائهم السيادتين الزمنية والروحية خلفاء لإمبراطورة الرومان. وقد أفلح هؤلاء من عهد جريجوريوس السابع إلى عهد بونيفاس الثامن في القبض على زمام السلطتين. وكانت البابوية في هذه الفترة حكومة ثيوقراطية دينية رأسها البابا نفسه. ولا عجب أن يزعم البابوات أن العالم لن يستقيم له حال إلا تحت سيادتهم، إذا نحن فكرنا في فشل الحكومات الزمنية وتقصيرها في تدعيم النظام والعدل وفي تحدى الملوك لأحكام الآداب وقواعد اللياقة والسلوك البشري. وكان طبيعيًّا أن تكون البابوية في ذلك العصر حكومة

عليا تسيطر على العلاقات الدولية وتمنع الحروب واستغلال الدول الضعيفة واجتياحها وتتدخل في شؤون الشعوب الداخلية، لتمنع المظالم والفساد وتنزل من فوق العروش عند الضرورة الحكام الفاسدين غلاظ القلوب).

كان الغرض شريفًا لا غبار عليه، فإنه بعد قرون من هذه المحاولة أنشأت عصبة الأمم لتحقيق بعض الأغراض التي قصدت إليها السلطة الدينية العليا. ولما خابت الآمال في عصبة الأمم وغرقت أوروبا مرة أخرى في حرب ١٩٤٠م، فكرت الدول الديموقراطية في إنشاء هذه السلطة القوية للإشراف على مصائر الشعوب وردع المعتدين عن الظلم والطغيان. ولعل التاريخ لا ينحى الآن باللائمة على البابوية التي غالبها هذا الشعور ورامت بسط سيادتها في القرن الحادي عشر لتحقيق بعض الأغراض النبيلة، ونقطة الضعف في هذه المحاولات أن تركيز السلطتين الروحية والزمنية في يد واحدة، وقرن الدين بالدنيا والروح بالمادة والسيف بالإنجيل، فكرة لم تؤت ثمارها في أي فترة من فترات التاريخ.

أما واضع أساس السلطة الثيوقراطية الدينية في أوروبا، فهو الراهب هلدر براند– البابا جريجوريوس السابع– ولد حوالي سنة ١٠٢٠م ويقال إن أباه كان من رعاة الماعز في ولاية توسكانا الإيطالية وتربى في دير على نمط كلوني في رومية، فخبر وهو في الدير شيئًا من عيوب البابوية وانحلالها بسبب تغلغل العلمانيين في الشؤون الروحية لجر المغانم الشخصية. وسمع في أيام شبابه نبأ بندكت التاسع الذي اعتلى عرش البابوية وهو في الثانية عشرة من عمره بفضل تدخل الأمراء والنبلاء وإفسادهم وأحس أن تدخل الإمبراطور لخلع بابا وتنصيب آخر علاج أسوأ من الداء نفسه. ولعله رضي عن البابوات الجرمان المصلحين، ولكن جنسيتهم الغريبة لم تألفها نفسه الإيطالية القحة، وشعر أن تطفل العلمانيين لتنصيب الأشخاص في الوظائف الروحية مما لا ينسجم وطبائع الأشياء، فإنه إذا جاز لملك صالح أن ينصب رئيسًا دينيًّا صالحًا، فإنه يجوز لملك شرير أن ينصب رئيسًا دينيًّا شريرًا.

وكان (هلدر براند) القوة العاملة وراء العرش البابوي خلال الفترة التي تولى السلطة فيها البابوات المصلحون (١٠٤٦– ١٠٧٣م). وفي عام ١٠٧٣م انتخب للتربع على عرش البابوية وكان قبل كل شيء مصلحًا دينيًّا، فلم يسع إلى السلطة إلا كوسيلة لبلوغ هذه الغاية. والجدير بالذكر أنه أطلق يد وليام الأول في إنجلترا، مع أن الإنكليز أبوا الاعتراف بنظريته في بسط السلطان البابوي على السلطتين الزمنية والروحية. ولكنه عامل فيليب الأول ملك فرنسا وهنري الرابع إمبراطور جرمانيا معاملة تختلف عن معاملته ملك الإنكليز، لأنه عزا فساد رجال الدين إلى النفوذ العالمي الذي بسطه عليهم الملوك الأشرار والنبلاء الطامعون. وبعد أن قضى البابا جريجوريوس اثنتى عشرة سنة في صراع مستمر مع الإمبراطور، مات منفيًّا شريدًا، ولكن بعد أن ثبت دعائم السلطة البابوية التي ظلت خافقة مسيطرة على الملوك والأمراء والأساقفة نيفا ومائتي سنة. وبدأ النزاع العنيف بين القوتين بعد اعتلائه الكرسي البابوي مباشرة وظل قائمًا مدى حياته. وفي مدة حكمه برزت ظواهر خاصة للسياسة التي انتهجها هو وخلفاؤه لتوطيد العرش البابوي وبسط سلطانه المطلق على أوروبا.

وعند انتخابه كانت المتاجرة بالوظائف الكهنوتية لوثة كريهة تصم جبين الكنيسة وكانت وظائف الأساقفة تحت إمرة الإمبراطور يعين فيها من يشاء كأنها مبايعة منه، فشن جريجوريوس حملة شعواء وحرم الأساقفة ورجال الدين الذين يلتمسون وظائفهم من رجل علماني وتحدى الإمبراطور علانية منكرًا عليه هذا السلطان، مهددًا إياه بالعقاب إذا هو تدخل فيما لا يعنيه ولم يفض النزاع في هذه المشكلة وظل محتدمًا إلى ما بعد عهد جريجوريوس، حتى تم التوفيق بين السلطتين بالصلح المعروفة في التاريخ (بمعاهدة ورمس). وبعد أن كان الإمبراطور يبايع الأسقف ويخلع عليه الحلة الكهنوتية ويسلمه عصا الأسقفية، رضي أن يكون التعيين بالانتخاب الحر في حضرة الإمبراطور على أن يفرض على الأساقفة الجرمان لمس الصولجان الملكي بعد انتخابهم عربونًا على تمتعهم بالامتيازات الزمنية من قبل الإمبراطور.

ومن المشاكل التي أغرق فيها جريجوريوس نفسه، عدم زواج الكهنة. وقد نظر

جريجوريوس إلى زواج القساوسة كفضيحة لا تغتفر، ضجت منها الأرض والسماء. وكانت عزوبة القساوسة– بالصدفة– شرطًا لا مفر منه لتوطيد السيادة البابوية، وذلك لأن القساوسة المتزوجين وأسرهم يكونون عادة تحت رحمة الأمراء العالميين. وفضلًا عن ذلك فقد كانت أغلب الوظائف في ذلك العصر وراثية، فإذا صارت وظيفة الكهنوت وراثية، فكأنها أسست عالمية بحتة. وكان الباباوات الجرمان المصلحون منعوا زواج القساوسة من قبل وحسبوه عارًا يجب محوه، ولكن جريجوريوس السابع بجرأته المعهودة أصدر أمراً صريحاً في مجمع رومية (١٠٧٥م) حرم به زواج القسوس تحريماً باتاً، وأبطل المتاجرة بالوظائف الكهنوتية. وقد قاوم القسوس هذا الأمر مؤثرين زوجاتهم على رتبهم الكهنوتية وعمد كثيرون منهم إلى الزواج خفية إرضاء لصاحب الأمر ظاهرًا فقط.

لم يكتف البابا بكل هذا، بل ذهب شوطًا بعيدًا في احتياز سلطة لم يحلم بها أحد من أسلافه، بأن ادعى لنفسه حق عزل الملوك والحكام. ومارس هذه السلطة فعلًا، فأصدر في فصل الصوم من سنة ١٠٧٦م حكمه المشهور في التاريخ على إمبراطور الجرمان الذي نصه: (بالنيابة عن الله القادر على كل شيء– الأب والابن والروح القدس– وبما لي من السلطة المخولة من الرسول بطرس آمر بحرمان الملك هنري من الحكم في ألمانيا وإيطاليا. وأحل جميع الذين أقسموا يمين الولاء والطاعة له وأمرهم أن يعصوه كملك عليهم). وقد ادعى البابا لنفسه هذا الحق كخليفة الرسول بطرس وزعم أنه إذا جاز لخليفة بطرس أن يصدر أحكامه في الشؤون الروحية، فبالأولى جدًا في الشؤون الزمنية.

واستخدم جريجوريوس القوة لبلوغ أغراضه الروحية، فلما رأى حوادث السرقة مع الإكراه شائعة في رومية حتى في المقابر، جند جيشًا مسلحًا للقضاء على هذه الفضائح وقاد المليشيا الرومانية بنفسه كقائد حربي. وقيل إنه جند هذه القوة المسلحة، لا للزهو الفارغ فقط، بل لتدعيم الكنيسة الرومانية التي لاقت كثيرًا من العنف على أيدي النورمان من القبائل الشمالية، على أنه لم يميز بين القوة اللازمة لحفظ النظام والأغراض الزمنية وبين القوة اللازمة للغرض الروحي في استمالة الناس إلى المسيحية.

ولم يتورع في صراعه مع الإمبراطور عن استجداء معونة أمراء ألمانيا والتواطؤ معهم على خلع هنري الرابع، كذلك أعان وليام الأول على غزو إنجلترا وسلمه العلم بعد (تكريسه)، وكان أول البابوات الذين حثوا أوروبا على الحروب الصليبية وحمل العالم المسيحي على امتشاق السلاح ضد المسلمين في الشرق، واقترح أن يتولى القيادة بنفسه مع أميرة توسكانيا الإيطالية وابنتها. على أن مسلكه هذا حمل بعض أخيار المسيحيين على الاحتجاج عليه والجهر في وجهه بالقول: (لم يكن داوود الملك أهلًا لأن يبني هيكل الله لأن يديه تلطختا بالدماء، فكيف يحق للكاهن الأعلى أن يدخل إلى قدس الأقداس إذا لطخت ثيابه قطرة واحدة من الدماء؟).

وادعى البابا الحكم المطلق على إيطاليا وأسبانيا وهنغاريا وبوهيميا وروسيا وكرواتيا وإنجلترا، ولكن وليام ملك إنجلترا أنكر عليه هذا الحق. وكان صراعه مع الإمبراطور الجرماني– هنري الرابع– صراعًا أدبيًا في الواقع؛ لأن الإمبراطور كان في نظر البابا شابًا طائشًا سائب الأخلاق، خاضعًا لطائفة من الأشرار الذين استخدموه كأداة ذليلة لمقاومة الإصلاح في الكنيسة. وفي عام ١٠٧٥م حرم البابا خمسة من هؤلاء المشيرين، وكان الإمبراطور قد باع الأبنية الكنسية طوعًا لمشورتهم، وبعد ذلك عنف الإمبراطور على مخالطتهم ومراقصتهم بعد حرمهم وعلى وقوفه حجر عثرة في سبيل كل إصلاح منشود.

وبين أحداث هذا الصراع المتبادل بين البابا والإمبراطور، يروي التاريخ حادثة روائية فذة طبعت أثرها في ذكريات السلالة البشرية. وكان مشهد ذلك الحادث في قلعة (كاروسا) في يناير سنة ١٠٧٧م حين وقف الإمبراطور هنري ثلاثة أيام متوالية من الفجر حتى المساء وهو حافي القدمين على الصقيع، مرتديًا ثوبًا أبيض علامة الندم والاستغفار في فناء القلعة، يلتمس إذنًا بالدخول إلى حضرة البابا. ولم يؤذن له بذلك إلا في اليوم الثالث بعد أن تهرأت قدماه من البرد والثلج وبعد أن شفعت له أميرة توسكانيا ورئيس دير كلوني.

وبعد وفاق (كاروسا) لم يدم الصلح بين العاهلين طويلًا، فتجدد حرم الإمبراطور

وعين البابا ملكًا بدله على العرش. ولكن الإمبراطور تذرع بالشجاعة والجرأة وقتل منافسه الذي عينه البابا، وكان النورمان الشماليون مشغولين بحملاتهم في شرق أوروبا، فأقدم الإمبراطور الجرماني على تنصيب بابا آخر وضع التاج على رأس عاهل جرماني في رومية وحاصر البابا جريجوريوس في قلعة سنت انجيلو، ولكنه استنجد بالنورمان الذين هبوا إلى معونته وطردوا الجيوش الإمبراطورية وأنقذوا البابا وأحرقوا ونهبوا جزءًا كبيرًا من رومية (١٠٨٤م).

وقد أدى استنجاد البابا بهؤلاء المخربين الغزاة إلى غضب الشعب عليه، ففر من المدينة المخربة إلى منفى بعيد في فرنسا حيث قضى نحبه في السنة التالية، وعلى شفتيه هذه العبارة: (أحببت العدل وأبغضت الإثم، لذلك أموت في المنفى). ولئن كان هذا البابا فشل في الظاهر، فإنه فاز بنصر مبين ووضع أسس الملكية البابوية في القرون الوسطى التي بنى عليها خلفاؤه ذلك الملك الديني الذي ظل قرونًا متحكمًا في مصائر أوروبا وشعوبها.

القرن الثاني عشر

الحروب الصليبية

رأينا كيف اعتلت الكنيسة عرش السلطان في عهد البابا جريجوريوس السابع واحتضنت في نهضتها كل ثقافة القرون الوسطى. وكان من آثار هذه النهضة أن هفت القلوب إلى أورشليم السماوية، فوجدت لها متنفسًا في الحنين إلى أورشليم الأرضية. وفي أواخر القرن الحادي عشر، تصاعدت الزفرات الحارة من أفئدة الحجاج العائدين من زيارة بيت المقدس من جراء سوء المعاملة التي عاناها هؤلاء على أيدي المسلمين الذين ملكوا الشرق كله وأخضعوا المدينة المقدسة لسلطانهم. فاستيقظ الغرب المسيحي وجرت في عروق أبطاله دماء الحماس والشهامة والفروسية. وكان البابا أوروبان الثاني الذي أوقد النار في النفوس، فبدأت الحملات الصليبية وكانت أروع المغامرات التي شهدتها القرون الوسطى. وظلت فكرة إنقاذ القبر المقدس مدى قرنين الحلم الذهبي الذي حلم به الغرب المسيحي، ملوكه وأمراؤه ورهبانه. وفي هذا السبي رحلت زهرة شباب أوروبا إلى الأرض المقدسة التي أشرقت منها شمس المشرق وأنوار التاريخ المسيحي.

وكان العرب بعد فتح بيت المقدس سنة ٦٣٨م، قد سلكوا سبيل التسامح الديني وقدموا التسهيلات المعقولة لحجاج الأرض المقدسة، ولكن في عام ١٠٧١م أغار الأتراك السلجوقيون على آسيا الصغرى وهددوا كيان الإمبراطورية الشرقية. ولجأوا إلى كل أسباب الوحشية الرهيبة وأساءوا معاملة الحجاج الذين غصت بهم المدينة المقدسة. وحاول البابا جريجوريوس السابع توحيد كلمة أوروبا لمحاربة الأتراك، ولكنه لم يوفق في هذا، وتمادى الغزاة في قسوتهم، فثارت أوروبا كلها وتزعم البابا هذه الحركة الدينية وغذاها بسلطانه الروحي وسلطته الزمنية. وكما وعد النبي العربي أنصاره الذين يستشهدون في الجهاد بجنات تجري من تحتها الأنهار، كذلك أذاع البابا المسيحي أن الذين يقضون شهداء

يكون جزاؤهم فردوس النعيم.

وتكتسح أوروبا موجة من الحماس الديني لم تألفها الكنيسة من قبل، فالفلاح هجر مزرعته والنديم موائد أنسه وشرابه والراهب صومعته، والملك عرشه ورحلت أسر بجملتها ومدن بكامل أهليها– كلهم جياع عطاش إلى أورشليم، حتى غصت بهم الطرقات وضاقت عليهم المسالك. وغير هذه الجموع الحاشدة في مواكب متلاحقة، جندت الجيوش تحت إمرة قواد حذقوا فنون الحرب والقتال واستولوا على بيت المقدس سنة ١٠٩٩م وشيدوا هناك مملكة لاتينية. وإذا قدرنا تقلبات الطقس التي تعرض لها المهاجرون المجاهدون والأجناس المختلفة التي تألفت منها هذه المواكب والمسافات الهائلة التي قطعها الصليبيون والقيادة المتعددة التي خضعوا لها، ونوع العراك الذي انغمسوا فيه– قلنا إن صنيع المهاجرين الأنصار في الحرب الصليبية الأولى كان من أروع المغامرات التي ظفرت فيها الروح البشرية الباسلة بنصر عظيم.

وقامت الحملة الصليبية الثانية سنة ١١٤٤م بسبب الصعاب التي عاناها القوم في مملكة أورشليم، وكان مثير عجاجها الراهب القديس برنارد. على أنها لم تفز إلا بنصيب قليل من النجاح.

ملوك أوروبا:

أما الحملة الصليبية الثالثة فهي حملة الفروسية الرائعة والخيال القصصي البديع، ولقد صور مشاهدها ببراعته الجبارة الكاتب الإنكليزي (ولترسكوت)، ذلك لأن ثلاثة من أصحاب التيجان قاموا فيها بنصيب، هم: ريتشارد قلب الأسد، وفيليب أغسطوس ملك فرنسا، والإمبراطور الألماني فردريك بارباروسا. وكان صلاح الدين الأيوبي، الفارس المغوار، بطل الشرق في الجانب الآخر. وقد استرد بيت المقدس سنة ١١٨٧م ولم يقو الصليبيون على انتزاعها من بين يديه، على الرغم من الجهود الباسلة التي بذلها (قلب الأسد). وفشلت الحملة بسبب المشاحنات والمنازعات التي ثارت بين الصليبيين

أنفسهم. وكان الحماس الديني الذي استثار القوم في الحملة الأولى قد تبخر هباء، وأصبح الصليبيون جنودًا مغامرين، بعد أن كانوا حجيجًا تهفو قلوبهم إلى الأرض المقدسة.

وقامت الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤م وقد انتهت بالاستيلاء على القسطنطينية وإقامة مملكة لاتينية على عرش قياصرة الشرق. وفي سنة ١٢٢٧ انطلق فردريك الثاني إلى فلسطين واستولى على بيت المقدس بمعاهدة تعهد فيها بإبقاء مسجد عمر بأيدي المسلمين، على أن يكون لهم الحرية التامة في الدخول إلى المدينة. وآخر حملة قام بها القديس لويس التاسع الفرنسي سنة ١٢٤٨م وقد حاول في غير جدوى أن يغزو فلسطين من مصر متخذًا مدينة دمياط قاعدة له. وإذا كان ريتشارد هو بطل الحملات الصليبية، فإن لويس كان قديسها، ولقد كان بحق أنضر زهرة في الفروسية المسيحية.

وقد فشلت الحملات الصليبية لأسباب سياسية وحربية لا مجال للتبسط فيها الآن، على أنها خلفت وراءها آثارًا انطبعت في تاريخ الغرب المسيحي في القرون اللاحقة. ومن هذه الآثار؛ أنها صبغت الروح المسيحية بصبغة القسوة وجعلت القوم يلجأون إلى استخدام العنف والقتل لبلوغ أهداف دينية وإلى الخلط بين الميادين الروحية والميادين العالمية. وقد قامت المسيحية في أصلها على السلام والمحبة والإقناع. أما الآن فها نحن نرى الأساقفة والرهبان يشحذون السلاح للقتل والعراك. وبعد أن أباح الباباوات والأساقفة والأمراء تجريد الجيوش للحملات الصليبية، هان عليهم أن يجردوها لتحقيق مآربهم وأهدافهم السياسية وقتل من أسموهم هراطقة ملحدين. ولا نبعد عن الحقيقة كثيرًا إذا قلنا إن الحملات الصليبية التي غرست روح المرارة والحقد في الاضطهادات الدينية التي امتاز بها القرنان الثاني عشر والثالث عشر وعدل المجاهدون عن قتل المسلمين مخالفيهم في الدين أدى إلى قتل إخوانهم من المسيحيين. ويقال إن عشرة آلاف من الأتراك ذبحوا يوم استولى الصليبيون على بيت المقدس. وبعد هذا التاريخ بقرن، يستولى الصليبيون على القسطنطينية ويمثلون فيها مشاهد من التقتيل والتخريب لا يكاد يصدقها العقل وفرائسهم في هذه المرة كانوا من المسيحيين.

وقد اتخذت أوروبا من الحملات الصليبية وحرب الثلاثين سنة سوابق استندت إليها في إثارة الحروب الدينية في القرون اللاحقة. وما مذبحة القديس برثولاماوس وغيرها من الحروب الدينية إلا حوادث لاحقة بالحملات الصليبية السابقة.

ولكن كان لتلك الحملات آثار لم تخل من الخير. فقد أحيت دراسات أرسطو عن طريق ابن رشد الفيلسوف العربي ونشطت التجارة والتبادل بين الشرق والغرب وقوت من وحدة الكنيسة بزعامة البابا حبرها الأعظم والناطق بلسانها.

على أن المؤرخ المنصف لن يقدر أن ينكر أن الحملات الصليبية كانت أعظم مأساة في التاريخ. فلم يحدث من قبل، أن اقترن جهاد في سبيل الدين، بمثل ما اقترنت به تلك الحملات من المغامرات الجريئة الباسلة ومن البذل السخي في الدماء والأموال، في سبيل قضية خلصت من عناصر الأثرة والأنانية. ولكنها ولدت للتاريخ وللمسيحية كثرة هائلة من الآلام والمحن والذنوب إذا قيست بالخير القليل الذي نشأ عنها. وهذا شأن النقمة الإلهية التي تحيق بكل من يسعون إلى خدمة ربهم على الطريقة التي رغب فيها (ابنا الرعد) اللذان لم يعلما (من أي روح هما). فما دخلت المسيحية إلى العالم بالسيف والعراك، ولكنها غلبته بالخدمة والتضحية وما تزال تشق طريقها إلى القلوب بالمحبة والدعوة الكريمة.

البابا إينوسنت:

ويشهد القرن الثاني عشر صراعًا بين البابوية والسلطات الزمنية؛ ففي أواخر هذا القرن يتربع فوق عرش البابوية إينوسنت الثالث. هو إيطالي المولد ومن طبقة النبلاء وكان كريمًا مثاليًّا في خلقه. وقد درس اللاهوت والقانون وصار كاردينالًا في الثامنة والعشرين من عمره، وجلس على كرسي البابوية وهو في السابعة والثلاثين. وأدمج سياسته في عظته الافتتاحية بعد رسامته، إذ قال عن البابا (هو وسط بين الله والإنسان. أقل من الله وأكثر من الإنسان. هو يدين الكل ولا يدينه أحد، لأنه مكتوب لي الدينونة).

وفي بداية عهده، كان هنري السادس خليفة باربروسا وولده قد تزوج من ملكة صقلية، فأضر بمكانة البابا إذ وضعه بين نارين، ألمانيا في الشمال وصقلية في الجنوب.

ولكن تشاء الأقدار أن يموت هنري السادس تاركًا ولدًا قدر له أن يكون فيما بعد فردريك الثاني. فانتهز البابا هذه الفرصة وأخضع الأم الأرملة لسلطانه وغدت مملكة صقلية ملكًا لكنيسة رومية تدفع لها جزية سنوية. ولما ماتت الملكة (١١٩٨م) صار البابا وصيًا على ولدها الطفل.

وكانت وظيفة الإمبراطور الجرماني تشغل بالانتخاب، فاختار الناخبون فيليب، أخا هنري السادس. ولكن البابا أصر على تعيين منافس له يجلس على العرش من دونه. فثارت الحروب الأهلية في ألمانيا، مقترنة بالأهوال المفزعة وانتهت بقتل فيليب وتربع أوتو صنيعة البابا على العرش بدون منافس. وفيما بعد تحدى هذا الصنيعة مولاه، فأقام البابا ألمانيا عليه وعزله وأجلس على العرش خليفة له هو الغلام فردريك، ولم يكن قد جاوز السابعة عشرة من عمره.

وفي فرنسا أرغم البابا (إينوسنت)، ملكها القوي، فيليب أوغسطوس ليتنحى عن زوجة كان يحبها ويتخذ زوجة كان يكرهها، بعد أن كان أساقفة فرنسا أحلوه من زواجه السابق. فاستشاط الملك غيظًا وصاح في غضب: (سأعتنق الإسلام! يا لغبطة صلاح الدين! ليس يعلوه بابا يستبد به). ولما استدعى الملك مجلس أعيانه في باريس للتشاور، نصحوه بأن يطيع البابا، فأحنى أقوى ملوك أوروبا هامته صاغرًا وأطاع البابا ذليلًا.

وكذلك تدخل البابا في إنجلترا وأسبانيا، وأملى إرادته على الملوك والحكام واشتبك معهم في منازعات عنيفة.

القديس برنارد:

ونلق نظرة على ناحية أخرى من تاريخ المسيحية. فبينما يحتدم النزاع بين السلطتين الروحية والزمنية وتفلح البابوية في تدعيم السلطة الثيوقراطية المطلقة في أوروبا، نرى نهضات روحية تختلج في خبايا الأديرة مادتها التقوى والتعبد وتغليب الروح على كل عناصر المادة.

وقد سبق لنا القول إن نهضة دير كلوني أنقذت الرهبانية من الإغراق في اللذات

المادية والترف الذهني وأمدت البابوية بالقوة التي مكنتها من بسط سيادتها في القرون الوسطى، ولكن هذه الرهبانية الكلونية لم تلبث طويلا، حتى خفتت شعلة ثورتها ومالت إلى شيء من المادية العالمية، ولم يرض عن هذا الميل كثيرون من ذوي النفوس المتعبدة الزاهدة عن العالم وعن الاشتراك في منازعاته، فأنشأت أديرة صغيرة أخرى في قلب الحراج والغابات بعيدًا عن ضوضاء الحياة.

وكان المثل الأعلى للتقوى المسيحية في القرون الوسطى حياة الزهد والتقشف واعتزال العالم، وكان الراهب هو نموذج المسيحي الحق الذي يهرع إلى خلية الدير ليصلب الجسد مع أهوائه. على أن العالم لم يدع الراهب في عزلته ووحشته وكان يتعقبه أينما ذهب. ومن قبل طغت الثروة والقوة والمصالح الثقافية والسياسية على الأديرة التي أنشأها بندكت وغيره من أوائل الرهابين وكان رهبان كلوني في القرنين العاشر والحادي عشر أصحاب اليد في تحويل هذا التيار، على أن روح الزهد الصحيح لم تبلغ مراميها إلا في القرن الثاني عشر، فأنشئت رتب رهبانية جديدة وأنظمة شتى تعبر كل منها عن ناحية من نواحي الفكرة التعبدية. وبين هذه الرتب الكثيرة كان أظهرها وأقواها نفوذًا رهبنة البرناردیین[٧] التي لعبت دورًا هامًا في تاريخ القرون الوسطى تحت زعامة رئيسها (برنارد أوف كليرفو **Bernard of Clairvaux**).

ولد برنارد في عام **١٠٩١م** متحدرًا من أسرة عريقة في ولاية بورغنديا بفرنسا وترعرع بين إخوته الفرسان المحاربين صبيًا رقيقًا وديعًا، ولا شك في أنه سمع وهو غلام يافع قصص الحروب الصليبية الأولى يوم تجند فرسان أوروبا لاستنقاذ الأرض المقدسة من أيدي الأتراك. ولعله رافق أباه لرؤية جسد دوق بورغندي الذي حمل من فلسطين ليستقر في دير سيتوه **Citeaux** على مقربة منه. وكان أمام برنارد أن يختار أحد طريقين في الحياة: إما حياة الفروسية شأن أبيه وإخوته المحاربين البواسل، أو حياة الرهبنة الوديعة

---

(٧) أو الـ**Cistercians** نسبة إلى **Citeaux** التي نشأ فيها أول دير من أديرة هذه الرهبانية تحت رئاسة انكليزي يدعى ستيفن هاردنج.

الهادئة، فاختار الثانية وقد أحسن الاختيار. على أنه لم يذهب إلى الدير وحده، بل ساقه حماسه إلى أن يحشد حوله ثلاثة من رفاقه. وفي سنة ١١١٣م، وجد الصحب أنفسهم على أبواب دير سيتوه.

وكان رهبان هذا الدير قد قسوا على أنفسهم في الزهد والتقشف ولم تطفئ ظمأهم الروحي حياة دير كلوني لما كان فيها من ليونة العيش، فهجروه ليؤسسوا هذا الدير ويعيشوا في الفقر المدقع وإذلال الجسد والبعد عن مظاهر الترف والراحة. فاختير برنارد ليرأس طائفة منهم ويبني ديرًا جديدًا.

وهناك في أعماق حراج (كليرفو) على مقربة من ديجون بفرنا، ابتنى برنارد صوامعه الغشيمة الصنع ليخرج منها فيما بعد تلك القوة الهائلة التي جذبت إليها الملوك والباباوات والأساقفة. وكما فعل أنطونيوس أبو الرهبنة في الشرق وبندكت أبو الرهبنة في الغرب، اضطر برنارد أن يناضل في المعركة الأولى مع نفسه ويتعلم سر القوة في الصلاة والخلوة مع الله.

ومن صومعته استطاع برنارد أن يحكم العالم وأن يفصل في نزاع شجر بين اثنين من الباباوات المتنافسين، ووقف إلى جانب إينوسنت الثاني ضد منافسه، فاستمال إلى جانبه الغرب كله وأخضعه لنفوذ البابا الذي ناصره. وبذلاقة لسانه وسحر كلامه أقنع الإمبراطور كونراد الثالث أن يشرع بالحملة الصليبية الثانية وكان البابا أوجينوس (١١٤٥– ١١٥٣م) الذي كان أحد تلامذته في الدير، أداة طيعة بين يديه.

ولكن هذا الرجل العظيم الذي أرغم العالم على الإذعان لقوة ذهنه الجبارة، لم يكن إلا الراهب الذي فر من العالم ولجأ إلى الوحدة ليعيش في عزلة، غارقًا في تأملاته الروحية في صلة بالله الذي وجد لنفسه في محبته ريًّا. وكما كان أوغسطينوس أبًا لعلوم الدين في الغرب، كذلك كان برنارد أبًا للتصوف الغربي، وقد تفجرت من عواطفه الرقيقة العذبة أناشيد رقيقة الجرس حلوة النغم، ما يزال يهيم بها المتعبدون حتى اليوم في الأديرة والكنائس.

وقد تأسست في الغرب أديرة كثيرة على غرار دير القديس برنارد وكان هو أول من شيد الأديرة على الطراز القوطي في الأمكنة الصحراوية السحيقة أو في قلب الحراج البرية الصامتة لتكون مقرًّا للحياة المسيحية الهادئة. وفي الوقت نفسه مرتعًا للعمل الزراعي اليدوي وشق الأخاديد في الطبيعة الفسيحة واستنبات الأرض البكر التي لم يستغلها الإنسان من قبل. وقد كانت أديرته في شرق ألمانيا مراكز، لا لنشر الدعوة بين الوثنيين فقط، بل لتنشيط الزراعة ونشر الحضارة في كل الأرجاء.

***

وبينما كان معظم الناس يتلقون علومهم في المدارس الملحقة بالأديرة، ظهر صنف آخر من التعليم في بيوت الأمراء والنبلاء والفرسان، تلك كانت مدارس الفروسية. فابن الفارس كان إلى السابعة أو الثامنة من عمره يتلقن في حضن أمه الصلوات ومبادئ السلو والحياة الطاهرة، وبعد ذلك يصير وصيفًا في بيت أبيه ليروض نفسه على أداء بعض الخدمات الصغرى لمولاه ومولاته ويلعب المزمار أو العود ويصارع ويلاكم ويتعلم اللاتينية على يد كاهن الأسرة ويقرأ ويكتب ويقرض الشعر. فإذا بلغ الرابعة عشرة صار تابعًا، يخرج للصيد مع مولاته ويعتني بجواد مولاه ويجلو له الأسلحة وينظمها ويحذق حرب الفروسية. وفي الحادية والعشرين– بعد الصوم والصلاة– يدخل الكنيسة مدججًا بكامل أسلحته ويقضي الليل كله في الدعاء والتعبد ثم يتناول الشركة المقدسة ويقدم سيفه ليباركه الكاهن، ويؤدي هذا القسم: (وأدفع الأذى عن النساء والفقراء وأصون سلامة الدولة وأسفك دمي عند الاقتضاء من أجل مواطني). وبعد ذلك يقلده قائده السيف ويمنحه رتبة الفروسية.

وقد أنشئت رتب كثيرة للفروسية– شأن الرهبانية– وكان الدافع إلى إنشاء هذه الرتب العسكرية، تلك الحروب الصليبية التي تطوع فيها الفرسان لاسترجاع الأرض المقدسة. ويروي التاريخ أن ليس كل الفرسان حفظوا النذر والعهد؛ فمنهم من قسا وأسرف وأساء إلى المرأة واحتقر الفقير، فخانوا بذلك العهد المقدس واضطر البابا في

أوائل القرن الرابع عشر لإلغاء إحدى هذه الرتب بالقوة ومحاكمة رجالها بتهمة الهرطقة والفساد. على أن كثيرين منهم حرصوا على مثلهم العليا ورعوا زمام العهود وترجموا مبادئ المسيحية التي قضت بمعونة الأقوياء للضعفاء. وكان القديس لويس ملك فرنسا (١٢١٤–١٢٧٠م) من أعظم الفرسان المسيحيين الذين دونت القرون الوسطى مآثرهم بالفخار والإعجاب كما تقدم.

القرن الثالث عشر

استمرار الصراع بين البابوية والإمبراطورية

استمر النزاع محتدمًا بين البابا وإمبراطور الجرمان في القرن الثالث عشر. وكان جريجوريوس الحادي عشر قد تربع على كرسي البابوية (١٢٢٧م) وهو في الثمانين من عمره. رجلًا اشتهر بذلاقة لسانه ودرايته الواسعة بالقوانين الكنسية والمدنية. وتوج فردريك الثاني إمبراطورًا سنة ١٢٢٠م وقد أطلق عليه لقب (أعجوبة العالم) وكان أعجب أهل زمانه حقًّا، شاعرًا وفيلسوفًا. وقد اتهمه معاصروه بأنه من المفكرين الأحرار، وقالوا عنه تارة إنه من أنصار اليهودية وأخرى إنه من أنصار الإسلام؛ لأنه الصليبي الوحيد الذي استولى على بيت المقدس بمقتضى اتفاقية ودية مع المسلمين وبشروط معقولة. وقد خلا عقله من عناصر التعصب الديني والفكرى واتسعت آفاق تفكيره وآمن بالمعرفة القائمة على التجارب.

وإنه ليعسر على مثل هذا الرجل أن يخضع لسلطة البابا، فتتصادم السلطتان ويصطرع العاهلان، ويصدر البابا حكم الحرمان ويظل النزاع بينهما قائمًا مدة أربعة عشر عامًا يسمع دويه في الشرق والغرب. ويموت البابا جريجوريوس ويخلفه إينوسنت الرابع (١٢٤٣م) فيجدد الحرم ويقرر خلع الإمبراطور. على أن هذا الأخير يظل يصارع بعزيمة ماضية إلى أن يدركه الموت سنة ١٢٥٠م رجلًا محطمًا هدته المنازعات العنيفة، ومرة أخرى تنتصر البابوية.

على أن هذا النصر الذي ظفرت به البابوية كان إيذانًا بانهيارها؛ فهذه السلطة الدينية التي أذلت الملوك والحكام تمادت في مطالبها واستبدت بالأساقفة ورجال الدين وأباحت لأنصارها وأعوانها أعمال النهب والابتزاز وأفرطت في استغلال أوقاف الكنيسة وأموالها وامتيازاتها لجر المنافع الخاصة. وبعد أن سحقت البابوية أسرة أباطرة الجرمان، وهي

أقوى أسرة حكمت أوروبا بعد عهد قياصرة الرومان، راحت تحبك بأيديها خيوط فنائها.

يموت فردريك ويزول الخطر الذي كان يهدد البابوية من ناحية الأسرة المالكة في جرمانيا. ولكن يأتيها ذلك الخطر من دول أخرى. فالبرلمان الإنكليزي ينفر من تدخل البابا في شؤون البلاد ويحتج على ألوان العسف التي فرضتها السلطة الدينية في رومية وعلى تعيين الأجانب في الوظائف الأسقفية بإنجلترا.

وفي فرنسا ينهض لويس التاسع ويصدر مرسومًا يحظر على البابا فرض الضرائب بدون إذن الملك والكنيسة ويحد من تدخله في اختيار الأساقفة ورجال الدين حسب هواه. وكان الغرض من ذلك المرسوم إنقاذ الكنيسة الفرنسية من مظالم البابوية ووضع السلطة في يد الملك.

وكذلك في مملكة صقلية لم يرض الشعب عن ملك عينه البابا وخلعوه عنوة وأقاموا آخر بدله ولم يعبأوا بأحكام الحرم والتأديب التي أصدرها البابا. ولما جلس بونيفاس الثامن على كرسي البابوية سنة ١٢٩٤م تمادى في مطالبه وأمعن في المقاومة والصراع وأصر على أن يقبض بين يديه على صولجان الكنيسة وسيف الحكم، حتى اضطر عاهل فرنسا وبعض حكام أوروبا أن يبعثوا بشرذمة من الجند للقبض عليه وأهانوه وأساءوا معاملته، ولكنهم يسروا له سبيل الهرب. وكانت تلك طعنة نجلاء في قلب البابوية لم يفق بعدها الجالس على كرسي الخلافة. كما كانت إيذانًا بانهيار السلطة البابوية التي ظلت قرونًا أقوى سلطة في أوروبا كلها.

كانت فكرة نبيلة التي أبدعها جريجوريوس العظيم (هلدر براند) في توطيد ملكوت الله على الأرض، وتعزيز حكم البر والسلام وإقامة (مدينة الله) التي صورها القديس أوغسطينوس في عالم الأرض. ولكن بعض خلفائه استخدموا هذه السلطة الهائلة لتحقيق أغراض سياسية أنانية، غير مبالين بالوسائل التي تذرعوا بها في سبيل نيل هذه المآرب. وقد فشلت البابوية في القرون الوسطى لأنها خلطت بين الدين والدنيا وجعلت السياسة أمة الدين وخلعت على الكنيسة نظامًا سياسيًا عالميًا وحولت الدين من روحانية تستقر في

أعماق النفوس إلى أداة كهنوتية تستبد بالنفوس. وللسياسة أن تشرع وترغم. أما الدين، فيقنع ويلهم.

فرانسز الأسيسي:

امتازت القرون الوسطى بكثير من المفارقات، فبينما نرى الصراع محتدمًا بين السلطتين الروحية والزمنية ونشهد بعض رجال الدين يتخذون منه تجارة وذريعة للقسوة والاضطهاد– ينجب القرن الثالث عشر شخصيات بارزة تمتاز بالعبقرية الروحية. ومن هؤلاء البارزين القديس فرانسز الأسيسي الذي أنضجت قوة الإيمان في حياته ثمرتها الجميلة– وهي قوة المحبة. وقد كانت رغبته أن يقتفي خطى سيده وربه ويهب كل ما لديه للفقراء والمعوزين وينادي بإنجيل التوبة والمحبة. وقد فعل هذا وأكثر منه؛ إذ حمل الآخرين على الاقتداء به والنسج على منواله وكان من ثمار هذه المسيحية العملية التي تكملت بقوة المحبة القاهرة– الرتب الرهبانية الكثيرة التي نشأت فيما بعد مثل جماعات الفرنسيسكان (التي تأسست سنة ١٢٠٩) والدوسينيكان (التي تأسست سنة ١٢١٥م)– التي صبغت بنزعاتها التعبدية تاريخ الكنيسة الغربية في النصف الأخير من القرون الوسطى.

كان فراسنز ابن تاجر غني من بلدة أسيسي بإيطاليا. نشأ شابًا شجاعًا كريمًا، أحب الولائم والحفلات والغناء والطرب وارتداء الثياب الأنيقة وتطلع إلى أمجاد الفروسية ومظاهرها الرائعة، وكان على وشك أن يلتحق بالجيش البابوي لطرد الغزاة الجرمان عن جزيرة صقلية، وإذا بحلم غريب يترآى له وصوت خفي يغير مجرى حياته، فعاد إلى أسيسي وهو أكثر هدوءًا وأعمق تفكيرًا وألف أن يخلو إلى الأماكن المستوحشة ليصلي ويناجي الله. وفي هذه الأثناء أخذ يراقب الشحاذين البائسين الذين كانوا يزحمون طرقات المدن وجنت أحشاؤه إليهم ورقت عليهم. ومرة وهو يقوم بالحج إلى رومية، استبدل ثيابه بأسمال شحاذ ووقف اليوم كله يستعطى ليختبر بنفسه مرارة الفقر والاستجداء. ومنذ ذلك الحين أحس بأنه مستطيع أن يشارك الفقراء ويفهمهم وتضاعف سخاؤه وعطفه

عليهم، وعرف أن الذي يحز في قلوب المساكين أكثر من الفقر والبؤس والجوع، ذلك الاحتقار الذي كان يلقاهم به الناس. وقد ومضت هذه الفكرة في عقله بلمعان باهر يوم كان سائرًا لإلقاء قطعة نقود بين يدي شحاذ أبرص، فبدلًا من إلقائها بأنفة وكبرياء، وضعها في يد الشحاذ برقة ولطف وقبله باحترام وأدب وطوقه بذراعيه في عطف ومحبة.

ومرة كان يصلي في الكنيسة، فتخيل صوتًا يحدثه من فوق الصليب القائم على المذبح ويقول له: (اذهب ورمم كنيستي التي قد حاق بها الدمار). فأجاب: (سأفعل هذا يا ربي طوعًا لأمرك).

ومن تلك الساعة وهب كل ماله للكنيسة حتى ثيابه التي ارتداها وخرج من بيت أبيه وهو لا يحمل شروى نقير واكتسى ثياب فلاح بالية بعد أن وضع عليها ختم الصلي. بل راح يستعطي من المقتدرين حجارة يبني بها كنيسة قريته المهدمة ورمم ثلاث كنائس أخرى. وفي إحدى هذه الكنائس التي أحبها، سمع رسالة الإنجيل تضمنت وصية المسيح لتلاميذه: اذهبوا واكرزوا.. لا تأخذوا ذهبًا ولا فضة وإذا دخلتم بيتا اقرءوا أهله السلام. وعلى هذه المبادئ أسس فرانسز نظام رهبنته (الفرير **Friars**) وهم جماعة من الناس يجوبون في الأرض، بلا مال ولا عتاد، ينادون بسلام الله ويستمعون إلى صوته في قلوبهم وقد ارتدوا ثيابًا غشيمة من القماش غير المصبوغ الذي يلبسه الفلاح العادي وتمنطق كل منهم بحبل حول حقويه وانتعل نعلًا غشيمًا في قدميه.

وكان بين رفاقه في هذه المغامرة العظيمة أبناء أغنياء التجار والفلاحين والعلماء والكهنة والشعراء والكتاب، وقد عاشوا في بادئ الأمر في مخابئ غشيمة في الغابات وقضوا أوقاتهم في الصلاة والدعوة إلى المسيحية والعناية بالبرص، ثم اشتغلوا بأيديهم في الحقول أو في خدمة منازل مواطنيهم لكسب عيشهم بعرق جبينهم، وحين يعز عليهم العمل كانوا يستجدون أهل الإحسان. وقد رأى البابا بعينيه ما يستطيع أن يفعل هؤلاء من الخير، فأقر نظامهم في رومية وأطلق عليهم لقب (الأخوة الأصاغر) لأنهم أبوا قبول مناصب عليا في الكنيسة وعاشوا بين الناس أصدقاء وادعين، لا يطلبون مالًا ولا كرامة.

وانتشر الدعاة الفرنسيسكان في ألمانيا والمجر وفرنسا وأسبانيا وإنجلترا، وذهب فرانسز في إحدى الحملات الصليبية إلى الأرض المقدسة ومصر حيث تسلل إلى خطوط الأعداء ودخل إلى خيمة السلطان صلاح الدين وتحدث معه في شؤون الدين، وبعد أن أكرم وفادته أطلقه دون أن يمسسه ضر.

والذين رووا لنا سيرة حياته من المؤرخين، ضمنوها قصصًا غريبة عن محبته لكل الخلائق، وقالوا إن الحيوانات الجفولة والبرية كانت تأنس إليه ولا تخشاه وإن ذئاب الفلوات ولصوص الجبال، كانوا موضع عطفه ورعايته. كذلك شاد المؤرخون بالغبطة الروحية التي شاعت في نفسه، وخاصة حين وضع (أغنية الشمس) التي سبح فيها بذكر جميع الكائنات التي خلقها الله. بل ذهبوا إلى حد القول إنه من فرط إغراقه في الدعاء والتعبد والتأمل، دمغت على جسده بعض جروح المسيح، وفي ساعة انطلاقه من الأرض، رفرف فوقه رأسه سرب من القنابر يصدح بأنغام عجيبة.

***

نشاط الرهبان:

وقبل فرانسز، نهض آخرون وقد هالهم ما لمسوا من الشرور في حياة كثيرين من زعماء الكنيسة وجاهدوا في إصلاح الأمور بالجنوح إلى حياة الزهد والصلاة والأعمال الصالحة. ومن بين هؤلاء (بطرس والو) الذي نسج على منوال فرانسز وبذل كل ماله وراح يستجدي ويستعطي ويعين الفقراء والمعوزين. وقد نادى هؤلاء الوالدنسيون **Waldensians** ومثلهم الألبونيون **Albigensians** [٨]– ضد فساد رجال الدين في ذلك العصر وما درجوا عليه من عادات شريرة، ولكنهم أتهموا بمروقهم عن الكنيسة وعصيانهم السلطات الدينية. والواقع أن الأخيرين منهم نادوا بعقائد مضادة فعلًا للدين المسيحي.

---

(٨) نسبة إلى مدينة إلبي في فرنسا.

وقصة اضطهاد أولئك الرجال والنساء من القصص الأليمة الرهيبة التي شابت تاريخ الكنيسة. على أنه ينبغي أن نذكر أن الكاثوليك في ذلك الزمن نظروا إلى الخوارج عن الرئاسة الدينية نظرتهم إلى المجرمين الذين يحاربون الله والحضارة التي شيدتها الكنيسة على أنقاض الإمبراطورية الرومانية. ولكن هذا لا يبرئ قسوة الاضطهاد العنيف الذي وقع عليهم في سنة ١٢٠٨م؛ يوم أرسل البابا جيشًا إلى جنوب فرنسا لقمع حركة الهراطقة بالقضاء عليهم جملة وتدمير بيوتهم وأوطانهم.

دومينيك:

ومن قبل حكم على الهراطقة بالموت ولم يعدم التاريخ أتقياء من الكاثوليك احتجوا على هذه الفعال التي لا تمت إلى المسيحية بصلة، وفي هذه المرة ثار الاحتجاج من عالم إسباني يدعى (دومينيك). وقد قام هذا العالم بإنشاء رهبنة جديدة قوامها الدعوة إلى الهدوء والمسالمة وجذب الناس إلى حق الدين بالحب والملاينة. وقد اختلف الدومينيكان عن الفرنسيسكان في أنهم كانوا علماء مدربين، عالجوا المشاكل العقلية التي اختلجت بها عقول الناس وشرحوا الحقائق بأساليب سهلة المأخذ واضحة المعنى. وقد ارتدوا رداء أبيض من تحت، يعلوه عباءة سوداء وجالوا بين الناس معلمين ناصحين وقد نذروا الفقر والعفة شأن غيرهم من الرهبان.

ونشط الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان نشاطًا عظيمًا في نشر الدعوة المسيحية، فانطلق فريق من الفرنسيسكان إلى المشرق سنة ١٢٣٣م لدعوة سلطان دمشق إلى المسيحية. وبعد سنوات استشهد تسعون من الدومينيكان في بلاد المجر الشرقية بأيدي تتر جنكيز خان وانطلقت جماعات منهم إلى ديار الإسلام واليونان والبلغار والقوطيين والروس والنوبيين والنسطوريين والأرمن والهنود والتتر وإلى كل أجناس الأرض، ووقع كثيرون منهم أسرى في أيدي الأتراك. ويقال إن الدومينيكان أفلحوا في نشر الدعوة ببلاد الحبشة. كما أن الفرنسيسكان رافقوا كولمبوس في رحلته الثانية إلى أميركا.

وكان ريموندلل (١٢٣٥- ١٣١٥م) أحد عظماء الدعاة المسيحيين، راهبًا من الفرنسيسكان. وقد هالته قسوة الحملات الصليبية، فاعتزم أن يقدم لإخوانه المسلمين رسالة السلام والمحبة. فدرس العربية وانطلق إلى أفريقية الشمالية وظل ينشر الدعوة هناك حتى رجمه الدعماء في بلدة صغيرة على مقربة من تونس. ولما أقام الصليبيون مملكة لاتينية في القسطنطينية، انطلق أولئك الرهبان المستجدون وأسسوا مراكز لهم في أنحاء الإمبراطورية الشرقية لنشر الدعوة المسيحية ورحلوا شرقًا إلى بلاد الفرس وأرمينية ثم إلى الشرق الأقصى.

وكان المغول سادة آسيا الشمالية في ذلك الزمن وقد زحفت جموعهم في القرن الثالث عشر حتى استولوا على وادي نهر الفولجا واكتسحوا أوروبا الشرقية في طريقهم وهددوا المسيحية والحضارة وأدخلوا الرعب والفزع إلى قلوب الشعوب الأوروبية واستولوا على بولندا وبوهيميا وبلاد المجر ولم ينقذ أوروبا الغربية من أيديهم إلا موت عاهلهم جنكيز خان. وانتهز رهبان الفرنسيسكان هذه الفرصة وراحوا يبثون الدعوة بين الغزاة الفاتحين وبلغت بهم الجرأة أن وصلوا إلى معسكر الخان العظيم في قلب آسيا حاملين رسائل من ملك فرنسا لويس التاسع، وقالوا لعاهل المغول أنهم لا يحملون ذهباً ولا فضة، ولكنهم يلتمسون أن يأذن لهم بالبقاء في ربوعه لدعوة الناس إلى خدمة الله وإلى الحياة الكريمة الصالحة. وقد أكرم الخان وفادتهم، وأذن لهم بنشر دعوتهم. وهناك ترجموا الإنجيل إلى لغة التتر، وشيدوا الكنائس، واستمالوا كثيرين إلى المسيحية. وقد قضى كثيرون منهم شهداء في تلك البقاع النائية.

الرهبنة والطبقات الوسطى:

وكان لرهبانيات المستجدين من فرنسيسكان ودومينيكان أفضال أخرى غير ما ذكرنا من إسناد السلطة البابوية وإيقاظ روح الدعوة المسيحية في أوروبا والشرق؛ فإن إليهم يرجع الفضل في التطور الاجتماعي الذي خلق الطبقات المتوسطة على مسرح التاريخ.

وإلى ذلك الحين كان تاريخ القرون الوسطى دائرًا حول الأمراء والنبلاء والأشراف ورجال الدين على اختلاف رتبهم. ثم إن رجال الدين– أو على الأقل أصحاب الكرامة والنفوذ فيهم– خرجوا في الأصل من أسر الأمراء والأشراف ومن طبقات المجتمع العليا التي تميزت بالثروة والفروسية. نعم، وجد لهذه القاعدة استثناء كأن يرتفع ابن صانع مثل جريجوريوس السابع إلى مرتبة البابوية، ولكن كانت القاعدة المطردة أن يحتل وظائف الأساقفة ورؤساء الأديرة أبناء الأسر العريقة ذات الكرامة والجاه والثروة وحتى بين الرهبان كانت الأكثرية من تلك الأسر العريقة المحتد. فبرنارد الراهب الشهير صاحب النظام المعروف باسمه كان غصنًا من دوحة عريقة قديمة في ولاية بورغنديا، ولما دخل الدير أخذ معه ثلاثين رفيقًا من أبناء الأشراف. والنهضة التي بدأها رهبان دير كلوني الذين يرجع إليهم الفضل في إصلاح حياة الرهبنة في القرنين الحادي والثاني عشر، نبتت أولًا من بين الأشراف. وعلاقة أولئك الرهبان بالأسر النبيلة الغنية أغنت الأديرة وكدست فيها الثروات المادية التي كانت من أقوى عوامل اضمحلالها وبعدها عن الغرض الذي خلقت من أجله. وقد كان أولئك الأشراف– في الكنيسة وفي العالم– القادة وأصحاب النفوذ والسلطان وهم الذين مثلوا رواية التاريخ على مسرح ذلك العصر، وذلك بسبب امتلاكهم الأراضي ومصادر الثروة. أما المواطنون والفلاحون، فلم يكن التاريخ قد عرفهم بعد ومن بينهم تجند صغار الكهنة العالميين الجهلاء الذين لم يكن لهم حول ولا طول في إدارة شؤون الكنيسة وكانوا أدنى مرتبة من الكهنة المترهبين. وقد ساعدت تلك الطبقات العامة في إعداد الأسس الاقتصادية للحياة القومية، ولكنها لم تمثل مبدأ ولم تسع إلى هدف معين. والحياة الوطنية ذاتها لم تكن قد اصطبغت بصبغتها العقلية الخاصة. ولئن أفلحت الطبقات العامة في خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر في خلع نير الخدمة الإلزامية وإلقاء أعباء النظم الإقطاعية والتحرر من سلطة الأمراء والأشراف، فإن مصالحها الخاصة بقيت محدودة ولم يكن للتجار والصناع والعمال مطامع خارج نطاق البلدة أو الدائرة التي عاشوا فيها. عاش الكافة في نطاق ضيق محدود، بينما امتدت مصالح الخاصة من أمراء وأشراف وأساقفة ورهابنة ورؤساء أديرة إلى آفاق العالم الغربي كله.

ومن القرن الثالث عشر تبدأ نهضة جديدة ناشطة بين الطبقات المتوسطة، ويرجع الفضل في هذا التطور إلى الرهبان المستجدين وإلى نفوذهم عامة الشعب في الأديرة، وخالفوا بذلك الاتجاه القديم الذي جنحت إليه أنظمة الرهبانيات القديمة التي طبعت بطابع الارستقراطية ووسعوا آفاق إنسانيتهم وعطفهم، فامتلأت الأديرة بأفراد الكافة وازدادت قوتهم بانضمام الطبقات المتوسطة إليهم واضطر النبلاء وطبقات الفرسان إلى إفساح الطريق أمام هذه الميول والغرائز الوطنية التي امتزجت في الوقت نفسه بالخشوع والتعبد وسائر خصائص الرهبانية.

وانتقلت– بهذه النظم الرهبانية الجديدة– ملكات الخطابة والوعظ ونشر الدعوة الدينية إلى الطبقات المتوسطة ولم يكن الانتقال مقصورًا على الكلام المنطوق فقط، فقد كانت العلوم والآداب من بداية القرن الثالث عشر إلى الخامس عشر وقفًا على الرهبان المستجدين وخاصة الدوسينيكان، وكان من آثار النهضة الفكرية التي بدأت في القرن الثاني عشر– مع الحروب الصليبية– أن تأسست المدارس والجامعات في إيطاليا وفرنسا وإنجلترا وألمانيا وكانت أغلبية الأساتذة في هذه الجامعات من الرهبان الذين اختصوا بالعلم والنشاط العقلي وتولوا الزعامة في منبر الكنيسة ومنبر الجامعة على السواء وقادوا حركة التهذيب والتعليم في أوروبا كلها.

وكان التعليم الذي لقنه الرهبان للطبقة المتوسطة دينيًّا كنسيًا وأوتي ثماره في إخضاع المصالح الزمنية للمصالح الروحية والإمبراطورية للبابوية. وخيل أن قوة الكنيسة وسلطة البابوية تركزتا على أساس مكين لا يتزعزع، فالطبقة المتوسطة التي تقدست لتشق طريقها في التاريخ بقوة هائلة أشربت روح الخشوع والتعبد، فأسندت الكنيسة ومبادئها وبسطت سلطانها على حياة الأمة.

***

شهد القرن الثاني عشر والثالث عشر نهضة الجامعات التي بدأت كنقابات من المعلمين لتبادل الحماية والمعونة، وكما قلنا كان المعلمون– أو الأقل كثرتهم الغالبة– من

الرهبان ورجال الدين الذين احتضنتهم الكنيسة، على أنه قد انضم إليهم كثيرون من العلماء والمفكرين وقامت إلى جانب دراسة العلوم الدينية دراسات أخرى مثل الطب والمنطق والفلسفة واللغات القديمة. وقد شجع الباباوات والملوك جماعات المعلمين– الذين أطلقوا عليهم لقب Schoolmen في ذلك العصر وأغدقوا عليهم المنح والعطايا وأعفوهم من الضرائب وتركوا الحرية للجماعات في إدارة شؤونها ومجالسها الخاصة. ونظم الطلبة جماعات قومية أو كليات مستقلة. وعلى مر الزمن، استقل رجال الدين في الجامعات لدراسة علم اللاهوت خاصة. وشغف المعلمون بكتابات الفيلسوف الإغريقي القديم أرسطو (٣٨٤– ٣٢٢ق.م) التي انتقلت إليهم بسبب اتصالهم بالإمبراطورية اليونانية وبالعرب أثناء الحملات الصليبية، فترجموا كتاباته وشرحوها وحاولوا التنسيق بين آرائه وبين تعاليم الكنيسة وامتزجت توافه الأشياء بالزبد، ولم يعن أولئك المعلمون بآداب اليونان والرومان القديمة واستهنوا اللغات الحديثة التي سادت في عصرهم وروضوا طلابهم على التفكير دون الاهتمام بتهذيب الأحاسيس والعواطف ومبادئ الأخلاق الفاضلة التي عنى بها الرهبان الأولون. فلا عجب أن يذكر التاريخ أن كثيرين من الطلاب الفقراء المتجولين الذين ازدحمت بهم المدن الكبرى، انتهى بهم الأمر إلى أن يكونوا لصوصًا سكيرين على كثرة ما اغترفوا من علوم ومعارف. ومع هذا كله فإن حرية البحث التي تمتعت بها الجامعات جعلت العلم في متناول جميع الطبقات واختزنت مزيدًا من المعرفة في العقول.

وقد خلد التاريخ أسماء كثيرين من المعلمين الأعلام، وكان (إنسيلم) (١٠٣٣– ١١٠٩م) في طليعتهم الذي صار فيما بعد رئيس أساقفة كانتر بري، وهو الذي حاول أن يثبت وجود الله بالحجة العقلية وأن يدعم الإيمان الديني بأسانيد العقل. وجاء بعده (ابيلارد) (المتوفى سنة ١١٤٢م) وهو شاب تلقى العلم في باريس وجذب إليه كثيرين من الطلاب وجمع في كتاب له أقوال الآباء الأولين المتناقضة واستعرضها للبحث والتمحيص وأباح لطلابه مناقشتها للوصول إلى الحق وأفسح لهم السبيل لبحث العقائد الدينية على نور العقل والمنطق. بينما رجال الكنيسة لم يرقهم هذا التطور الفكري الحر وحسبوا ابيلارد

خطرًا على التقاليد والسلطات الدينية والإيمان المسلم من الآباء، فثاروا عليه وعلى رأسهم القديس برنارد مؤسس إحدى النظم الرهبانية الذي تقدم الكلام عنه في فصل سابق، وعقدوا مجلسًا لمحاكمته وحكموا عليه بالانزواء في دير (كلوني) حيث مات في السنة التالية.

وبين الأسماء التي برزت بين المعلمين في القرن الثالث عشر (روجر باكون) و(وليام أوكام) من الفرنسيسكان و(البرتوس ماجنوس)، و(توماس أكويناس) من الدومينيكان.

توماس أكويناس:

ولعله من الشائق أن نختتم هذا الفصل بلمحة خاطفة من حياة القديس توماس أكويناس (١٢٢٥– ١٢٧٤م) وقد تحدر الرجل من أسرة نبيلة عريقة تتصل بالأسر الحاكمة في أوروبا في ذلك العهد وكان مولده في قرية صغرى في إيطاليا الجنوبية. فلما بلغ الخامسة من عمره أرسل إلى مدرسة للبندكتيين في جبل كاسينو وكان صبيًا هادئًا رزينًا، أحب الكتب كما يحب الأطفال اللعب وقد أدهش رهبان دير جبل كاسينو يوم سألهم وهو بعد طفل صغير (من هو الله؟).

وقضى توماس بقية حياته محاولًا أن يجيب عن هذا السؤال الذي حيره منذ حداثته. فدخل جامعة نابولي وهو في العاشرة ـ وكان الأولاد يدخلون الجامعات في سن مبكرة في تلك الأيام ـ وهناك التقى برهبان الدومينيكان، فاعتزم أن يكون واحدًا منهم. وهنا ينفجر مرجل السخط بين أهله وذويه وهم لا يحتملون أن يغدو هذا العالم المتحدر من أصلاب الأمراء راهبًا مستجديًا. فانطلق إخوته الذين انخرطوا في سلك الجندية واختطفوه عنوة من الوسط الذي لصقت به نفسه واحتجزوه في ضيعته، ولكن عبثًا كان كل هذا. وأخيرًا يلين إخوته ويطلقون سراحه ويدلونه من نافذة القصر الذي احتبسوه فيه. وكان في انتظاره نفر من زملائه الرهبان فحملوه معهم إلى الدير. وبعد ذلك أرسل إلى كولون ليدرس عند العالم الجليل (ألبرتوس ماجنوس). وقد حسبه الطلاب زملاؤه غبيًا بليدًا لصمته وهدوئه حتى أطلقوا عليه لقب (الثور الأبكم). ولكنه يشترك يومًا في مناظرة

يدافع فيها علنًا عن وجهة نظر معينة، فيخلب ألباب زملائه وأساتذته بقوة حجته ورصانة منطقه وثاقب فكره. وصاح السامعون أن هذا (الثور الأبكم) سيسمع خواره العالم كله وقد صدقت نبوءتهم. وانتقل هذا الشاب إلى جامعة باريس. وبعد أن حصل على أرقى الدرجات العلمية، استدعاه البابا سنة ١٢٦١م إلى رومية وذاع صيته كأحد مشاهير الأعلام العلماء في عصره.

وكانت مهمته الكبرى أن ينظم دروس الطلاب ويصنف الكتب الدينية ويلخص ويبوب كتابات الأسبقين وحكمتهم. وبفضل مضاء ذهنه وقوة ذاكرته وتفكيره المنطقي الدقيق ونشاطه الجم وإيمانه الوطيد، لخص حقائق الدين المسيحي أجمل تلخيص. وقد صنف كتبًا في شرح الأسفار المقدسة وعلم اللاهوت والفلك وغير ذلك، ونظم الترانيم ووضع الصلوات. وما فتئت كتبه وترانيمه وصلواته مستودعًا حتى اليوم يستمد منه العالم المسيحي أنفس ذخائره وأجمل تحفه.

القرن الرابع عشر

انحلال البابوية

شهدت السلطة البابوية في بكور القرن الرابع عشر انحلالًا بدت أعراضه من قبل. وتخلل هذا القرن الفترة التي عرفت في التاريخ بـ"السبي البابلي". وذلك لأنه بعد زوال الأسرة المالكة في ألمانيا والقضاء على أكبر عدو للبابوية، انقسمت ألمانيا إلى دويلات وإمارات صغرى وتظهر فرنسا قوة كبرى في أوروبا وتعدو دولة متحدة مسموعة الكلمة. وكان البابا بونيفاس (١٢٩٤– ١٣٠٣م) بعد القضاء على عدوه الألماني قد تمادى في مطالبه كما تقدم وأصر على السيادة البابوية فيما لله وفيما لقيصر، ولذلك يتورط في نزاع عنيف مع فيليب الجميل ملك فرنسا ويصدر رسالته المشهورة التي يؤيد بها سلطان الكنيسة المطلق، لا في الشؤون العالمية فقط، بل تعيين الملوك وخلعهم. وهنا تصطدم البابوية بصخرة تتحطم عليها. إذ يضطر البابا إكليمندس (١٣٠٥– ١٣١٤م) تحت ضغط ملك فرنسا إلى الإقرار رسميًّا بأن رسالته لا تمس ملك فرنسا، بل يذهب الملك إلى أبعد من هذا الحد، فيرغم البابا على نقل كرسيه من رومية إلى أفينون (١٣٠٩م) على مقربة من أملاك ملك فرنسا. وكأن الذي عجز عن تحقيقه أباطرة الأسرة المالكة في ألمانيا، يتوصل إليه الآن ملوك فرنسا في سنوات قلال. وكانت تلك الحادثة فاتحة السياسة الدولية الحديثة وغدت البابوية أداة طيعة في يد ملك فرنسا، خاضعة لسلطانه. وكان مرد هذا إلى الإفراط في المطالب والمغالاة في فرض سيادة زمنية مطلقة خلقت نزاعًا بين السلطتين الزمنية والروحية وراحت الدولة تجاهد ويشتد ساعدها حتى غلبت أخيرًا بعد أن ظلت الغلبة للبابوية دهرًا طويلًا.

وقد بقي (السبي البابلي) في أفينون من سنة ١٣٠٥م إلى سنة ١٣٧٧م من عهد إكليمندس الخامس إلى عهد جريجوريوس الحادي عشر، أي طيلة القرن الرابع عشر

تقريبًا. وقد أحست البابوية بهذا الأمر إحساسًا دقيقًا، بل أحست الكنيسة كأنها أقصيت عن عرشها. ولم تنقطع المحاولات للإفلات من هذا الأسر. فبعد سنة ١٣٧٨م يقوم في رومية بابا لمعارضة كرسي أفينون، وبذلك تنقسم المسيحية إلى معسكرين معاديين وبعد أن كانت البابوية رمزًا للوحدة المسيحية تمسي مثارًا للانقسام والشحناء. وينبري العاهلان المسيحيان يحارب أحدهما الآخر بأحكام الحرم واللعن وترى الأمم الغربية لأول مرة أن صواعق الحرمان البابوي تنقض على الأرض فلا تؤذي ولا تميت. وبانقسام البابوية على ذاتها تضعف شوكتها ويخفت صوتها. وظل هذا الانقسام قائمًا أكثر من ثلاثين سنة من ١٣٧٨م– ١٤٠٩م، وفي تلك السنة يعقد مجمع في بيزا لرأب هذا الانشقاق، إذ يقرر عزل الزعيمين ويعين ثالثًا. على أنه لم يمكن تنفيذ هذا القرار ويبقى العاهلان المتنافسان، كل في مكانه. ويصير البابا المنتخب في بيزا منافسًا ثالثًا ويظل الانقسام الثلاثي قائمًا حوالي عشر سنوات. وما يهل القرن الخامس عشر حتى تتقلص السلطة البابوية وتصاب بضربة قاصمة ويزول ذلك السلطان العريض الذي كسبته السلطة الدينية بكثير من الجهاد والعناء.

فساد الرهبانية:

ارتفعت السلطة البابوية إلى ذروة المجد ثم انهارت. وكان ذلك الارتفاع علة الانهيار وقد حدث هذا تمامًا في الرهبانية أيضًا. ورأينا في القرن الثالث عشر كيف تسنمت الرهبانية ذرى الكرامة واحتضنت الطبقة الوسطى وأفسحت المجال للثقافة والعلم والتقوى. ولكن تلك النهضة التي ساقت الجماعات إلى الأديرة كانت فيها الضربة القاضية؛ لأن كثيرين اتخذوا طريقهم إلى الأديرة بدون ذلك الوازع الداخلي الروحاني وكثيرين دخلوا الأديرة، لا للهرب من العالم وذنوبه، بل التماسًا للراحة وعزوفًا عن الكدح والجهاد. وأمسى الدير أشبه بمجتمع من الكسالى المسترزقين، لا مجتمع من المتعبدين المتقشفين.

وأمام هذا الوضع الذي زاد سوءًا بالاستجداء، راحت طبقات الشعب والفلاحون يتساءلون أفي مثل هذه الحياة التي تعيش على كد الآخرين مرضاة الله، أم القيام بالواجبات النافعة بأمانة وإخلاص وسط العالم؟ وأخذ الناس يحسون أن الرهبانية ليست

بالضرورة المثل الأعلى للحياة المسيحية. لأن أسباب الزهادة والتقشف التي فرضها الرهبان المستجدون لم تكن كافية لتهذيب الروح ولم تكن الأوساط الرهبانية خالية من الفساد والإباحية. على أنه من الجور أن ننكر أن تلك الأوساط التي نظرت إليها طبقات الشعب شذرًا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، أنجبت فئة مختارة من الرهابين المثقفين ثقافة أخلاقية روحية. ولكن الحياة العامة في الأديرة انحدرت بعد سمو وعجزت شرائع التقشف والإذلال الصارمة عن ترويض الطبيعة البشرية الخاطئة.

روح الإصلاح:

ويخيل إلى الباحث أن كنيسة القرون الوسطى بعد أن أنضجت خير الثمرات وأشهاها للعالم المسيحي في تلك العصور، قد بلغت الآن ذروتها في تطورها الطبيعي وراحت البابوية تنزل من الأعالي مثقلة بأعباء المطالب الباهظة التي تورطت فيها وغدت مصدر كثير من التصرفات التي أساءت استعمالها، بل على الانقسام والشحناء. كما أن الرهبانية فتحت صدرها لطبقات شتى من الشعب وفرضت الزهد والتقشف على فئات لم تكن أهلًا لها، فانتهت بالإفلاس الأدبي. وتاقت الكنيسة، كما تاق العالم كله، إلى نبع من الحياة جديد وحان الزمن لإصلاح الكنيسة، رأسها وأعضائها معًا.

وامتلأت النفوس بهذا الشوق الشامل وأحست جميع العناصر بضرورة الإصلاح. بل لاحت في آفاق التفكير بشائر اليوم الآتي. ولم يكن القرنان الرابع عشر والخامس عشر فترة تقهقر في الواقع، بل هما الفترة التي غذت عهد الإصلاح وبدأت النهضة الفكرية التي أنجبت الزعماء المجاهدين في هذا السبيل.

طلائع المصلحين:

وفي منتصف هذا القرن برز من بين الصفوف (جون ويكلف) الإنكليزي المتوفي سنة ١٣٨٤م وقد هاله التنافس المعيب بين الباباوات وفساد الرهبان وزعماء الدين، فرفض مطالب الكنيسة في السيطرة على الدولة وتحدى سلطة البابا وشنها حربًا شعواء على الرهبان المستجدين وجعل الكتاب المقدس وحده مصدر الحق الطاهر النقي والمرجع

الوحيد لكل العقائد والتعاليم الكنسية.

وبعده نهض (جون هوس) من مملكة بوهيميا[٩]، متأثرًا بكتابات ويكلف وتهجم على مبدأ عصمة المراسيم البابوية وسلطان البابا في منح الغفران **Indulgences**.

وكان (هوس) أستاذًا بجامعة براج، فاضطهده أنصار البابوية وعقدوا مجمع كونستانس سنة ١٤١٥م واستدعوه للمحاكمة بعد أن أمنوه على حياته. وعلى الرغم من ذلك حكموا عليه بالموت حرقاً بالنار لأنه ملحد مهرطق، ولكنه لم يعبأ بذلك وظل أميناً لدعوته حتى الموت. وقد أضرمت النار التي أحرقت جسمه لهب ثورة عنيفة في بوهيميا كلها، لا ضد الملك (زيجزموند) فقط، الذي رضى بالحكم والاستشهاد، بل ضد كنيسة رومية. وظلت نيران الثورة متضرمة حوالى عشرين سنة لم تنته إلا بعد عقد معاهدة صلح بين مجمع بازيل وبين أنصار (هوس).

وقد بلغ الحماس بأنصار هذا الزعيم الديني مبلغًا عظيمًا حتى أوصى أحد زعمائهم عند موته، وكان أعمى، أن يصنعوا من جلده طبلًا يقرعونه لمناداة الشعب وحثه على الثورة.

كذلك نشهد في ألمانيا نهضة تصوفية جديدة يحمل لواءها زعماء أمثال الأستاذ ايكارت في ستراسبورج، الذين أشاعوا في النفوس روحًا تقوية جديدة استعاضت عن الأوضاع الخارجية في العبادة بالصلة الداخلية بالله. ونشهد أيضًا في ألمانيا الشمالية وفي سويسرا بعد منتصف القرن الرابع عشر جماعة (أصدقاء الله)، وجماعة (أخوة الحياة المشتركة) التي ظهرت بعد ذلك في ألمانيا وهولندا وأدخلت بين العلمانيين وطبقات الشعب وضعًا من أوضاع المسيحية التي تعتصم بالكتاب المقدس وتعلن الدين الحق في حياة البذل والتضحية، ومن هؤلاء الأخيرين يبرز القديس توما الكمبيزى المؤلف الشهير وصاحب كتاب (الاقتداء بالمسيح).

---

(٩) وكان ملك إنجلترا قد تزوج في ذلك القرن من أميرة بوهيمية.

وكان من دعاة الإصلاح في هذا القرن سيدة جليلة هي (كاترين ده سين) التي أنارت سبيل الحياة أمام نثيرين بحياتها النبيلة ومثلها الصالحة وتعاليمها الحقة، بل لقد استطاعت وهي امرأة أن تحمل البابا على أن يترك (أفينون) أرض السبى، إلى وطنه الأصلى في رومية.

كاترين ده سين:

ولدت هذه البطلة التي قدر لها أن تكون أعظم امرأة في القرن الرابع عشر في بلدة سين الإيطالية القائمة على تلال ثلاثة فوق سهل تسكان. وما تزال البلدة حتى اليوم محتفظة بعراقتها الأثرية القديمة، بحيث يسهل على السائرين في طرقاتها ليلًا أو المشاهدين شروق الشمس من وراء التلال الحارسة لها، أن يرجعوا بخيالاتهم على القرون الوسطى. فهناك قصور النبلاء والأمراء ورسم على جدرانها صور دروعهم وإلى جانبها بيوت تقادم عهدها وعلتها الأوساخ. وهناك الكاتدرائية الكبرى التي لم يكتمل بناؤها بعد والمخططة من الداخل بألوان جلد النمر. وكذلك السوق العظيم على شكل الصدفة وقد تطاولت فوقه القلعة الأثرية القديمة...

في هذه البلدة الصغيرة ـ التي ما زالت محتفظة حتى اليوم بصبغة القرون الوسطى ـ ولدت (كاترين) ابنة لرجل صباغ في سنة (الموت الأسود). وكان ذلك وباء مرعبًا رهيبًا اكتسح البلدة. وظنه البعض غضبة من السماء؛ لأن القرن الرابع عشر وصم بين قرون التاريخ بألوان قاتمة من العنف والقسوة. تلك كانت البيئة التي درجت في وسطها الطفلة التي كبرت لتكون بطلة وقديسة، لا في بلدتها فقط، بل في العالم كله..

في ذلك القرن امتلأت طرقات المدن بالمشاجرات بين أفراد الأسر المتنافسة وشاعت حوادث الإعدام والتعذيب العلنية، حتى اضطرت الجماهير أن تحتج اشمئزازًا من هذه المشاهد المفجعة، وحتى اضطر رجال الدولة إلى حمل المحكوم عليهم خارج أسوار المدن لتنفيذ الأحكام فيهم. أما في السجون، فقد جفت الشفاه من الظمأ وضمرت البطون من الجوع.

ومن أغرب الأشياء في حياة كاترين أن تموت وهي في الثالثة والثلاثين من العمر ولما تمض في الجهاد إلا سنوات معدودات وتنبت في وسط وضيع، ومع ذلك تحتل مكانة الكرامة والزعامة وتغدو أبرز شخصية في القرن الرابع عشر، لا كقديسة ومحسنة فقط، بل كإدارية وسياسية وسفيرة للبابا. ولا شك في أنه كان بها قوة أخلاقية هائلة ومقدرة فذة تبلغ حد العبقرية النادرة وقداسة هي أسمى مظاهر هذه العبقرية.

وانضمت في بدء حياتها إلى جماعة من الأخوات، لا كراهبة، بل كأخت مستجدة، تعتزل العالم ولكن تبقى على صلاتها مع أسرتها، على أن نهج الحياة الذي سلكت فيه والأعمال التي قامت بها، جعلتها فريدة بين أخواتها وقد أحاطت بها وهي صبية هالة من القداسة، ومع أن العالم كله اعترف لها بهذه القداسة فيما بعد، فإن بعضهم أنكرها عليها في حياتها؛ لأنها امتازت بالقداسة العاملة المجاهدة التي تخدم وتصلح.

وكان الموت الأسود الذي فشا في البلاد إبان طفولتها قد خلف وراءه تركة رهيبة ثقيلة وكان يشتد فتكه بين الفينة والفينة. وعاد الطاعون إلى سين وانتشر المرض فيها وألفت الأوباء المختلفة مرتعًا خصيبًا في تلك الطرقات القذرة والمسالك الضيقة، فاستوطنت هناك زمنًا طويلًا.

وكانت كاترين قبل كل شيء ممرضة ماهرة، عنيت بالأبرص وعالجت المصاب بالطاعون. بينما هرب الآخرون منه وحظر عليهم زيارته، ولما هجم الطاعون للمرة الثالثة في مدى ثلاثين سنة في بلدة سين، كانت كاترين أشبه بفلورنس نيتنجيل في ذلك الوقت الرهيب. ومات في ذلك الوباء أخوها وأختها وستة من الأحفاد الأحد عشر الذين كانت أمها تتولى تربيتهم وقدر على كاترين أن تدفن هؤلاء بيدها في قبورهم.

وذاع اسمها خارج نطاق بلدتها وكان صوتها العذب الحنون بلسم العزاء والتشجيع للمحتضرين وكانت لمسة يدها وصلواتها علة الشفاء للمرضى والمتألمين. وقد قيل إن ابنة الصباغ الفقير أبرأت مريضًا كان الطبيب قد فقد كل أمل في شفائه، فعلت شهرتها في آفاق البلاد.

وإنصافًا للتاريخ، ينبغي ذكر أن بعض مواطنيها قد أساءوا فهم عطفها ومحبتها واتخذوا من أساليب الصلاة والصوم والخدمة ذريعة للافتراء عليها والقذف في كرامتها وأهاجوا عليها الدعماء، حتى بلغ بهم الأمر حد اختطافها وهي مستغرقة في الصلاة بالكنيسة وجرها خارج البناء المقدس وطرحها في الطريق العام بعد لكمها ورفسها بالأرجل وهي لم تشعر بكل هذا حتى أفاقت ووجدت أصحابها حولها يبكون عليها.

ولكن عاصفة النمائم والافتراءات تهدأ ويحيط بها بدلًا عنها هالات من التقدير والاحترام وتروى عنها الأقاصيص للإكبار من خدمتها وعطفها وكرامتها في السماء وتخلق حولها أسطورة القداسة. ومثل هذه الأساطير لا تبتكر ولا تبقى على الأيام لو لم تسندها وفرة هائلة من التضحيات والولاء والشجاعة والحكمة ووفرة من الفضيلة التي نحسبها صنوًا للقداسة.

وكان أكثر جهادها بين الفقراء. ولكن حدث مرة أن حكم على أحد النبلاء بالموت لجريمة اقترفها. ورفض ذلك الأمير في سورة الحدث والغضب أن يتأهب للموت بالاعتراف أمام القسيس. فاستأذنت كاترين أن تراه. وما أن اختلت به حتى حملته على الاستسلام لمصيره المحتوم وطلب إليها أن تكون إلى جانبه ساعة إعدامه فقبلت وكان صوتها آخر الأصوات التي طرقت أذنيه واسمها آخر الأسماء التي رددتها شفتاه ساعة الموت.

وكتبت بعد ذلك رسالة إلى أحد رجال الدين تصف فيها توبته وإيمانه والعزاء الذي غلب رهبة الموت. وكانت تلك من الرسائل القليلة التي كتبتها؛ لأن تلك المرأة التي برزت شخصيتها وزعامتها لم تكن تعلمت القراءة والكتابة إلا بعد أن كبرت في السن وآثرت إلى آخر حياتها أن تملي رسائلها وتسمع الآخرين يقرأون لها. ولابد أنه كان لها من مواهبها الطبيعية ما عوضها هذا النقص في التعليم.

وقد شغلت في تفكيرها وأحلامها بكنيسة مصلحة وسلام شامل يعم أرجاء إيطاليا وحفلت أحاديثها وكتاباتها بهذه الأماني العذاب. ومرة التف حولها ألف من السامعين

وفدوا إلى سين من أنحاء إيطاليا لسماع صوتها وهم مأخوذون برقته وعذوبته. وقيل عنها مرة إنها حملت صليبًا وراحت تركض في الطرقات إبان ثورة واضطراب عام لتهدئة الثائرين. وقد التمس نصح هذه المرأة التي لم تنل قسطًا وافرًا من التعليم، ليس المتواضعون والمرتفعون من رجال الكنيسة فحسب، بل الولاة والحكام والجنود والعلماء. وأرسله البابا نفسه سفيرة له في (بيزا) وهي وحدها قد أفلحت فيما خاب فيه الآخرون، أي حمل البابا على الانتقال من أفينون إلى رومية.

على أن أعمالها وحياتها– على قصرها– لم تنته عند هذا الحد؛ فقد اندمجت في المنازعات العنيفة التي غمرت إيطاليا في ذلك العصر وهددوها بالقتل في فلورنسا. ولكن المأثرة العظمى التي خلدها لها التاريخ هي شجاعتها في تعنيف البابا الذي كان مترددًا في هجر المأوى الحصين الذي لجأ إليه في قصره المنيف. ولقد حلقت بعينيها في وجهه وقالت له: (أيها الأب الأعظم.. إن قيامك بالواجب وطاعتك لمشيئة الله، تفرضان عليك أن تهجر هذه الحياة الجميلة الهانئة وتنطلق إلى رومية حيث تنتظرك الأخطار والوباء والعناء وحيث يكون هناء أفينون مجرد ذكرى من ذكريات الماضي). هذه كلمات مثيرة تتفوه بها امرأة باسلة احتقرت نعومة الحياة وخلا قلبها من الخوف.

القرن الخامس عشر

مجامع بيزا وكونستانس وبال:

رأينا في القرن السابق طلائع المصلحين تزحف إلى الميدان. وها نحن نشهد في هذا القرن المجامع تنعقد، لرأب الانقسام في السلطة البابوية ووضع قواعد الإصلاح وتنظيم الكنيسة وكان الأساقفة في طليعة الداعين إلى مجمع بيزا في سنة ١٤٠٩م. وفي هذا المجمع وقف مندوب جامعة باريس وصرح على رؤوس الإشهاد بأن رأس الكنيسة هو المسيح وأن وحدتنا فيه وليست في البابا وكذلك الكنيسة تستمد السلطة من المسيح ذاته لعقد هذا المجمع. ومع ذلك فقد انفرط عقد المجمع دون أن يصل إلى قرار معين، وكان في ذلك الحين ثلاثة من البابوات يتنازعون السلطة واستدعى مجمع آخر في كونستانس (١٤١٤–١٤١٨م) وكانت الدعوة هذه المرة باسم البابا واسم الإمبراطور زيجزموند ملك بوهيميا وحضره أساقفة من كل أنحاء الغرب المسيحي ومندوبون من مختلف الجامعات وعلماء الدين ورؤساء الأديرة. وقد أبان المؤتمرون غرض اجتماعهم برسالة أذاعوها في سنة ١٤١٤م جاء فيها: (إن أهدافنا هي تنصيب بابا صالح والحد من السلطة البابوية وإعادة حقوق الكنيسة البدائية الأولى ووضع الأحكام لتعيين الباباوات والكرادلة؛ للحيلولة دون الانقسام في المستقبل وإزالة المساوئ القائمة في إدارة الكنيسة ونظمها).

وبدأ المجمع بإصدار القرار التالي في غيبة الباباوات والكرادلة: (انعقد هذا المجمع انعقادًا شرعيًّا بسلطان الروح القدس، ممثلًا للكنيسة الجامعة المجاهدة التي تستمد سلطانها من المسيح. وإنه لفرض على كل إنسان، مهما كانت رتبته أو كرامته أن يطيع قراراته في كل المسائل الخاصة بالدين وإزالة أسباب الانقسام الحالي وإصلاح الكنيسة، رأسها وأعضائها). ولتحقيق هذه الأهداف، قرر المجمع عزل الباباوات الثلاثة المتنافسين ونصبوا بابا جديدًا هو مارتن الخامس (١٤١٧م) واعترف الجميع بصحة تعيين هذا البابا الجديد وزال التصدع والانقسام. وفي الوقت نفسه قرر المجمع أن تكون سلطة مجمع الأساقفة فوق سلطة البابا وقد أبطل هذا القرار السلطة الكنسية العليا التي وضعها جريجوريوس

السابع في يد فرد واحد وعاد الدستور الكنسي الإرستقراطي القديم. وقد رفعت هذه القرارات إلى البابا مارتن الخامس. وبعد ذلك بقليل انفرط عقد المجمع ولم ينفذ شيئًا منها وأخفق المجمع في كل جهود الإصلاح ولم يفلح إلا في الحكم بإحراق اثنين من الملاحدة الهراطقة أحدهما (هوس) الزعيم البوهيمي كما ذكرنا من قبل.

وكان من عوامل إخفاق المجمع التحاسد القومي بين أعضاء الدول؛ لأن مندوبي إيطاليا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا لم يتفقوا في الرأي لما بين دولهم من حزازات قومية وأيضًا تردد أكثر المندوبين وعدم إخلاصهم. فالأساقفة أرادوا إصلاح البابا والكرادلة ولكنهم ترددوا في إصلاح العيوب والمساوئ اللاصقة بهم وخشي مندوبو الجامعات تزايد سلطان الأساقفة، فوقفوا إلى جانب الكرادلة ضدهم.. وضاعت الفرصة السانحة ومرة أخرى أخفق دعاة الإصلاح.

وبعد ذلك بقليل يدعو البابا مارتن إلى عقد مجمع آخر هذه المرة في مدينة بال (١٤٣١-١٤٤٣م). ولكن يشاء الحظ العاثر أن يموت هذا البابا ويخلفه آخر يقف موقف المعارضة ويقضي هو وحزبه من المتزمتين المعارضين على قرارات الإصلاح ويصدر البابا أمرًا في سنة ١٤٣٧م بنقل المجمع إلى مدينة (فرارا) وهناك يظل منعقدًا معطلًا إلى أن يموت وتنتهي بذلك سلطة المجامع وحياتها ويتم وأد الإصلاح وينقلب البابا بيوس الثاني (١٤٥٨- ١٤٦٤م) الذي كان في مجمع بال نصيرًا لحزب الإصلاح، فيصير عدوًّا لدودًا ويهدد كل من تحدثه نفسه باللجوء إلى فكرة المجامع العامة بحرمانه واتهامه بالزندقة والمروق عن الدين. ومرة أخرى تقبض البابوية على أعنة السلطة الكنسية ويمسى الإصلاح أملًا مكبوتًا يتردد بين جوانح الأحرار المجاهدين يترقب الساعة الملائمة للكفاح والجهاد.

***

ومنذ إخفاق مجمع بال إلى ظهور لوثر المصلح العظيم، ظلت السلطة البابوية بأيد رجال من الساسة الإيطاليين، كانوا مثقفين ثقافة عالمية رفيعة وأنصارًا للآداب والعلوم

والفنون وقلما عنوا بالشؤون الكنسية الدينية. وكان بعضهم من عظماء البنائين، فأعاد أحدهم بناء الفاتيكان وهدم أحدهم كنيسة القديس بطرس القديمة التي يرجع تاريخ أعمدتها إلى عهد قسطنطين وشرع في تشييد أخرى على أنقاضها، وكانوا كلهم تقريبًا من رجال السياسة وكانت الروح القومية قد دبت الآن في شعوب أوروبا وأخذت تضعف فكرة السلطان الجامع المطلق الذي فرضه البابوات والأباطرة في القروف الوسطى ويقوي الشعور القومي والوعي الوطني والسلطان السياسي داخل الدولة الواحدة. ومن ثم نرى السلطات الملكية في فرنسا وإنجلترا وأسبانيا تؤيد استقلالها وتفرض سيادتها ونرى السلطات البابوية من عهد بورجيا الكسندر في سنة ١٤٩٢م تشتبك في دسائس لا نهاية لها وتبرم معاهدات مع ملوك ألمانيا وأسبانيا وفرنسا وإنجلترا لتوطيد سلطانها ومكانتها السياسية في إيطاليا وقد أثار أحدهم حربًا كان فيها قائد الجيش ورئيس مجالس الحرب ومفتش الجيوش ومدير العمليات الحربية.

نهضة إحياء العلوم والآداب:

وفي هذا القرن نشهد نهضة مشرقة تمهد السبيل للإصلاح المنشود التي يسميها التاريخ (إحياء العلوم والآداب The Renaissance). وكان عالم الغرب قد بهرته الكشوف الحديثة التي أعلنها المستكشفون البرتغاليون واستهوته أيضًا الكشوف العلمية الأدبية التي أعلنها فطاحل الأدب والعلم والفن. وكانت كتابات اليونان والرومان القديمة قد أهملت في زوايا النسيان أو عبثت بها الأيدي فبددتها. والآن يستيقظ الناس للبحث عنها وإحيائها وتشرق في الأفق مرة أخرى الحضارات القديمة التي أخصبت العالم القديم يومًا. وفي هذه الأثناء تنهار الإمبراطورية الرومانية الشرقية وتسقط القسطنطينية بأيدي الأتراك، فيفر العلماء غربًا حاملين معهم كتبهم وثقافتهم القديمة وتتلهف أوروبا كلها لتعلم اللغة اليونانية.

ودبت هذه النهضة الجديدة في إيطاليا أولًا ومنها انتقلت إلى أنحاء أوروبا. ولكن كثيرين في تعبدهم للآداب الوثنية القديمة يتحولون وثنيين في آرائهم وآدابهم ويحتفظون

بالمسيحية اسمًا ويغدون خطرًا على الكنيسة. ولذلك نرى في أواخر القرن الخامس عشر والسادس عشر رجالًا عظماء ينهضون لصد تيار الإلحاد والعبث بالدين ويكافحون في سبيل إصلاح الكنيسة ورجالها ونظمها.

سافونا رولا:

ومن أشهر الذين أنجبهم هذا القرن، المصلح العظيم (سافونا رولا). ولابد لنا هنا من كلمة تمهيد قبل الخوض في سيرة هذا الرجل:

بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية وزوال عرشها، أنشأت قبائل القوط مملكة في إيطاليا جعلت عاصمتها مدينة (رافنا). لكن هذه المملكة لم تعمر أكثر من قرن واحد، لأن قبائل الغزاة انحدرت من الشمال ومزقت شملها ومزجت القوط بسكان البلاد. وأشهر أولئك الغزاة اللومبارديون الذين أقاموا بالقسم الشمالي من إيطاليا، فغدت البلاد تعرف باسمهم حتى اليوم (لومبارديا). ولم تكن الرابطة السياسية بينهم قوية شأن سائر القبائل الجرمانية القديمة، ولذلك انقسمت إيطاليا الشمالية إلى ولايات منفصلة أشبه بجمهوريات صغيرة مستقلة لكل منها مدينة حرة. أما القسم الأوسط من إيطاليا، فكان خاضعًا للبابا وكانت مدينة (نابولي) عاصمة المملكة الجنوبية.

كما كانت (فلورنسا) أشهر المدن الشمالية المستقلة وتقع على ضفاف نهر (الارنو). وهي مسقط رأس (دانتي) الشاعر الخالد و(ميشيل أنجيلو) المثال البارع، وكلاهما من أشهر نوابغ التاريخ، وقد عاش بين زمنيهما (سافونا رولا) (١٤٥٢–١٤٩٨م) وهو لا يقل شهرة عنهما.

ولن تقدر أن تستوعب هذه الصفحات سيرة مطولة لحياة ذلك الرجل التي كانت مأساة من مآسي القرن الخامس عشر. وقد صنفت الكاتبة السيدة جورج إليوت رواية (رومالا) وسطرت بين ثناياها أبلغ وصف لهذه المأساة:

وكان استقلال فلورنسا في ذلك الزمن اسميًّ فقط؛ حيث كانت في الواقع تحت سلطة أسرة مستبدة هي أسرة (مديتشي) الشهيرة التي حكمت فلورنسا بالظلم

والاستبداد، مؤثرة مصالحها الخاصة ومصالح أنصارها على مصالح الشعب. فكان الفقراء والضعفاء يسلبون وينهبون وليس من يردع. وكانت البلاد في أدنى مستوى دينيا وأدبيا في الوقت الذي ازدهرت فيه نهضة إحياء العلوم والآداب والفنون. وكانت المؤلفات الوثنية قد تمكنت من علوم الناس، حتى تضعضع إيمانهم وآدابهم وفشا بينهم الكفر والفساد وفقدت الكنيسة تقواها وفضائلها وتاجر الزعماء بالوظائف الدينية كما يتاجرون بالسلع في الأسواق، وكثيرًا ما شغلها رجال عالميون أُشربوا آداب الكتابات الوثنية وأفكارها ونظمها. والأسوأ من هذا أن تربع على كرسي البابوية في رومية (إلكسندر بورجيا) الذي ألمحنا إليه من قبل. وهو رجل لم يشرف الكرسي الذي جلس عليه وكان من الذين دمغهم التاريخ بميسم الشر والفساد.

كان العالم أسود في نظر الأتقياء القليلين، أنصار الحق وأتباع الصلاح الذين عاشوا وسط ذلك الظلام الدامس– ومنهم الفتى سافونا رولا أحد الرهبان الذين هربوا في تلك الأيام من أباطيل العالم وشروره ولجأوا إلى حياة الرهبنة. وقد استاء هذا الفتى من شرور العالم وانحطاط الكنيسة التي كانت في عينيه أشبه بفاجرة متنكرة طردت سيدة نبيلة وحلت مكانها. فلم يسعه إلا أن يفتح فاه ويرفع صوته إلى عنان السماء شاكيًا إليها فساد الكنيسة وظلم الدولة. فكان لمناداته وقع عظيم في فلورنسا، حتى كانت الجماهير الحاشدة تزحم الكنيسة لسماع عظاته. وقد تاب كثيرون عن خطاياهم واستدعاه (لورنزو ده مدتشى) الحاكم المستبد وهو على فراش الموت واعترف له بخطاياه. وتنبأ الراهب الشاب عن قضاء إلهي يوشك أن يحل بالمدينة ما لم تتب وترجع عن غيها، وقد صدقت نبوءته؛ إذ غزا ملك فرنسا البلاد وانقلبت الأحوال وغدا اسم سافونا رولا فيها أشهر من نار على علم، حتى اصطفاه الشعب ليفاوض ملك فرنسا في أمر الصلح. واضطر الملك الغازي تحت تأثيره وقوة حجته وتهديده بأن أهل فلورنسا سيدفعون الظلم ويجاهدون في سبيل حريتهم إلى آخر رجل– أن يخلي المدينة ويرحل عنها بجنده– وكان هذا إتمامًا لنبوءة ثانية نادى بها الراهب الصالح، فارتفع شأنه وعلا قدره في أعين مواطنيه.

وإذ ينقضي عهد استبداد أسرة (المديتشي) تتجه إليه الأبصار كالزعيم المرموق

والناصح المرتجى، فيشير على الشعب أن يشيدوا المملكة على مبادئ جديدة من الحق والبر. وإذ يغدو صاحب النفوذ المطلق في وطنه يستخدم كل مواهبه وسلطانه لخير الشعب والبلاد، غير عابئ براحته وحياته، حتى أنه لم يعتزل حياة الرهبنة، بل ظل ينام في غرفة حقيرة. وقد أطاعه الشعب وأصغوا بأسماعهم إلى نصحه وإرشاده، فأعادوا النظام الدستوري وألغوا المحاكم القانونية وقضوا على فساد الآداب وانتعشت المدينة بحياة دينية جديدة.

ولكن كان لهذا المصلح الشاب أعداء شأن كل المصلحين في هذا العالم الذي كثيرا ما يحب الظلمة أكثر من النور. فقام الذين أصابهم الغرم من إصلاحه والذين أبغضوه بسبب جمودهم وعمى قلوبهم وأثاروا عليه دهماء المدينة وجهًا لها. فأنكر هؤلاء خدمته لبلادهم وتكريس نفسه للخير العام وتآمروا على إسقاطه. وقد سنحت لهم الفرصة عاجلًا، فإن سافونا رولا لم يقنع بإصلاح المدينة، بل كان يحلم بإصلاح البابوية، فراح يشهر بالبابا إلكسندر ويطلع الناس على معايبه ويدعو الملوك المسيحيين إلى عقد مؤتمر عام للبحث في القضية. ولكن قوة العالم صدمته وبطشت به، فحرمه البابا إلكسندر وساعد أعداءه، فقبضوا عليه وعذبوه وأهانوه وأخيرًا علقوه في الساحة العامة بفلورنسا وأحرقوا جسده بالنار.. وهكذا يستشهد الرجل المجاهد في سبيل الحق.. وكم للحق من شهداء في تاريخ البشر.

وبين سافونا رولا ويوحنا المعمدان شبه عظيم؛ فإن كلا منهما شهد للحق وأعاد إلى الأمة آدابها المهدورة ووقف في وجه حاكم ظالم عات وأشهر فساد الكنيسة ورياء رجالها، وأخيرًا سقط فريسة بين مخالب الكهنة المفسدين ودعاة الإثم الذين يفضحهم عادة الشاهد الأمين.

طرق الإصلاح:

من ثم نرى المصلحين يحاولون في القرنين الرابع عشر والخامس عشر إصلاح الكنيسة بطرق ثلاث:

ـ بعضهم عاهد نفسه على أن يحيا حياة التضحية والإيثار والتأثير في الآخرين بمثلهم الصالحة وتعاليمهم السامية. ومن هؤلاء جماعة (الإخوان) في هولندا الذين جعلوا كل شيء بينهم مشتركًا وانصرفوا إلى الصلاة والدرس والأعمال النافعة. ومنهم توما الكمبيزي الذي وضع كتابًا من أشهر الكتب المسيحية هو (الاقتداء بالمسيح)، وكان هو أحد جماعة (الإخوان) وأن يكن صار فيما بعد راهبًا. ومنهم السيدة النبيلة (كاترين ده سين) التي انعكست حياتها الجليلة وتعاليمها الروحية فألقت وشاحًا من النور على كثيرين وحملت البابا على أن يضحي بحياة الدعة والاستكانة ويعود إلى رومية حيث الكفاح والجلاد في سبيل الواجب.

ـ وفريق آخر تهجم على مساوئ العصر وشروره علنًا وكثيرون منهم استحدثوا نظريات ونظمًا جديدة تشرح مطالب الكنيسة والدولة وتجد من سلطة البابا أو تنكرها. ومن هؤلاء (دانتي) (١٢٦٥– ١٣٢١م) في إيطاليا و(جون ويكلف) (١٣٢٤– ١٣٨٤م) في بريطانيا و(جون هوس) (١٣٦٩– ١٤١٥م) في بوهيميا. وقد أحرق هذا الأخير حيًّا بعد اتهامه بالإلحاد والهرطقة. وكان أمثال هؤلاء رجالًا صالحين وأبطالًا في شعوبهم وشهداء في سبيل الإصلاح.

ـ وطائفة ثالثة من المصلحين تشهر بمساوئ العصر علنًا ولكنها تبقى موالية مخلصة للسلطة البابوية ولنظم الكنيسة القائمة. وبين هؤلاء (ريجو) رئيس أساقفة روان بفرنسا الذي قام بزيارة الكنائس والأديرة وسجل في كتابه ما شهد من جهل رجال الدين وفسادهم ومن إباحية الرهبان وحنثهم بالنذور التي قطعوها على أنفسهم.

وفي القرن الخامس عشر، تفاقمت المساوئ في الكنيسة والدولة واشتدت المعارضة للبابوية كما رأينا واكتسب الإصلاح أنصارًا وكان لنهضة إحياء العلوم والآداب آثار من الخير والشر معًا. وبحلول القرن السادس عشر، يشهد مسرح التاريخ طائفة مختارة من عظماء المصلحين مثل: إراسموس، لوثر، كالفن، أغناطيوس لويولا، وفرانسز سافير.

القرن السادس عشر

في بكور القرن السادس عشر كنت تسمع في كل أرجاء أوروبا صيحة داوية ترن نغامتها بألحان الابتهاج والظفر. وكان مبعث تلك الصيحة الظافرة ما أسماه التاريخ (عصر إحياء العلوم والآداب والفنون). فمرة أخرى تجلى العالم الكلاسيكي العريق في كل جماله وروائه أمام أنظار الشباب الطامح وبعثت فلسفة أرسطو وأفلاطون وعلوم وفنون الجهابذة الأقدمين بما اقترن بها من ألمعية عجيبة وعقلية خالدة. ومرة أخرى تشرق أنوار هوميروس، شاعر الإلياذة القديم.

النهضة العلمية والإصلاح:

كان عصرًا ازدهرت فيه العلوم والآداب والفنون واشرأبت فيه الأعناق للتطلع إلى كل جميل رائع وبرزت روح قومية على غرار الأوضاع النبيلة التي غذتها المثل السياسية العليا في العالم القديم، فتوارت أنظمة القرون الوسطى الاستبدادية.

كان عصرًا تمردت فيه الأرواح الناشطة على حياة الزهد والتقشف التي قبعت دهورًا في خبايا الأديرة والكهوف وألقت رداء بهيجًا لامعًا على الحياة الناشطة العاملة.

صدحت الأنغام والألحان بإنجيل جديد– هو إنجيل الثقافة– تهل طلعته في إيطاليا ليملأ جوانب الغرب كله وتخاذلت آراء ونظريات القرون الوسطى أمام روح العالم القديم الذي بعث بعد هجوع وأقبل عصر جديد ملئ بالاحتمالات الكثيرة.

أكان هو البعث الجديد الذي تلقفه القرن الخامس عشر في لهفة وتوق؟ أكان هذا الإنجيل الجديد الذي حلمت به القرون الوسطى وترقبته كما يترقب الشتاء إيراق الربيع الناضر؟!

كلا! إن الذي تاقت إليه القرون الوسطى لم يكن إحياء، بل إصلاحًا، لم يكن تجديد

العلوم والآداب والفنون، بل تجديد الكنيسة– رأسها وأعضائها. ورسالة حية تعزى الفقراء وتدخل الغبطة إلى نفوس الخاطئين وتحي موات الجنس البشري كله...

كان الهدف الذي رمت إليه قوى القرن الخامس عشر التي استيقظت وتكتلت في نهضة متحدة– الإحياء الأخلاق الروحي بتجديد حياة الكنيس. وكانت الكنيسة قد امتزجت بالعالم وفقد الملح مذاقه وديست مطالب المسيحية الحقة تحت مواطئ أقدام الذين دعوا ليكونوا رسل الدين ودعاة الحق والفضيلة ونماذج صالحة للرعية.

ولقد رأينا ما آل إليه أمر مجامع الإصلاح في كونستانس وبال التي انعقدت في النصف الأول من القرن الخامس عشر وشهدنا رغبات إصلاحية قوية تكاد تكون طوفانًا جارفًا يريد أن يحمل أمامه الغرب كله ويكتسح البابوية بكل ما اقترن بها من مساوئ. وكانت ثمة آمال ومساعٍ، ولكنها خابت وحبطت.

ولم تفلح النهضة العلمية في إصلاح حال الكنيسة؛ لأنها كانت نهضة وثنية في قلبها وجوهرها ورضيت أن تخضع في الظاهر لسلطة الكنيسة لأنها لم تكن تعنى بالحق المسيحي وعنيت فقط بالحق الإنساني المجرد. ولم يكن إحياء العلوم والآداب إحياء للأخلاق؛ فلقد ظهر في المدن والدويلات الإيطالية طغاة أشرار متجبرون، احتقروا كل شرائع الآداب والأخلاق. وما شهد التاريخ من قبل مجتمعًا تلمعت ثقافته الرفيعة وأخصبت مواهبه وملكاته وتجلت فيه قوى الابتكار التي أبدعت روائع الفن– ومع ذلك نجد فيه الفساد والتعفن الأخلاقي– نقول ما شهد التاريخ مجتمعًا كذلك المجتمع الإيطالي في النصف الآخير من القرن الخامس عشر. وحسبه أن يكون المجتمع الذي أنجب قيصر بورجيا(١٠) الذي كان مثله ومثاله وغوله وهوله، العصر الذي كتب فيه ميكافيللي كتابه (الأمير) الذي مجد فيه أنانية الأمراء القاسية الباردة الخليعة. وحتى حين ننظر إلى صور العذراء والقديسين التي أبدعها فنانو ذلك العصر وإلى روائع رفائيل الفنان العظيم، نجد على الرغم من جمالها وروعتها وسموها، بأنها مبتكرات إنسانية خلت من الروحانية.

---

(١٠) هو ابن الكسندر بورجيا أحد باباوات ذلك العصر.

البابوات في ذلك العصر:

وفي تلك الفترة تولى شؤون الكنيسة رجال أمثال إسكندر السادس (١٤٩٢- ١٥٠٣م) ويوليوس الثاني (١٥٠٣- ١٥١٣م) وليون العاشر (١٥١٣- ١٥٢١م) وهؤلاء البابوات، ولو أنهم لم يخلوا من بعض المحاسن، كانوا رجال دنيا قبل أن يكونوا رجال دين، فهم يمثلون العصر الذي عاشوا فيه كل التمثيل. ولقد اتجه الناس والثقافة نحو أمور الدنيا، فصار البابوات رجال دنيا أيضًا ومثلوا بذلك عصرهم. فإسكندر السادس من آل بورجيا الأسبانيين كان رجل دنيا بمعنى الكلمة- والحقيقة أننا لا نستطيع أن ندافع عن مسلكه. كما أن المؤرخين- حتى الذين كتبوا منهم تحت إشراف الكنيسة- لم يستطيعوا تسويغ أعماله ومسلكه في سياسته وفي شخصه، على أنه لا يستطيع أحد أيضًا أن يتهمه بأنه كان يهمل واجباته الدينية. وكان على الغالب محبوبًا من الذين يتصلون به. ففي قامته الطويلة نوع من المهابة، وكان يقيم الحفلات الباهرة كأي ملك من الملوك ولا يتورع عن إزالة أي خصم سياسي من طريقه، بالحيلة أحيانًا وبالعنف أحيانًا كثيرة.

أما يوليوس الثاني، فكان من أعظم البابوات الذين جلسوا على عرش القديس بطرس وعمل لإعادة بناء تلك الكنيسة العظيمة برومية التي تعد أعجوبة الكنائس جميعًا وهو الذي استخدم أعاظم رجال الفن، أمثال: رفائيل وميشيل أنجلو. وكان رجلًا قليل الشهوات لا يؤخذ عليه شيء في مسلكه أيام توليه عرش البابوية. ومع ذلك كان رجل دنيا، فهو يحب أن يسير الجيوش على خصومه ويتولى قيادته بنفسه ويحاصر المدن ويلبس أحيانًا عدة القتال.

أما ثالثهم ليون العاشر، فهو من آل مديتشي وكان يشجع العلوم والفنون. ويقال إنه أولع بكتب الأقدمين حتى كاد يفضل أساطير الوثنية على حقائق المسيحية. وكان رجلًا شديد الحيلة مع خصومه، متقلبًا في سياسته، لا يثبت على وعد أو عهد.

تلك صور البابوات الذين عاصروا النهضة العلمية في كلمة. فهم رجال دنيا قبل أن يكونوا رجال دين، وهم رجال يمثلون عصرهم حق التمثيل.

لم تفلح النهضة العلمية في إحياء الكنيسة، ولكن الإصلاح يبزغ نوره من ناحية، ما كان ينتظر أن يبزغ منها نور– من خلايا الأديرة. فالرهبان خلقوا كنيسة القرون الوسطى بالنهضة التي بدأت في دير كلوني والراهب هو الذي يحطم بيديه هذه الكنيسة.

وكان الرهبان قد صاروا طبقة ممقوتة في الكنيسة؛ فهم أرادوا الفرار من العالم وتركوا كل شيء. ولكن العالم الشرير الأثيم الذي حملوه في قلوبهم تعقبهم إلى عزلة البرية ومناسك الزهد وابتلعت الرهبانية في العالمية الدنيوية التي رغبت في الإفلات منها. على أنه إذا صدق هذا القول على الكثرة، فقد كان هناك قلة تمسكت بالبر والصلاح والرهبانية السليمة التي جاهدت في سبيل الخلاص بنبذ العالم ولذاته وأطايبه وبأساليب من التقشف والزهد، ألحت الآن على الأخيار الصالحين بأن الإنسان لن يقدر أن يخلص نفسه وأن أعمال الناموس لن تبرر بشرًا وكل الجهود البشرية لن تحول غضب الله العادل القدوس الذي يبغض الخطية ويفتقد المذنبين إلى الجيل الثالث والرابع...

تلك كانت النظرية الدينية الجديدة التي ألحت على الراهب لوثر. وقد أحس بثقل الناموس الإلهي على ضميره وعاش فترة من الزمن معذبًا نفسه وجسده جراء مصارعته الروحية العنيفة في سبيل خلاصه. وامتلأت نفسه بهيام سمائي ردد فيه نغمة واحدة محببة (البار بالإيمان يحيا). فالإنسان يتبرر لا بأعماله، ولا بتعذيب نفسه ولا بعيونه عن العالم، بل بالإيمان فقط، بالنعمة الرحيمة الوفيرة التي لا ينضب معينها.

لوثر:

تلك كانت النوازع الداخلية الروحية التي حملت لوثر على أن يتمرد على حياة الرهبنة وتضيق بها نفسه كل الضيق. أما العوامل الخارجية التي ساقته إلى الخروج عن الطاعة، فهي نظام بيع (الغفرانات) الذي جرت عليه الكنيسة في القرون الوسطى.

وقد آمن الكاثوليك أن كل أعمال البشر تنال جزاءها الوفاق. أما في الحياة أو في تلك الفترة بعد الموت التي يسمونها (المطهر) والتي تتأهب فيها النفس للسعادة الخالدة. وقد آمنوا أن البابا مستطيع أن يقصر أجل (المطهر) بمنحه الغفران للأحياء أو الأموات.

وكانت تلك (الغفرانات) تباع بالمال على أن يندم الخاطئون على ذنوبهم وينيبون عنها بالتوبة. وكانت تمنح للفقراء مجانًا. لكنَّ وكلاء البابوية أساءوا استخدام هذه السلطة واتخذوا منها وسيلة لابتزاز الأموال. والأدهى أنها شجعت أفراد الشعب على التخلص من ذنوبهم بأي ثمن، ناسين أن هذه الذنوب تجرح قلب الله وتخجل الكنيسة. وقد ناضل كثيرون من أخيار الكاثوليك ضد هذه المساوئ وسفهوا علنًا تصرفات بائعي (الغفرانات).

وفي سنة ١٥١٧م، أصدر البابا ليون العاشر غفرانًا عامًّا للعالم المسيحي كله؛ وكان الغرض منه الحصول على المال اللازم لإتمام بناء كنيسة القديس بطرس في رومية. وكان رئيس الأساقفة (ألبرت مينز) وكيلًا عن البابا في بيع (الغفرانات) في بعض أجزاء الإمبراطورية الألمانية يومئذ. ولكن قيل إن نصف الأموال التي جمعها من أبرشيته اغتصبها لنفسه وسدد بها بعض ديونه التي اقترضها لصدرته. ومن ثم نرى هذا النظام الذي وضعته القرون اوسطى يتحول الآن إلى تجارة حقيرة وكان المفروض– نظريًّا– أن يمنح الغفران للتائبين النادمين فقط.

وكان لوثر في ذلك الوقت راهبًا حسب رتبة أوغسطينوس وأستاذًا لعلوم الدين وراعيًا لكنيسة ويتنبرج. وكان يرى التائبين الذين يعترفون له بخطاياهم والذين اشترط عليهم الندم والتوبة واسنحاق القلب، يقدمون له صكوك غفرانهم بديلًا، فأحسن أنه قد أهين في خدمته وأقدس واجباته. وقد ألهم في مصارعته الروحية وبوحي رئيسه ونفر من زملائه أن الإيمان هو الشرط الكافي الوافي للتبرير، وقد اشمأزت طبيعته الدينية من تدنيس هذه الظواهر الروحية الداخلية ومن (بيع النعمة بالذهب). وفي ضرام حماسه علق على باب كنيسة ويتنبرج بحوثه الخمسة والتسعين عن منح (الغفران). وقد كتبها باللاتينية. وحسب عادة ذلك الزمن تحدى فيها الخصوم ودعاهم إلى مجادلة علنية. وكانت مكتوبة بأسلوب وبصياغة تثير تفكير الخاصة من العلماء دون عامة الشعب الألماني. وقال الراهب الأستاذ إن غفران الخطايا يمنح لكل مسيحي يتوب ويندم بدون حاجة إلى صك، وإن غفران البابا ليس إلا إعلانًا للغفران الإلهي، والإنجيل نعمة الله يأبى هذه التصرفات

المخزية التي يقترفها تجار منح الغفران.

ولم يكن لوثر يقصد مهاجمة البابا أو نظام الكنيسة، ولكنه أحس أن الحبر الأعظم- حين يقف على المخازي التي يقترفها وكلاؤه في إعنات الناس- يؤثر أن تهدم كنيس بطرس وتحرق بالنار على أن تبنى من جلود الشعب وعظامه. أجل، أحس الراهب أنه يدافع عن وجهة نظر البابا ويفضح المتاجرين الآثمين. ولكن المعركة التي اضطر إلى خوضها في سبيل عقيدته، ساقته سوقًا إلى الشطط الذي آل إليه أمره فيما بعد واضطر إلى أن يعلن جهرة أن الإيمان الذي استقاه من الأسفار المقدسة والذي بات مصدر قوته وحياته، يناقض- ليس العقائد التي اندست في خلال القرون الوسطى وحسب- بل نظام الكنيسة الحالي كله. على أنه ارتضى- بناء على رجاء القاصد البابوي في ألمانيا- أن يصمت بشرط أن يصمت خصومه أيضًا. لكن هؤلاء لم يبروا بوعدهم وراموا إقامة مساجلة علنية في ليبزج، فأحس لوثر أنه غدا في حل من تعهده وراح يقارع خصومه وجهًا لوجه واضطر أن يصرح على رؤوس الأشهاد بأن سلطة البابوية ليست ذات مصدر إلهي وأنها من مبتكرات تطورات التاريخ أشبه بسلطة الإمبراطور الألماني وأن الاعتراف بهذه السلطة ليس من مقتضيات الخلاص.

اتخذ الخطوة الحاسمة. وبعد أن رفض المثول بين يدي البابا الذي استدعاه إلى رومية وجاهر في مناظرة خصومه بأنه لا يؤمن بالسلطة البابوية وبعد أن نشر عقائد إيمان الكنيسة باللغة الألمانية لكي يفهمها الشعب- بعد كل هذا لم يكن بد من اللجوء إلى الشعب الألماني ذاته بألفاظ تستعر بنار الحماس، مناديًا إياه أن يطالب بحرية الفرد في الدين.

والذي هدف إليه لوثر الآن هو إنشاء كنيسة ألمانية قومية مستقلة وحرية الأفراد في كثير من الشؤون الدينية. فقد أعلن أن للرجال والنساء أن يكونوا رهبانًا وراهبات إذا شاءوا، ولكن من حقهم أيضًا أن يهجروا الأديرة إذا لم تطمئن نفوسهم إلى هذه الحياة. وأصر على أن خلاص الناس رهين بالإيمان بالله، لا بالأعمال الصالحة التي يأتونها، وقال

إن صلوات البشر وأعمالهم ينبغي أن تصدر عن وازع محبة الله والاعتراف بفضله وهو المشفق الرحوم الغافر الذنوب. ولم يقبل أن تكون الصلوات والأعمال الصالحة بمثابة (رصيد حساب روحي في البنك) يستعين به المرء على نيل الخلاص.

ومما علم به أن حياة الرهبان والراهبات ليست أفضل ولا أسمى من الذين يخدمون الله بأعمالهم اليومية في معترك الحياة وآمن بأن الكهنة رجال عاديون أختيروا لتمثيل الشعب وقيادته في العبادة، وليسوا أشخاصًا خلعت عليهم الكنيسة نفوذًا وخواصًا لن تنزع منهم.

وكان من جراء هذا؛ أن حرمه البابا وأمر بإحراق كل كتاباته. فما كان من لوثر إلا أن أحرق كتاب (قانون الكنيسة) وانثنى طلابه ومريدوه في انفعال مستبد، يحرقون الرسالة البابوية ومؤلفات خصوم زعيمهم– في نار كبيرة بمدينة ويتنبرج.

وعند ذاك كان أمراء الألمان السبعة الذين حق لهم اختيار الإمبراطور قد بايعوا تشارلس الخامس ملكًا عليهم، فاستدعى لوثر إليه ليجهر بعقائده أمام الجمعية الوطنية (مجلس النواب) في ورمس. فانطلق مع نفر من أنصاره في عربة مغطاة وأمامهم المنادي الإمبراطوري وقد رفع علمه الأصفر ذا النسر المزدوج دلالة على أنهم في حمى الإمبراطور. وكان لوثر يخطب الناس في كل محاط الطريق، فأثار حماس الجماهير الصاخبة واندفع الناس من بيوتهم يحيونه وهو داخل المدينة. وأثناء انعقاد مجلس النواب، كتبت على الجدران عبارات تهديد تنبئ أن ثورة مسلحة ستنشب إذا أصاب لوثر مكروه.

وإذ يقف الراهب أمام الإمبراطور في اليوم التالي، يقرر في غير مواربة أنه لا يتقيد، لا بأوامر البابا، ولا بقرارات المجامع العامة، وهو لا يخضع إلا لضمير وتعاليم الأسفار المقدسة، وختم كلامه قائلًا: (على هذا عاهدت نفسي وسأكون على العهد مقيمًا. أعانني الله).

ثم عاد لوثر إلى مقره وكان الإمبراطور تشارلس الخامس يلتمس في ذلك الوقت فضلًا من البابا، فعزل الأمراء الألمان الذين انتصروا للراهب المصلح، ثم استدعى الباقين

وأعلن فيهم أن لوثر خارج على القانون. كان هذا ولما تمض عشرون يومًا على مغادرته المدينة.

على أن أنصاره كانوا متأهبين. وبينما كان في طريقه، خرجت كوكبة من الخيالة من غابة كثيفة وأوقفوا العربة وحملوه معهم. وهناك في قلعة ورتبورج الكبرى أخفاه أمير ساكسوني ووضعه تحت حماية وظل مدة متخفيًا في بذلة فارس فقير. ومن مخبأه كتب الرسائل إلى أصدقائه وأنصاره وهناك شرع أيضًا في ترجمة العهد الجديد إلى اللغة الألمانية بعبارة سلسلة سهلة الفهم وترجم فيما بعد– بمعونة علماء آخرين– أسفار العهد القديم.

وكانت ألمانيا في ذلك الحين على حال من الفوضى والاضطراب. فالإمبراطور كان أكثر الوقت متغيبًا في أملاكه وكاد يكون كل أمير مستقلًا في إمارته. أما الفلاحون والفرسان الفقراء، فقد انطوت نفوسهم على التمرد والمرارة وعضد الناس لوثر مسوقين إلى ذلك بعوامل متباينة، فبعضهم ناصره لكراهيتهم الضرائب التي فرضها البابا ورغبتهم في أن يروا ألمانيا الحرة المتحدة. والبعض الآخر كالفلاحين توسموا أن تكون مناداته بالحرية المسيحية وسيلة لإعتاقهم من أغلال العبودية، وآخرون راموا أن يهدموا كل الأشياء في النظم القديمة وخلق عالم جديد.

أغلقت الجامعة في ويتنبرج وعطلت العبادة في الكنيسة واضطهد الرهبان والراهبات وبات لوثر في موقف حرج خانق. فهو لم يرد أن يحطم كل العادات القديمة ولا أن يفرض تعاليمه على الشعب فرضًا. وخشى نشوب ثورة اجتماعية تذهب بكل جهوده وتعاليمه الهادئة. فاضطر أن يخرج من مخبأه ويهدئ ثائرة الشعب في ويتنبرج، حتى عادت الأمور إلى مجاريها وجاهد لإخماد ثورة الفلاحين، على أنه حينما فشل في ذلك واستعرت الثورة وهاجم الثائرون القلاع والأديرة، حرض الأمراء على قتلهم وإخماد ثورتهم في غير هوادة ولا رحمة. ولكم ندم لوثر فيما بعد على هذا التحريض وأنب نفسه التي هفت هذه الهفوة، ولسانه الذي نبأ هذه النبوات الجارحة. وما وثق به يومًا بعد هذا الفقراء وعامة الشعب.

غرست الآراء التي أذاعها لوثر في رقاع كثيرة من ألمانيا وراح بقية حياته يعلم، وينشر دعوته وينظم الكنيسة الجديدة ويتعهد حياتها وثقافتها. وقد تزوج من (كاترين فون بورا) التي كانت يومًا راهبة وعاش وإياها حياة هنيئة مع أطفالهما في البناء الذي كان قبلًا ديرًا له في ويتنبرج. وهناك كتب المؤلفات الدينية ونظم الترانيم الشجية التي ما يزال كثير منها باقيًا حتى اليوم يرتله المسيحيون في عبادتهم.

ولما فشا الطاعون في ويتنبرج، بقي لوثر بين شعبه مستبسلًا، حتى انتقل إلى الحياة الأخرى بنفس راضية هانئة سنة ١٥٤٦م، بطلًا من أبطال شعبه وأمته.

هنا نشأة الكنيسة البروتستانتية في التاريخ التي كانت وليدة عهد الإصلاح في القرن السادس عشر. وكان لها أثران بارزان في التاريخ؛ فقد أفسحت المجال لإصلاح العيوب والمساوئ التي انسربت إلى الكنيسة في عصور القرون الوسطى المظلمة ومهدت الطريق للحرية المسيحية، فاستطاع الناس أن يناقشوا ويجادلوا ويفصحوا عن آرائهم فيما ينبغي أن يكون عليه نظام الكنيسة وإدارتها وتعاليمها وفتحت صفحات الكتاب المقدس ليقرأها كل الناس ويفهموها في غير تضييق ولا إعنات. وكان لهذه الحرية ـ في البحث والدرس والتفكير ـ آثارها اللاحقة في انقسام البروتستانتية شيعًا وطوائف.

والأثر الثاني الذي طبعته هذه الثورة الإصلاحية على صفحات التاريخ المسيحي؛ أنها شطرت الكنيسة الغربية شطرين. وما انقضى طويل زمن حتى ساءت العلاقات بين الفريقين واستراب أحدهما في نوايا الآخر وإخلاصه وتمكنت القطيعة والنفرة بينهما وغرقت أوروبا في حروب دينية اتسعت بها هوة الكراهية وسوء التفاهم واكتسحتها إلى حين موجة من التعصب الديني.

وفي كثير من البلدان البروتستانتية، لم تخلع الكنيسة نير البابوية، إلا لتحنى رأسها لسلطان الحكام المدنيين الذين أخضعوها لنزعاتهم الاستبدادية.

على أنه بعد موت لوثر، نهض شخص آخر ليخلق نظامًا تؤكد به الكنيسة حقها المطلق في الحرية والاستقلال عن الدولة.

جون كالفن (١٥٠٩- ١٥٦٤م) :

وكان جون كالفن ابن كاثوليكي فرنسي من السراة المثقفين. وقد أراد الوالد أن يكون ولده كاهنًا، ولكنه عدل بعد ذلك ليكون محاميًا. وفيما هو يدرس القانون، تعرف إلى اثنين من علماء البروتستانت كان أحدهما يترجم الكتاب المقدس إلى اللغة الفرنسية، والآخر يدرس العهد الجديد في اليونانية. وبفضل تأثيرهما عليه، راح يدرس الكتاب المقدس واقتنع بعقائد البروتستانتية.

وكان كالفن مفكرًا نابهًا ومنظمًا، فصار في قليل من الزمن زعيم الجماعة البروتستانتية في باريس. ولما هبت عاصفة الاضطهاد، فر إلى سويسرا لكي تواتيه الفرصة للدفاع عن قضيته ومحاولة إقناع ملك فرنسا. وكان الملك يحب علماء البروتستانت ولكنه كان كاثوليكيًّا خاضعًا لنفوذ أمه المتعصبة ومشيريها الذين أدخلوا في روعه أن البروتستانت مصابون بجنون التعصب وخوارج على النظام والقانون.

وكان كالفن أول من كتب تفسيرًا ودفاعًا عن العقائد الجديدة، كتبه أولًا باللغة اللاتينية الفصحى ثم نقله إلى الفرنسية بأسلوب رائع، وأهداه أولًا إلى ملك فرنسا، ثم نشره بين الناس، فكان لتفكيره الرائق وعلمه الواسع أثر عميق في نفوس قارئيه.

وفي السنة التي صدر فيها هذا الكتاب (١٥٣٦م)، كانت مدينة جنيف بسويسرا قد أسست أول كنيسة مصلحة ونصبت عليها راعيا فرنسيا. فلما بلغ الراعي نبأ قدوم كالفن، بحث عنه وألح عليه أن يبقى في المدينة ويتخذها مركزًا لدعوته وجهاده. ومن ثم صارت مدينة جنيف منارة البروتستانتية، منها وزع الزعيم كالفن أنوار الإلهام على أنصاره ومريديه في كل أنحاء أوروبا.

وقد انطوت حياة كالفن على عقيدتين عظيمتين، إحداهما: عظمة الله وجلاله؛ والثانية: حياة البر والتقى والصلاح بين المنتسبين للكنيسة المسيحية. وعلى مدى الأجيال، تمسكت الكنيسة المسيحية بعقيدتين يخيل إلينا أن إحداهما تناقض الأخرى ولكنهما في الواقع متلازمتان. تقول الأولى إن الله يعرف كل شيء يحدث وهو يريده أو

يسمح به. وتقول الثانية إننا أحرار في الإرادة ومسؤولون حينما نختار الخير أو الشر. وقد شدد كالفن على الحقيقة الأولى دون الثانية. ولئن يكن قد علم بأن الله سبق فقدر لكل إنسان مصيره، صالحا كان أو شريرا (عقيدة القضاء والقدر)، إلا أنه علم أيضًا بأن الله وحده هو العليم بذلك المصير. لذلك يجب ألا ندين أحدا، بل أن نخدم الله ونطيعه.

ووضع للكنيسة نظامًا مصلحًا وجارى لوثر في قوله إن العظة أهم عنصر في العبادة المسيحية، ولكنه أصر أيضًا على إجراء (الشركة المقدسة) كل أحد في خشوع ووقار. على أن يمتنع عنها الآثمون والمتهاملون وهؤلاء ينبغي أن يعاقبوا بأيدي سلطات المدينة– بناء على أمر الكنيسة– حتى يصلحوا سيرتهم وحياتهم.

كانت أمام كالفن مهمة عسيرة شاقة. فقد كانت مدينة جنيف في ذلك العصر حافلة بالآثام الرهيبة– من سكر وعربدة وقمار وفساد– ولكن مبادئ كنيسة كالفن كانت صارمة قاسية، أبت على الناس حتى بعض الملاذ البريئة وتسلطت على كل نواحي حياتهم تفحصها وتمحصها. فلا عجب أن يتمرد المواطنون بعد ثلاث سنوات وكان على كالفن أن يغادر المدينة ليستقر فترة من الزمن في ستراسبورج، حيث تزوج وصار راعيًا للكنيسة الفرنسية هناك. وبعد سنتين ندمت جنيف على صنيعها وتوسلت إلى كالفن أن يعود إليها.

وبعودته صارت جنيف موطن الثقافة البروتستانتية، فيها أنشأ كلية للدين برئاسة صديقه ثيودور بيزا وفيها كتب وحاضر وعلم ومنها وزع الأسفار المقدسة وبعث برسائل النصح والتشجيع لأنصاره في إنجلترا وفرنسا وهولندا وبولندا. وكان حكمه في المدينة صارمًا قاسيًا وكثيراً ما أطلق خصومه الرصاص تحت نوافذ بيته ليلًا وكثيرًا ما سلطوا عليه الكلاب وهو سائر في الطريق نهارًا. ولكن شيئًا ما لم يثنه عن عزمه.

ومع صرامته وتزمته في الحياة، كان رقيقًا أنيسًا، يلعب مع أصدقائه في ساعات الفراغ ويداعب الأطفال الصغار ويكتب الرسال الروحية لتعزية المحزونين المنكوبين حتى من خصومه. ومات هو يستغفر الله عن نوبات الغضب التي كثيرًا ما ساقته إلى العنف

والشدة.

وإلى جنيف لجأ الهاربون اللاجئون من كل بلدان أوروبا، وبينهم (جون نوكس) الذي قدر له فيما بعد أن ينشئ الكنيسة المصلحة في إسكتلندا. هؤلاء حملوا معهم إلى بلادهم عقائد كالفن الجديدة ونظامه الجديد في إدارة الكنيسة. وقد علمهم أن يحترموا الدولة على أن تكون خادمة للكنيسة صاحبة الفضل الأول، التي يحق لها أكبر الولاء والتي في سبيل كرامتها وحريتها يهون الموت والبلاء. وقد علمهم أيضًا أن يخافوا الله دون سواه وأن يحطموا كل المظالم باسمه العظيم. وفي أحيان جعلت مبادئ كالفن الناس قساة متزمتين ولكنها جعلتهم دائمًا أقوياء أمناء، أنصارًا للحرية التي بنوا بها حضارة مسيحية من نوع جديد في أوروبا وأميركا.

الإصلاح في الكنيسة الكاثوليكية:

بزغت في كنيسة القرون الوسطى قوى روحية لم يستطع القرن السادس عشر أن يدمرها، وإن كانت هزات الإصلاح أفلحت في وقفها فقط. وما إن تحركت فورات الإصلاح البروتستانتي حتى استيقظت القوى الهاجعة في الكنيسة الكاثوليكية وراحت تطالب بالإصلاح في اتجاه آخر غير الاتجاه الذي سار فيه لوثر وكالفن وأنصارهما. وبينما ملأت حوادث الإصلاح البروتستانتي النصف الأول من القرن السادس عشر، نرانا الآن أمام إصلاح كاثوليكي يبدأ من منتصف هذا القرن، فيوقظ القوات الروحية الكامنة في كنيسة القرون الوسطى ويساير البروتستانتية في إحيائها وتجديدها ويخلق الكنيسة الكاثوليكية الحديثة.

وتم الإصلاح الكاثوليكي بفعل قوتين عظمتين، هما: الرهبنة اليسوعية التي أنشأها (أغناطيوس لويولا) ومجمع ترنت الذي انعقد من سنة ١٥٤٥م حتى ١٥٦٢م.

أغناطيوس لويولا (١٤٩١- ١٥٥٦م):

في سنة ١٥٢١م أصيب فارس أسباني شاب يدعى (أغناطيوس لويولا) بجرح خطير

في معركة احتدمت بين مواطنيه وأهل فرنسا. وأثناء مرضه طلب أن يقرأ بعض الروايات، فقدم له القائمون على تمريضه قصص القديسين وسيرهم. وبعد قراءتها تحول ذلك الجندى الأسباني خادمًا للمسيح وقائدًا لجيش من الرجال قدر لهم أن يكونوا دعاة ومرسلين في كل أنحاء الأرض.

وتأهبًا لهذه الخدمة، قضى لويولا فترة طويلة في غار يستهدى ربه ويستوحي السماء. وهناك صنف تلك الصلوات والتأملات (الرياضات الروحية) التي كتبت فيما بعد وما يزال ينتفع بها أصحابه حتى اليوم. وقد رأى أن يهذب نفسه أولًا، فلم يستنكف أن يتعلم اللاتينية مع صبية المدارس في برشلونة ثم دخل الجامعات الأسبانية، وأخيرًا جامعة باريس. وفي باريس التف حوله أوائل أنصاره الذين عرفوا باليسوعيين أو (صحابة يسوع **Jesuits**).

اليسوعيون:

وقد شرع اليسوعيون في مكافحة مساوئ عصرهم بالدعوة والتعليم وسماع الاعتراف وإغاثة الفقراء وتلقين الأطفال عقائد الدين. وأظهروا للبابا غاية الولاء وتفانوا في خدمته وطاعة أوامره. وقد نذروا كسائر الرهابين العزوبة وعافوا المقتنيات وعاشوا حياة خاضعة لصنوف من الحرمان والإذلال دون تذمر أو شكاة.

ومن أوائل أتباع (لويولا)، القديس (فرانسز سافير)، وهو من النبلاء الذين استوطنوا المنطقة الجبلية بين فرنسا وأسبانيا ومن أعاظم الدعاة المسيحيين الذين شهدهم التاريخ. وقد لقي لويولا في جامعة باريس وأخلص في خدمة الجماعة وسار على قدميه من فرنسا إلى البندقية في الشتاء وقرص البرد، وكان يرتل الأناشيد الروحية في سيره ويخدم الفقراء والمرضى في المستشفيات. ومنها انطلق إلى رومية وكان ينام في طريقه في حظائر المواشي ويخوض الأنهار المتجمدة. ولما أمره رئيسه لويولا أن يرحل لنشر الدعوة في بلاد الهند حيث أسس البرتغاليون مستعمراتهم، تقدم طائعًا ملبيًا النداء وكانت الرحلة إلى بلاد الهند في سفينة برتغالية في ذلك العصر مخاطرة كريهة، شاقة، محفوفة بالمكاره والأخطار؛ فظهر

السفينة مكشوف للعراء وما بها إلا لحوم مملحة وبقسماط جاف متعفن ومياه ملوثة ووباء الطاعون. واستغرقت الرحلة ثلاثة عشر شهرًا قضاها الأسباني النبيل في العناية بالمرضى وإعداد طعامهم وغسل ثيابهم، والترفيه عنهم بكل ما أوتي من جهد.

ومن أشق المهام التي اضطلع بها في بلاد الهند؛ إعادة الموظفين البرتغاليين الأردياء إلى الحياة المسيحية. وانطلق إلى داخلية البلاد يدعو الناس إلى المسيحية ويعلم الأحداث ويعمد الأطفال. وقد استمال إليه الأطفال الصغار برقته وجاذبيته، فكانوا يسيرون وراءه ينشدون التراتيل ويحملون رسائله ويقومون على خدمته. وقد ترجم (سافير) الصلاة الربانية وقانون إيمان الرسل والوصايا العشر وتسبحه العذراء وصلوات أخرى، إلى لغة أهالي بلاد جنوب الهند. وبعث تلاميذه رسلًا إلى سيلان. أما هو، فرحل إلى ملقا ومنها شرقًا إلى اليابان. وعلى يديه اعتنق المسيحية هناك ثلاثة من نبلاء اليابان ذوي النفوذ والسلطان.

وفي سنة **١٥٥٢**م أبحر إلى بلاد الصين ووصل إلى جزيرة (سان تشان). والمشاق التي عاناها والرحلات الطويلة المضنية التي قام بها– لم تهد من كيانه وتنهك قواه، فانطفأت شعلة حياته المتوقدة وقضى ذلك المرسل النبيل وحيدًا في تلك الجزيرة الموحشة وقلبه الكبير يود لو أسعفته الحياة بمزيد من العمر لينشر دعوته في تلك البلاد الواسعة، ولسانه يردد هذه الكلمات: (ها أنذا أرسلني إلى أقصى الأرض!).

***

والحق أن اليسوعيين أبدوا من صنوف البسالة وألوان الجهاد ما جذب الناس إلى صفوفهم، وقبل أن يموت لويولا كان عددهم قد بلغ ألفًا. وما انفك عددهم يتزايد في القرنين اللاحقين وانطلق دعاتهم إلى الهند والصين واليابان وإلى البرازيل وفلوريدا والمكسك وبيرو بأميركا الجنوبية، يعلمون الشعوب بحياتهم ودعوتهم ويستهذبون الاستشهاد في سبيل قضيتهم المقدسة.

وشيدوا الكنائس الفخمة الرائعة وأسسوا المدارس الشهيرة التي كانت منائر للعلم

والتهذيب في هاتيك العصور. على أن لأولئك صورة أخرى لا يسع المؤرخ مهما أعجب بهم أن يغفل ذكرها. فلقد حسبوا البروتستانتية عدوتهم التي يجب هدمها وراموا في أول الأمر أن يحاربوا (الإصلاح) بالأدلة العقلية وبأسلحة من أسلحته، فنشروا المدارس في ألمانيا ونشروا الدعايات واعتلوا المنابر كما فعل زعماء الإصلاح واستعانوا بالعلم والثقافة ولم يألوا جهدًا في استخدام كل القوى العقلية والروحية لمحق البروتستانتية.

فعلوا هذا في النصف الأول من القرن السادس عشر. ولما أعيتهم هذه الأساليب وعجزوا عن بلوغ الهدف، لجأوا إلى أسلحة أخرى، إلى الإصلاح العنيف، أو ما يسميه التاريخ (الإصلاح المضاد). فأثاروا أمراء الألمان على أتباع لوثر ونبشوا الأحقاد والضغائن وطاوعهم في هذا بعض الأمراء الذين راحوا يكمدون أنفاس المصلحين. وما فعلوه في ألمانيا، فعلوه في غيرها- فما حكومة الملكة الكاثوليكية، ماري الإنكليزية التي ولغت في الدماء (١٥٥٣- ١٥٥٨م) وما عهد الدوق الأسباني في هولندا (١٥٦٧م)، ومذبحة القديس برثلماوس في فرنسا (١٥٧٢م)- إلا ذكريات رهيبة بشعة من فعال تلك الروح الخبيثة التي غذتها الحركة اليسوعية.

وفي ألمانيا أثارت هذه الحركة نزاعًا عنيفًا انتهى بحرب الثلاثين سنة وما اقترن بها من شقاء وسفك دماء. وانتهى الصدام المسلح بمعاهدة وستفاليا (١٦٤٨م) التي ظفرت فيها البروتستانتية بالاعتراف القانوني بها وقد أصابها بعض الوهن في الأقاليم التي يحميها أمراء كاثوليك.

وفضلاً عن هذا، فقد كانت تصرفات اليسوعيين من نواح أخرى خالية من الروح المسيحية؛ وذلك أنهم تدخلوا إبان عزهم وجاههم في الشؤون السياسية والتجارية ولجأوا في سبيل تحقيق أغراضهم إلى أساليب ملتوية، حتى آل بهم الأمر أن طردوا من فرنسا والبرتغال البلدين الكاثوليكيين. وفي سنة ١٧٧٣م، ألغى البابا نظامهم (حرصًا على سلامة المسيحية) ولم يعودوا إلى الظهور بعد الاختفاء إلا بعد أربعين سنة من ذلك التاريخ.

مجمع ترنت:

في القرن الخامس عشر، انعقد مجمعان لإصلاح بعض مساوئ العصر. وفي حياة لوثر وكالفن، اجتمع الكاثوليك والبروتستانت معًا غير مرة لتسوية خلافاتهم، فلم يفلحوا. وذهبت هذه الجهود أدراج الرياح؛ بسبب الحروب بين حكام أوروبا وملوكها والاضطهادات الدينية والمشاحنات بين البابا والأساقفة. وفي سنة **١٥٤٥**م انعقد مجمع ترنت وحضره الكاثوليك فقط وأدار مناقشاته الأساقفة الطليان واليسوعيون. وكان هدفهم تمجيد سلطة البابوية وتسفيه التعاليم البروتستانتية وتدعيم العقائد التقليدية التي تسلمتها الكنيسة منذ أقدم العصور. وقد شرح ذلك المجمع العقائد الكاثوليكية بإيضاح وجلاء، وخاصة تلك التي ثار حولها سوء التفاهم، وأصر على الأساقفة ورجال الدين أن يتولوا تعليم الشعب ويمتنعوا عن حياة البذخ وينشئوا المدارس الدينية لتعليم القساوسة وتدريبهم.

واتسربت في هذا المجمع روح جديدة إلى البابوية والأساقفة وكل رجال الدين واختفت البابوية الدنيوية التي ازدهرت في القرن الخامس عشر وبكور القرن السادس عشر، وتزعمت حركة الاصلاح الجديدة مع حزب الكهنة. وكأنما أيقظها نزاعها مع البروتستانتية من سباتها وغدت حركة الاصلاح جامعة شاملة. وما انتهى هذا القرن حتى كانت الكنيسة البروتستانتية تقف وجهًا لوجه أمام كنيسة كاثوليكية مصلحة.

القرن السابع عشر

الإصلاح في إنجلترا

في الفصل السابق رسمنا صورة لنشأة الإصلاح في أوروبا. أما إنجلترا، فقد كان فيها ثلاثة أحزاب يتنازعون فيما بينهم لإصلاح الكنيسة. الكاثوليك: الذين أرادوا إصلاح المساوئ القديمة واسترداد السلطة البابوية– والبروتستانت: رغبوا في القضاء على كل شيء له مساس بالكاثوليكة– وحزب ثالث وسط بين الاثنين: لم يرد أن يكون للبابا سلطان على كنيسة إنجلترا، على أن تحتفظ الكنيسة بطابعها الكاثوليكي والطقوس القديمة بعد تنقيتها من المساوئ الكثيرة التي علقت بها. وهؤلاء الأخيرون انتصروا لفكرة السلطة الملكية– بديلًا عن السلطة البابوية– وبذلك أخضعوا الكنيسة لسلطان الدولة خضوعًا لم تتحرر منه حتى اليوم. وهذا يصدق على إنجلترا فقط؛ لأن الانكليز حملوا معهم كنيستهم إلى المستعمرات التي أنشأوها ولكن تلك الكنائس في الخارج لم تخضع لسلطان الدولة واحتفظت بأنظمتها الحرة. وإنك لترى الكنائس الأسقفية المستقلة اليوم في أميركا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا والهند وجنوب أفريقية وجزر الهند الغربية والصين واليابان ومصر وفلسطين، وفي إيرلندا وويلز استقلت الكنيسة عن الدولة. أما كنيسة اسكتلندا، فلم تخضع للدولة وتلك الأحزاب الثلاثة تناوبت النفوذ والسلطان بالتتابع، ففي عهد إدوارد السادس الملك الصبي امتلك البروتستانت زمام السلطة وصار (جون نوكس) قسيسًا خاصًا للملك وعين كثيرون من البروتستانت في مناصب الدولة العليا. وفي عهد الملكة ماري انقلب الوضع وصار الكاثوليك أصحاب النفوذ والسلطان وكانت الملكة كاثوليكية متعصبة، فأمعنت في اضطهاد البروتستانت وأحرقت كثيرين منهم متهمة إياهم بالهرطقة والإلحاد، حتى لعنت إنجلترا كلها عهدها الأغبر وكرهت الدين الذي ناصرته واختفت وراءه.

وفي عهد الملكة اليصابات استولى الحزب المتوسط على السلطة وظهرت كنيسة إنجلترا بخواصها وطابعها الذي تميزت به. فكانت بروتستانتية في رفض مطالب البابوية وسلطتها وبعض عقائد الكنيسة الكاثوليكية المستحدثة، ولكنها كانت أيضًا كاثوليكية في الاحتفاظ بالعقائد الأصلية ورسوم الكنيسة القديمة وطقوسها ورسم رئيس أساقفتها الجديد– ماثيو باركر– بأيد رجال توافرت فيهم شروط الخلافة الرسولية.

جماعة الطهورين Puritans :

وكان في إنجلترا جماعات من متطرفي البروتستانتية راعوا الصرامة والتزمت بحياة الطهر والتقوى، ولذلك دعوا (طهورين **puritans**)– وهم المتصوفون، المدققون في أمور الدين– شأن الحنابلة في الإسلام. وبعض هؤلاء رغبوا في النظام الأسقفي في الكنيسة وأراد آخرون أن يقيموا النظام المشيخي. بينما رأى فريق ثالث أن تتألف الكنيسة من جماعات مسيحية تختار رعاتها وتكون حرة في أداء شعائر العبادة بدون تدخل من الدولة أو أي سلطة كنسية مركزية. وهؤلاء الأخيرون انشقوا عن الباقين أسموا أنفسهم (الانفصاليين) ثم (الاستقلاليين).

وقد رغبت هذه الجماعات الحرة عن الطقوس الخارجية في العبادة وكل أشكال الصلوات الوضعية وكل الرموز والنقوش في الكنائس ولم تقبل حتى الحركات المألوفة في العبادة كالركوع ورسم الصليب. وذهبوا مذهب كالفن في العبادة وأصروا فقط على الحياة المسيحية الطاهرة النقية تحت رقابة راعي الكنيسة. لذلك كان (الطهورون) أمناء، أطهارًا، أقوياء، ليس بينهم سكيرون ولا مختالون ولا أشرار– على أنهم كانوا في بعض الأحيان ضيقي الفكر، فريسي النزعة في الحكم على مخالفيهم.

وقد عانى هؤلاء كثيرًا من ألوان الاضطهاد والغرامات والسجن، حتى اضطروا للفرار إلى هولندا. وحتى في هذا الفرار تعقبتهم العيون والأرصاد وخانهم قبطان أول سفينة استأجروها وأسلمهم إلى رجال الشرطة الذين صادروا كتبهم وأموالهم وبعد محاولات أخرى بلغوا أخيرًا هولندا، البلد الأوروبي الذي احتضن في ذلك العصر كل الحركات

البروتستانتية. وكان آخر من وصل زعيمهم الموقر (جون روبنسون) وكان راعيًا مثقفًا، طيب القلب، أحب السلام والوداعة وأبغض العراك والشحناء. وقد نفث في قومه روح التسامح والحكمة والدعة. كما أدرك أن المضطهدين قد يتحولون أحيانًا إلى شيء من القسوة وضيق الفكر مثل مضطهديهم.

على أن الحياة في هولندا كانت قاسية على اللاجئين الإنكليز، فاضطروا إلى القيام بأي الأعمال لكسب عيشهم. وحتى هنا في الاغتراب لم ينجوا من عنت موطنيهم وملاحقتهم والحيلولة دون نشر مؤلفاتهم، فراحوا يحلمون بإنشاء مستعمرة في العالم الجديد، حيث يطيب لهم العيش في ظلال السلام والحرية وتتهيأ لهم أسباب الدعوة إلى الإنجيل بين قبائل الوطنيين، فقرروا أن تمهد الطريق أولًا طائفة من أقواهم وأقدرهم على احتمال العناء والمخاطرة ويلحق بهم راعيهم فيما بعد.

وقبل أن يرحلوا زودهم (جون روبنسون) بالنصائح الغوالي؛ لأنه توقع أن تكون حياة المستعمرين الأولين أقسى من الحياة في هولندا. فأوصاهم أن يكونوا مخلصين أوفياء بعضهم لبعض وأن يحترموا ويطيعوا الزعماء الذين اختاروهم ويتخذوا من حق الله ضياءً ينير طريقهم.

وفي صيف سنة ١٦٢٠م أبحرت السفينة (سبيدول **Speedwell**) من هولندا إلى إنجلترا لتنضم إلى السفينة (ماي فلاور **Mayflower**) وأبحرت السفينتان من ميناء بليموث في جنوب إنجلترا، إلا أنه ثبت بعد قليل أن السفينة الأولى غير صالحة للرحلة، فحشر أكثر ركابها في السفينة الثانية وعادت السفينة الأولى أدراجها تحمل بعض ركابها وكثيرًا من الآلات والأدوات التي كان المهاجرون في أمس الحاجة إليها.

تسعة أسابيع طوال قضتها السفينة (ماي فلاور) وهي تترنح فوق أثباج اليم وتعصف بها الأعاصير تائهة في مهب الرياح. وأخيرًا نزل المهاجرون إلى اليابسة وأطلقوا على المستعمرة التي استوطنوها والخليج الذي نزلوا فيه اسم الميناء التي أبحروا منها (بليموث).

وهناك علمهم بعض الهنود زراعة القمح الهندي والقنص وصيد الأسماك والاستكشاف وعقدوا معاهدة سلام ومودة مع القبائل الموالية. بينما المشاق التي عانوها والأعمال المضنية التي اضطلعوا بها، أنهكت قواهم، ففشت بينهم الأمراض وكثرت الوفيات، حتى قضى في الأربعة شهور الأولى أربعة وأربعون من الاثنين والمائة الذين نزلوا البر سالمين. وفضلًا عن هذا راحت بعض قبائل الهنود المعادية تخلق لهم المتاعب وقلت مئونتهم من القمح وقد لحق بالمستعمرين الأولين طوائف أخرى من المهاجرين من صنوف الناس الذين تنقصهم عدة المهاجر المستوطن من مال وعتاد وصبر وجلد. وعلى الرغم من هذا غالبت تلك المستعمرة الناشئة كل أسباب الفناء وثابرت وجالدت الخطوب حتى أفلحت بقوة الإيمان والثبات والتضحية بالمصالح الخاصة في سبيل خير الجماعة. وكان كل منهم عضوًّا في الكنيسة الحرة. على أن الكنيسة كانت منفصلة عن الدولة كلية، فلا دخل لإحدى السلطتين في شؤون الأخرى.

تلك كانت رحلة (الآباء المهاجرين) المأثورة في التاريخ وتلك كانت المغامرة الجريئة الأولى خلقت أعظم أمة في العالم في هذا العصر. وقبل أن تنقضي خمس سنوات، انتقل زعيمهم المحبوب (جون روبنسون) إلى الحياة الأخرى، بعد أن نفث في هذا العالم الجديد قبسًا من روحه وإيمانه– روح الصبر والاحتمال، روح الحرية الدينية التي تستعذب كل ألم وتذلل كل عقبة والإيمان بأن الله يمنح وفرة من الخير ويعلن مزيدًا من الحق للذين يسيرون معه في مجهول الدروب وظلمات الحياة.

يوحنا بنيان:

وبينما كانت المستعمرات الأمريكية تنمو وتزدهر، كانت الكنائس الاستقلالية الحرة في إنجلترا يتزايد سلطانها، وخاصة بعد قطع رأس الملك تشارلز الأول وانتهاء عهد ملوك آل ستيوارت الذين اقترنت سياستهم ومصائرهم بمناهضة الحركات الاستقلالية الدينية. وفي عهد كرمويل (١٦٤٩– ١٦٦١م) ثار الاستقلاليون، فكسروا التماثيل في الكنائس وحطموا زجاج النوافذ وآلات الموسيقى وأحرقوا الملابس الكهنوتية، وفي عهد شغل

أنصار البروتستانتية– على اختلاف طوائفهم– وظائف الكنيسة. ولكن ما أن تربع تشارلز الثاني على العرش (١٦٦٠– ١٦٨٥م) حتى انقلب الوضع وانتقل النفوذ إلى أساقفة كنيسة الدولة الرسمية وسنت الشرائع الصارمة تفرض على رجال الدين الخضوع لقوانين الكنيسة وعدم ممارسة وظيفة التعليم والوعظ قبل الحصول على تصريح رسمي وفرض على القساوسة أن يقسموا بطاعة الملك وقوانينه. على أن الأكثرية الساحقة أبوا الخضوع لهذا التهديد وامتنعوا عن القسم وآثروا في بسالة رائعة أن يتحدوا القانون ويعصوا الملك ويعرضوا أنفسهم في سبيل الاعتزاز بالحرية الدينية لكل صنوف السجن والتجويع والتشريد، فكانوا يعلمون الناس في الحقول والخلوات ويجاهدون ويعملون وهم جياع مطاردون. وحرية الضمير يهون في سبيلها الدموع والدماء.

وكان بين الاستقلاليين الأحرار طائفة تسمى (المعمدانيون). وهؤلاء درجوا على أن يعمدوا الناس كبارًا بعد أن يبلغوا سن الوعي ويعترفوا علانية بإيمانهم بالمسيح واشترطوا أن تكون المعمودية (بالتغطيس) في الماء على نحو ما فعل المسيحيون الأولون. وكان من أشهر هؤلاء في القرن السابع عشر (يوحنا بنيان) الذي زج في السجن في حكم تشارلس الثاني.

ويسير بعد الذي قدمناه أن نصور العصر الذي عاش فيه بنيان. كانت القارة الأوروبية غارقة في حرب الثلاثين سنة المشؤومة في تاريخ المسيحية وكانت بريطانيا تغلي بالمنازعات الدينية. فقد أصرت الحكومة على الشعب أن يذهب إلى كنائس خاصة عينها القانون وأن يستعمل كتابًا خاصًا للعبادة الدينية. وكان (بنيان) من جماعة الأحرار المنشقين الذين طاردهم رجال الشرطة وقسا عليهم القانون، فألصقوا به تهمة تسليح أتباعه وعصيان أوامر الحكومة وإثارة حرب أهلية...

ولد (يوحنا بنيان) في قرية (الستوي) على مقربة من مدينة بدفورد بإنجلترا، وكان أبوه سمكريًا واتخذ الابن صناعة أبيه في شبابه. وقد اختلفت الآراء في نسبه وحسبه، فقال هو عن نفسه إنه تحدر من أسرة فقيرة. وبينما كانت صناعة (الحداد) في القرية الإنكليزية موفورة الكرامة في ذلك العهد، كان (السمكري) في مرتبة أدنى وهذا سر من أسرار نظام

الطبقات الإنكليزية الذي كان مرعيًا يومئذ، لم نقدر على فهمه وتأويله. وذهب فريق من الكُتاب إلى أن (بنيان) تحدر من أسرة أرخى عليها الدهر بكلكله وقلب لها ظهر المحن. وقال فريق آخر إن الأسرة لم تكن فقيرة معدمة، بل كانت تملك مساحة من الأرض إلى جانبها مستنقع، هو الذي أوحى إلى (بنيان) فكرة بالوعة اليأس التي وصفها في رواية (سياحة المسيحي).

ويقول عنه (ماكولي) إن ساعات لعبه ومرحه وهو في العاشرة من العمر كان يتخللها نوبات متقطعة من اليأس ووخز الضمير. وكان نومه مضطربًا تنتابه الأحلام المزعجة وتساوره المخاوف المقلقة، فشب غلامًا قلق النفس، يغالبه اليأس.

وكان شبح الخطية والذنب ماثلًا أمامه دائمًا، يعذبه في يقظته ومنامنه. وقد قال عن نفسه: (كنت زعيمًا لأترابي الذين سقتهم إلى مسالك الرذيلة والإثم). وأحس وهو شاب أن الله المنتقم يتعقب خطاه وخشي الأبدية ورهبتها وفزع من الموت ولم يرحب به إلا في أواخر حياته.

وفي السادسة من عمره، حُرم حنان الأمومة وعطفها. وفي ذلك الحين تضرمت نيران حرب أهلية في إنجلترا، فزج بنفسه فيها ضد الملكية. ولا ريب في أن ذكريات تلك الحرب ظلت ماثلة أمامه عند كتابة قصة (سياحة المسيحي) التي يصور فيها بطل قصته مزودًا بالسيف والرمح والخوذة ونقرأ عن الحصون والأبواب والحاميات، وغير ذلك من مصطلحات الحرب.

ومن الحوادث التي غيرت اتجاه حياته أثناء الحرب؛ قتل زميل له واقف إلى جانبه ونجاته بأعجوبة جعلته يعتقد أن حياته ليست ملكًا له.

وفي الحادية والعشرين تزوج من فتاة يتيمة، فقيرة، ولكنها ورعة تقية. ولم تكن تملك شيئًا من حطام الدنيا ولكنها جاءت بخزانة احتوت مجموعة من الكتب الدينية عكف على قراءتها، فامتلأت نفسه بفكرة مؤداها أن الحياة إنما هي رحلة للوصول إلى هدف معين. وهنا كانت بداية (سياحة بنيان) في حياة الدنيا.

من هذه الكتب تعلم الدين وكان الفضل للزوجة اليتيمة الفقيرة. ومنذ العصر الذي اقتادت فيه الفتاة اليهودية الأسيرة نعمان السرياني إلى إليشع النبي، لم يدون التاريخ شهادة لمجد الله أنطق وأقوى من شهادة هذه الزوجة الفقيرة المعدمة!

ثارت فيه نفسه الداخلية ورأى شبح الخطيئة ماثلًا أمامه، حتى كان يخيل إليه أحيانًا أن جرس الكنيسة يكاد يسقط عليه وأبراجها تنهار على رأسه وتمثل أمامه جبل سيناء يتقد بلهيب الغضب ويزأر بصوت الرعب.

وفي (سياحته) حلل الوقائع التي شهدها في حياة عصره وعلل الحوادث تعليلًا ينسجم مع الحق، فكان يستعير المشابهات والكنايات من مشاهد قريته وأحاديث قومه.

وقد بدأ القوم في ذلك العصر– كما يبدو الآن لكثيرين– أن المسيح مجرد صديق للبشرية ومصلح اجتماعي بين المرضى والفقراء وملقن الانسان واجبه نحو أخيه الإنسان. أما محبة المسيح فقد أعلنت إلى (بنيان) شيئًا فاق هذا كله؛ فلم ير خلاص البشرية في بيت لحم، ولا في الخليل، إنما رآه مجسمًا في الجلجثة التي أسالت دماء قلب (بنيان).

وفي شبابه نراه يعيش في جو من الهلع والفزع، محوطًا برهبة إله جبار لا يلين ولا يرحم. غير أننا نراه في (سياحة المسيحي) يلين شيئًا فشيئًا، فتتحول قسوة الناموس إلى شرعة الرحمة ومرارة اليأس إلى عذوبة الرجاء. وفي أواخر القصة نشهد أشخاصها يرقصون طربًا على أصوات الموسيقى الشجية، فتمتلئ نفس القارئ محبة وعطفًا وتدمع عيناه فرحًا وحبورًا.

وكان على (المسيحي) ـ بطل قصته ـ أن يقطع رحلة طويلة شاقة بعد مغادرته مدينة الهلاك حتى وصل أخيرًا إلى الصليب، حيث ألقى حمله الثقيل في القبر الفارغ. وهذا كان شأن (بنيان) نفسه. فهو لم يتجدد في طرفة عين ولا بلمسة سحرية خاطفة. ولكنه قضى طوال السنين يصارع مع نفسه ومع خطيئته. فاجتاز المسيح إلى قلبه وأنقذه من رهبة العقاب وفزع الدينونة وأظهر له أن المحبة أقوى من الشر.

وإذ تلامس نفسه هذه المحبة الفياضة الجياشة، يريد أن يشاطرها الآخرين، فيطفق

يدعو الناس إلى هذا الحق الذي استعلن له وكان يعقد اجتماعاته في حلقات لدرس الكتاب المقدس. وقد حسب في هذا العمل خارجًا على القوانين وعاصيًا أوامر الحكومة، فهو يعلم ويبشر بدون الحصول على ترخيص رسمي، فيلقى القبض عليه ويمثل أمام القضاء للمحاكمة.

وكان قضاته يعرفون فضله، فحاولوا إطلاق سراحه بحمله على التنازل عن خطته ولو بإقرار شفوي، ولكنه لم يرضخ لهذا واضطرهم إلى الحكم عليه بالسجن الذي قضى فيه اثنتي عشرة سنة. وقد جهر أمام القضاء بأنه يوم يطلق سراحه ينادى بالإنجيل في اليوم التالي مهما كلفه هذا من البذل والاضطهاد. وأن حكمًا كهذا تصدره محكمة انكليزية استنادًا إلى قانون يستنه رجال الشرع وأولي الأمر، يقابله أبناء هذا العصر بابتسامة ساخرة، ولكن يجب أن نذكر أن الأخلاق الاجتماعية في تطور مستمر.

وكان لهذا الحكم الجائر أثره في نفسية (بنيان)، فتمثلت أمامه أمته العظيمة، بل العالم أجمع، أشبه بسوق الغرور **Vanity Fair** الذي وصفه في قصته الخالدة. وقد خلع على القضاة والمحلفين والشهود الذين حكموا عليه ألقابًا رمزية مستعارة ومثل الميول الإنسانية المستقبحة، مثل: الحسد والطمع والشهوة والكذب أشخاصًا مجسمة في قصته.

قضى (بنيان) اثنتي عشرة سنة في سجنه حاملًا آلام الحياة بصبر وشجاعة ولم يكن شقاؤه شيئًا لولا الآلام المريرة التي حزت أحشاءه وهو يذكر زوجته وأولاده، مفكرًا ليل نهار في البؤس المضني الذي كان يتخيلهم فيه. وقد خص ابنته الضريرة بأوفر قسط من حبه وحنانه وكان يخشى أن يلمس الهواء البارد وجهها النحيل، فإذا به يتخيلها الآن قعيدة الظلام تعاني البرد والجوع، تستعطى فتدفعها الأيدي الخشنة وتلعنها الشفاه القذرة!

عل أنه لم ينس في محنته موسيقى الحياة ويقال إنه اصطنع من عيدان مقعده في السجن مزمارًا كان يلعب نه. فإذا استيقظ الحارس على صوت الموسيقى وهو بالدخول إلى خابيته ليرى مصدر الصوت، خبأه تحت طيات ثيابه. وقد قضى مدة السجن كلها ولم يتوصل الحارس إلى كشف مصدر هذا الصوت الموسيقي!

وفي السجن هبط الوحي على (بنيان)، فكتب قصته الخالدة وكان شأنه في هذا، شأن زميل له من قبل (توما القمبيزي) الذي كتب مؤلفه الاقتداء بالمسيح في خلوة بعيدًا عن جلبة الحياة. وفي السجن تعلم (بنيان) كيف يكتب وماذا يكتب. وكما أن (بيتهوفن) أرهف الصمم نفسه الحساسة، فأخرج وهو أصم أرق المقطوعات الموسيقية وأعذبها، كذلك انتجت قريحة (بنيان) وهو أصم أرق المقطوعات الموسيقية وأعذبها، وأنتجت قريحته وهو في السجن أروع تحفة دينية خالدة. وعلى الرغم من احتدام الشحناء بين المذاهب الدينية في عصره وأنه كان إحدى ضحايا حرية الرأي، فإنه لم يجنح في قصته إلى جانب معين وأعلن نزيل السجن مسيح المجد للملأ قاطبة. فلم تنته (سياحة المسيحي) عند نهر الموت والهلاك ولا عند الأبواب الذهبية، بل سار وراءه في الطريق الضيق أفراد أسرته وفريق من الأصدقاء من مختلف المذاهب. ومن ذلك العهد يقف المسيحيون خاشعين أمام جلال هذه القصة، متناسين ما بينهم من الفوارق المذهبية العارضة.

وبعد أن خرج (بنيان) من سجنه، عاش حياة هادئة ناعمة وكانت تهرع إليه الجماهير لسماعه، فكان يخطب في الألوف ويكتب لمئات الألوف، ولكنه ظل ذلك القروي الساذج لم يعره تغيير ولم يداخله شيء من الزهو والغرور. وبعد أن اشتهر بمؤلفاته في أرجاء العالم، لم يرض أن يكون أكثر من (بنيان) المبشر الوادع والإنسان الخاطئ التائب. ولم يكن له في مؤلفاته سوى مطمع واحد؛ وهو توبة الخاطئين واهتداء الضالين وقد عاجله الموت وبعض مؤلفاته معدة للطبع.

هجعت نفسه الناشطة على الأرض وصعدت بأفكارها وجلالها وجمالها إلى عالم أسمى وخدمة أجل. وقد مات وهو يصنع خيرًا، فقد قيل إنه كان منهمكًا في إصلاح شأن حرمه أبوه الميراث، فقام لهذا الغرض برحلة طويلة شاقة في زمهرير الشتاء وهطل الأمطار، فأصيب ببرد شديد قضى عليه في ستة أيام.

وقد حار العلم في تعليل عبقرية (بنيان) وسر نبوغه، فهو رجل لم يتثقف بثقافة الجامعات ولم يقرأ أفلاطون ولا أرسطو ولم يدرس فن الأدب وقواعد البلاغة والبيان، بل

إن ثقافته لم تتجاوز حد (فك الخط) والهجاءة المكسرة. وربما يقال إن النابغة يولد وفي نفسه عناصر النبوغ والذكاء، فقد كان (موزارت) موسيقيًا من حداثته، وكان (ميشيل أنجيلو) فنانًا وهو بعد صبي يافع. أما (بنيان) فلم يكن في صبوته إمارة من إمارات العظمة. ولو أنه مات في الخامسة والعشرين أو الثلاثين لما حفل أحد بذكره، ولا سجل اسمه في بطون التاريخ بين جهابذة فن الكتابة وأمراء القلم.

ولا نكران أن كثيرين من نوابغ البشر محوطون بحجب الأسرار، فأول شاعر إنكليزي لم يكن أكثر من راع للأبقار، وجهل القراءة والكتابة عندما هبط إلى قلبه وحي الخيال وإلهام الشاعرية. وكان (شكسبير) نفسه تلميذًا بسيطًا في مدرسة قروية. وبنيان لم يكن عبقريًا بمولده الطبيعي، بل بميلاده الثاني الروحي. وقد اعترف أنه مدين بحياته إلى نعمة خفية أغرقت فيها نفسه. هذا هو مصدر الوحي الذي هبط عليه، فألهب نفسه الروحية وأيقظ نبوغه العقلي، فأدت به خاتمة المطاف، بعد تخبط وإعثار ومخاوف وآلام، إلى التخلص من حمله الذي أثقل كاهله دهرًا وإلى بلوغ المرمى الذي جعله قبلة آماله وأمانيه ونيل الجزاء الذي ابتغاه.

فنسان ده بول:

وبينما كان الإصلاح سائرًا بخطى ثابتة في البروتستانتية، كانت الكنيسة الكاثوليكية أيضًا تخلع عنها تزمت الماضي وجموده، فحاولت بلاد كثيرة أن تسير على هدي قرارات مجمع ترانت، وأصلحت رتب الرهبنة وأنشأت المدارس لتدريب رجال الدين وإعدادهم وعني القادة بتهذيب الشعب وتعليمه وقامت الكنيسة بنصيب موفور في إسعاف الفقراء وإغاثة الملهوفين. وقد عاش في فرنسا في القرن السابع عشر كاهن كاثوليكي لن تنسى خدماته الجليلة التي بذلها في سبيل الفقراء، ونعنى به (فنسان ده بول).

ولئن تكن أسماء الباباوات والمجامع وأساقفة والمصلحين تبرز بروزًا ظاهرًا في تاريخ الكنيسة، فإنه يجب أن نذكر أن تاريخ الكنيسة هو أيضًا تاريخ الملايين من الرجال والنساء العاديين الذين اعتصموا بإيمانهم وسط الزوابع والتقلبات التي أحاطت بهم.

فهؤلاء عبدوا الله وفق وصاياه وسمعوا الأسفار المقدسة وقدسوها وشاطروا الوثنيين آلامهم وأعانوا إخوانهم في الشدائد والأوباء والمجاعات، بروح السامري الصالح.

ومنذ قامت الكنيسة، عرفت بأعمال المحبة والرحمة بالفقراء. فأنشأ الأساقفة– أمثال بازيل– المستشفيات التي عالجت المصابين بالطاعون وعنيت الكنيسة في القرون الوسطى بالبرص وأطعمت الأديرة الجياع وآوت المشردين. وأنشئت في القرون المتأخرة بيوت الصدقات والزكاة وأغدق عليها الأغنياء من أموالهم. ولم تنقطع طوال هذه القرون هبات وخدمات الطبقات المتوسطة ورقيقي الحال الذين لا تحصى أسماءهم. ومنذ القرون الوسطى، تألفت جماعات صغرى من المسيحيين وجعلت شعارها الصلاة والإحسان. وبفضل هذه الجماعات وجهود السيدات النبيلات والمواطنين والعمال والفلاحين، استطاع (فنسان ده بول) أن يقوم بخدمته الرائعة لفقراء فرنسا في القرن السابع عشر.

ويومئذ كانت حالة الفقراء في أوروبا رهيبة؛ فحرب الثلاثين سنة بين الكاثوليك والبروتستانت امتصت دماء الحياة في ألمانيا فأفقرتها وأجاعتها وكانت في فرنسا مذابح ومعارك واغتيالات وجيوش تتبع الأحزاب المتنازعة وتعيث في البلاد فسادًا وتدميرًا، فكانوا يحرقون محاصيل الفلاحين المساكين ويخربون بيوتهم، حتى اضطر كثيرون منهم إلى الهرب من قراهم والتزاحم في المدن يبحثون عن عمل أو يستجدون أو يسرقون. أما الذين بقوا في الريف، فكادوا يموتون جوعًا.

واقترن جوع الجسد بجوع العقل والروح، فما اعتنى بهم أحد من رجال الدين وكانت الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا في حالة سيئة، فالألقاب والثروات التي غصت بها الأبرشيات والأديرة كانت بأيد رجال أنانيين، استغلوا الجهلاء للقيام بالأعمال لقاء أجور ضئيلة. ولكن في وسط هذه الظلمة المدلهمة، كنت ترى بقية من نور تومض كأنها النار مثقلة بالرماد، وكان في فرنسا رجال أخيار وأساقفة وقساوسة كافحوا هذه المساوئ والشرور وكان أعظمهم وأفضلهم (فنسان ده بول)...

كان من طبقة الفلاحين وبدأ عمله في بيت متواضع[١١] في باريس، حيث أخذ يدرب قساوسة ليكونوا مرسلين ويعلمهم الوعظ بأسلوب بسيط مفهوم لعامة الشعب ويرسلهم للعمل في ريف فرنسا. وفي باريس ألهم طائفة من فضليات النساء (سيدات المحبة) لحمل الأطعمة والهدايا للمرضى في مستشفيات المدينة والعناية بالأطفال الذين كانت تلقيهم أمهاتهم بسبب الفقر وامتد العمل من باريس إلى قرى فرنسا ليشمل فتيات الريف ونسائه. وهكذا أنشئت جمعية (أخوات المحبة) واتخذت زيها الخاص- قبعات بيضاء عريضة وأردية زرقاء خشنة- وراحت تخدم حاجات الفقراء وتسعف المنكوبين والمطرودين وتوآسي المرضى والمجروحين.

وكان من آثار الحرب الأهلية تفشي الأوبئة بسبب الإهمال في دفن القتلى والجياد النافقة، فبذل المتطوعون والمتطوعات جهودًا جبارة لدفن الموتى وحمل الأطعمة للجياع في المناطق التي نكبتها الجيوش التي داست القانون والنظام واستشهد كثيرون من أولئك الرجال والنساء وضحوا بحياتهم في سبيل إنقاذ حياة آلاف من مواطنيهم.

وكان للكاهن (فنسان ده بول) موهبة عجيبة للتأثير في الرجال والنساء ودعوتهم للقيام بأخطر الأعمال من أجل المسيح، فأرسل فريقًا من أتباعه لإسعاف العبيد في الموانئ ووضع نظامًا لافتداء المسافرين المسيحيين الذين كان الأتراك يبيعونهم- بعد الاستيلاء على السفن التي كانت تقلهم- أرقاء في سوق بلاد الجزائر[١٢] وأرسل دعاة إلى جزيرة مدغشقر. وقد أيقن أنصاره أن زعيمهم الذي يتولى قيادتهم جرئ غير هياب، يستعذب كل تضحية وألم. فلما ثارت باريس وتمردت على الملكة وأرسل جيش لمحاصرة المدينة، امتطى هذا الرجل الشيخ، وهو في الثالثة والسبعين من عمره، صهوة جواده وسار ليلًا في طرقات المدينة المظلمة عبر قنطرة نهر السين التي غمرتها المياه وذهب توًّا للملكة يستنجد بها، فأمرت الملكة بتوزيع بعض الحنطة على أهل المدينة ولكنها أبت وقف

(١١) سمى هذا البيت (دار لعازر) ولذلك دعيت جماعته (لعازريون).

(١٢) وقد بيع هو نفسه بهذه الطريقة وهو بعد صبى صغير.

القتال. ولم ينقطع (فنسان) طوال أيام الثورة عن القيام بعمله في التعليم والإسعاف وبعد موته أمسك أنصاره بالمحراث من بعده. ولما قررت فرنسا إلغاء جميع الرتب الدينية، ألغيت أيضًا جمعية (أخوات المحبة) ولكن انتقل عملها وجهادها إلى بلاد أخرى. وإنك لترى اليوم في إنجلترا (أخوات المحبة) في ثيابهن الزرقاء وقبعاتهن البيضاء يجلن بين الناس لتمريض المرضى وإعانة الفقراء والعناية باللقطاء، كما كن يفعلن قبل ثلاثمائة سنة في فرنسا.

القرن الثامن عشر

جون وسلي والنهضة الروحية

النهضة العقلية:

إلى نهاية القرن السابع عشر، شغفت أوروبا الغربية كل الشغف بنظريات الإصلاح والإصلاح المضاد، في الكنيستين البروتستانتية والكاثوليكية. وفي بداية القرن الثامن عشر سح الباحث التاريخي نهضة جديدة تختمر في العقول لتأخذ مسراها في التاريخ. وكانت الكشوف المستحدثة في عالم الطبيعة في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وما اقترن بها من نهضة فلسفية، مهدت الطريق لنظرية جديدة عن الكون، نظرية لم تستند إلى إيمان الكنيسة، بل إلى جبروت العقل البشري. وفي جرأة وعزم صادق، نهض العلماء والمفكرون لإنقاذ العقل البشري من سلطان التقاليد القديمة وراحوا يغربلون مواد الفكر التي توارثتها الأجيال ويسلطون عليها أنوار النقد وتبدت في الأفق العقلي نظريات جديدة دفعت العالم في القرن الثامن عشر إلى حضارة فكرية مستحدثة..

وقد خضعت المسيحية التقليدية أيضًا لألوان من النقد من حيث توافقها مع العقل والطبيعة. وما استطاعت الأوضاع الكاثوليكية والبروتستانتية أن تشبع مطالب الفلسفة العقلية. وكان هذا طبيعيا لأن الدين يعنى بعلاقة الإنسان بالله وهو سبحانه وتعالى يتسامى فوق الإدراك البشري وكل أوضاع الفكر الإنساني، ولا مناص من أن ينتهي الدين إلى حد لا تدركه فيه الأفهام؛ لأن قوة الدين مستمدة من الأسرار الخفية التي تقود الإنسان إلى الله، الكائن الأعلى الذي لا تحده الأفهام.

وقد جاهد القرن الثامن عشر لخلق دين يجمع بين شيئين متناقضين، يشبع العقل وفي الوقت نفسه يطفئ ظمأ النفس وتلهفها للأشياء الخالدة، اللانهائية، غير المدركة. ولكنه عجز عن بلوغ حقائق منسجمة يمكن إثباتها بالبراهين العقلية وأمست الدعامة الروحية التي استندت إليها القرون الخوالي قصبة مرضوضة وأحيط الدين بآراء غامضة

مبهمة أيقظت عوامل الشك في الأذهان.

وما انتصف القرن الثامن عشر حتى كان مذهب هؤلاء العقليين قد فاز بنصر مبين واحتل مكانة الصدارة في الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية وراح يغذيه ويسنده جبابرة العقل في ذلك العصر أمثال فولتير وليسنج بأسلحة التهكم اللاذع والذكاء النافذ، حتى بلغ ذروة إنتاجه في فلسفة (كانت) الفيلسوف الألماني، فرسمت الحدود التي وقف عندها العقل البشري وأعلن أن وجود الله وخلود النفس من الفروض التي لا يقوى العقل على إثباتها. فوقف العقل مرة أخرى عند حدوده المرسومة واعترفت الفلسفة بأن الدين ليس عقيدة من العقائد الفلسفية التي تشبع العقل الظامئ إلى المعرفة، بل قوة تقنع الناس بدون الدليل المنطقي وتشبع حاجة الإرادة البشرية إلى الخلاص من العالم والخطيئة وحاجة الإنسان الملحة إلى الله. على أن الفيلسوف (كانت) بقي أسير مذهب العقليين حين ادعى بأن الأخلاق هي غرض الدين وهدفه واستبعد من فلسفته (كلمة الله) الذي أعلن ذاته للعالم.

وكان من آثار هذه (الاستنارة العقلية) في القرن الثامن عشر هدم نظام اليسوعيين وتوطيد أركان الدولة المطلقة السلطان وتسلط فكرة التسامح

هدم نظام اليسوعيين:

تطور نظام رهبنة اليسوعيين (الجيزويت) تطورًا كان فيه هدمه وزواله؛ لأن آدابها أمست مجرد فتاوى شرعية تحلل الشر في بعض الحالات وانطوت على المبدأ القائل إن الغاية تبرر الوسيلة. ثم إن علماء الجزويت والمجتهدين في علوم الفقه والدين زعموا بأن مطالب الأخلاق هي مجرد آراء، فالإنسان قد يفعل ما لا يرضاه ضميره إذا أمكنه الاستناد إلى رأي راجح أو شهادة كاتب من الثقاة. وبمقتضى هذه العقيدة، اتجهت إلى الحياة الدينية كثير من المساوئ والمفاسد وقد حاولت البابوية أن تعضد اليسوعيين لأنهم من أخلص أتباعها ولكنها اضطرت إلى الوقوف موقف المعترض على نظرياتهم وعقائدهم ودمغت كثيرًا منها بالبطلان. وألفت الرهبنة اليسوعية خصمًا عنيدًا في (اليانسينية

Jansenism). وهي نهضة فكرية بدأت في القرن السابع عشر في فرنسا وكانت الرهبنة اليسوعية تمثل عقيدة الكنيسة الكاثوليكية القائلة إن الانسان على الرغم من سقوطه وبفضل ما بقي له من الحرية– يخلص بأعماله المسندة بالنعمة الإلهية. بينما وقفت (اليانسينية) مناصرة للعقيدة الأوغسطينية التي اعتصم بها مصلحو البروتستانتية والقائلة إن خلاص المختارين يتم فقط بنعمة الله التي تقدر وتقضي بالخلاص لإنسان وبهلاك لآخر. وكان طبيعيًا أن تسفه البابوية هذه العقيدة وتدينها لأنها بمثابة نزعة من نزعات الإصلاح داخل الكنيسة الكاثوليكية ومناهضة للنظريات اليسوعية. وقد اقترنت هذه النهضة الجديدة بغيرة أخلاقية وصرامة في الزهد والتقشف.

على أن أثر (اليانسينية) في تاريخ العالم لم يكن في عقائدها بقدر ما كان في نقدها اللاذع لآداب اليسوعيين؛ فقد ناجزت المبادئ الأخلاقية التي نادى بها ذلكم القوم ونشبت بينها وبين الرهبنة اليسوعية معركة حامية كانت معركة الحياة أو الموت، وأشهر الذين حملوا لواء هذه المعركة (بليز بسكال) الرياضي الفرنسي الذائع الصيت والفيلسوف الطبيعي الذي أودع عبقريته وذكاءه وغضبه– رسائله **lettres Provvinciales**. وقد أراد بها هدم آداب اليسوعيين ونظرياتهم. وفي داخل الكنيسة الكاثوليكية تغلبت اليسوعية على اليانسينية، على أن اليسوعيين لم يقووا على صد هجمات بسكال التي اقترنت بالنكتة الساخرة والعقل الأريب والاستخفاف المزري وطبعت رسائله أكثر من ستين مرة وكانت أول مسمار دق في نعش اليسوعية.

فضلًا عن هذا، فإن الرهبنة اليسوعية غرقت في المصالح العالمية ومالت إلى القوة والثروة واختنقت قوتها الروحية بأعمالها التجارية ومشروعاتها المالية. بل تورطت في محاولة تبرير قتل الأمراء والملوك. كل ذلك أثار الحفائظ والأحقاد وعقدت سحابة كثيفة من السخط والحنق حول هذه الرهبنة ودعاتها. على أن نهضة الاستنارة الذهنية في القرن الثامن عشر كانت العامل الفاصل في هدمها والقضاء عليها. وذلك أن الكنيسة ذاتها– الكاثوليكية والبروتستانتية – احتضنت آراء العقليين أصحاب نهضة الاستنارة الذهنية والتي بعدت عن العناصر المسيحية المحضة في الدين واعتصمت بالنواحي الإنسانية فقط

التي جعلتها نواة المسيحية. بينما بقيت الرهبنة اليسوعية على ولائها القديم للكثلكة المحافظة المتطرفة وانتصبت أثرًا للميول الروحية التي عفا عليها الزمن. ومن هنا قامت عليها كل ثقافة القرن الثامن عشر.

دنت ساعة زوالها. ولما أراد ملك فرنسا إصلاحها تصدى له زعيمها متأبيًا عليه كل تدخل وشجر نزاع بينها وبين الدولة كانت خاتمته إلغاء الرهبنة اليسوعية سنة ١٧٥٩م في البرتغال وسنة ١٧٦٤م في فرنسا وسنة ١٧٦٧م في أسبانيا ونابولي. وأخيرًا في سنة ١٧٧٣م اضطر البابا كليمندس الرابع عشر تحت ضغط الحكومة وتلبية لمطالب العصر أن يلغيها في الكنيسة كلها وتم الفوز لأنصار الاستنارة الذهنية على نظريات اليسوعيين.

الدولة المطلقة السلطان:

إن كانت آراء القرون الوسطى قد ناصرت الكنيسة، فإن نهضة الاستنارة الذهنية وقفت إلى جانب الدولة تساندها وتعضدها. وكانت سلطة الدولة قد بدأت ترفع رأسها منذ القرن الرابع عشر ووقفت على قدميها في غضون القرن الخامس عشر في عهد ملوك فرنسا ثم أسند ظهرها بعضد قوي في عهد الإصلاح وأخذ المصلحون اللوثريون ينادون (على نقيض كالفن وجماعته) بأن يخلع كل سلطان خارجي على الدولة وتقتصر وظيفة الكنيسة على نشر رسالة الإنجيل وممارسة الأسرار المقدسة. وأودعت كل شؤون الحياة المدنية أيدي الدولة، كما منحت أيضا حق التصرف في كثير من شؤون الكنيسة وأبدت الدولة رغبتها في السيطرة على الكنيسة، لا في الأقاليم البروتستانتية فقط، بل في الكاثوليكية أيضًا وبسطت سلطانها على الثقافة في الداخل والخارج. وهنا أيضًا استعانت الدولة بنظريات الاستنارة الذهنية؛ لأن المطارحات الفلسفية في أصل السلطة السياسية وطبيعتها أدت إلى استنباط النظرية التي عرفت في التاريخ السياسي بنظرية (العقد الاجتماعي). وهي نظرية ترجع في أصلها إلى عهد الفيلسوف الإغريقي أرسطو وعرفت أيضًا في غضون القرون الوسطى ولكنها الآن أبرزت كل القوات الكامنة فيها.

وقال المجتهدون والمفكرون في ذلك العصر إن هذا (العقد الاجتماعي) أبرم لصالح

الدولة دون سواها من الهيئات، وأن الفرد مدين بالولاء للدولة وحدها التي تضمن له حريته الطبيعية. ومن ثم تكون الدولة صاحبة كل سلطة عامة وتكون كل ممارسة لهذه السلطة مردها إلى توكيل أو تفويض من جانب الدولة. وبذلك تكون سلطة الدولة مطلقة وما سلطة الكنيسة إلا مستمدة منها. وإلى هنا كانت هذه الآراء مجرد نظريات، وظلت كذلك قرونًا كثيرة، ولكن نهضة الاستنارة الذهنية ألهبتها وأشعلت النار في الفتيل.

وعلى مقتضى مبادئ الاستنارة الذهنية لم يكن التقيد بنتائج التطور التاريخي أمرًا محتومًا ما دامت تناقض الآراء الفلسفية الحديثة أو لا تنسجم مع العقل. والدولة حرة في أن تجعل قانون العقل الطبيعي سلطة إيجابية وأن تبطل القوانين القائمة وتستحدث التشريع الملائم لروح العصر وتلغي الشرائع التقليدية التاريخية وتستبدلها بشرائع تتفق وشرعية العقل المستنير. وهكذا قوي سلطان الدولة وراحت تسن الشرائع والقوانين وآمن القرن الثامن عشر بقوة الدولة في القضاء على نقائص المجتمع وعيوبه بالتشريع وإقامة قانون جامع عادل يتفق وشرعة العقل ويحمل بين ثناياه أسباب السعادة والحرية.

واكتسحت العالم موجة من الإصلاح التشريعي قضت فيها على كل ما هو ميت وكانت الثورة الفرنسية محاولة بارعة لخلق العالم من جديد وتثبيت حقوق الإنسان الخالدة في الحرية والمساواة والإخاء. واستقبلها الناس بالآمال الكبار والحماس الدافق وأعلن إبان الثورة أن سلطان الدولة وسلطان القانون الوضعي وسلطان العقل هي القوى المسيطرة على العالم التي تزمع أن تحرر الإنسانية من أغلال الماضي.

على أن الثورة انتهت بعهد الإرهاب وحل الرعب محل السعادة التي حلم بها القوم واختنقت الحرية بطغيان حكم أوتوقراطي عسكري وأدرك الناس أن الدولة ليست على كل شيء قديرة وأن القانون لا يسعف ولا يغني والانفصال عن الماضي لا يرفع المجتمع إلى ذروة السماء، بل يهبط به إلى هاوية الحجيم.

وفي هذه الحركة الناشطة والانقلاب المريع، اختفت الدولة الأرستقراطية القديمة بامتيازاتها وتمييزها بين الطبقات وأخلت الطريق للدولة الديمقراطية القائمة على المساواة

في الحقوق والواجبات لكل فرد من أبناء الدولة.

وحتى كنيسة النظام القديم ابتلعت في هذه الحركة، فمنذ منتصف القرن الثامن عشر راحت الدولة تصيغ الكنيسة بين أيديها كما تصيغ الشمع وتدخلت في أخص الشؤون الكنسية وأصدر عاهل الجرمان مجموعة من الشرائع لإصلاح الرتب الكهنوتية والإشراف على أموال الكنيسة وإنشاء مدارس الدين العامة بدلًا من المدارس الخاصة التي تولتها الكنيسة– كل هذا لتثقيف رعاة الشعب تثقيفًا يتفق ومبادئ الدولة الحديثة، وبرزت الدولة صاحبة السلطان المطلق في كل شيء.

وفي فرنسا خطت الثورة خطوات أوسع في هذا السبيل، فألغت الكنيسة بمعناها التقليدي وأسست الإدارة الكنسية جزءًا من الإدارة السياسية وتجاهلت الدولة سلطان الكنيسة والبابوية والدين، وكادت المسيحية ذاتها تمحى في (عهد الإرهاب). ولكن نبوليون أعاد بمعاهدة سنة ١٨٠١م مكانة البابوية والكنيسة في القانون الفرنسي، على أن مواد هذا القانون صيغت متأثرة بمبادئ الاستنارة الذهنية من حيث إدماج إدارة الكنيسة في إدارة الدولة.

وكان من آثار هذا التطور الانقلابي الذي أحدثته فلسفة القرن الثامن عشر؛ انهيار نظم الكنيسة القديمة– البروتستانتية والكاثوليكية– كما انهارت الرهبنة اليسوعية.

فكرة التسامح:

ولم يكن أثر الحركة الفكرية التي عرفت في ذلك القرن بنهضة الاستنارة الذهنية– قاصرًا على إلغاء الرهبنة اليسوعية وبسط سلطان الدولة على الكنيسة، بل ظهر الأمر جليًا في ناحية أخرى. فالرهبنة اليسوعية أعادها البابا بيوس السابع في سنة ١٨١٤م– وعهد الدولة المطلقة السلطان لم يلبث طويلًا حتى اندثر. أما الثمرة الخالدة التي أنضجتها تلك الحركة العقلية، فهي مبدأ التسامح. وكانت الكنيسة الكاثوليكية تجنح عادة إلى التزمت والتصلب في العقيدة وكان الخضوع للبابا وللأساقفة– أي الانتماء إلى هيئة الكنيسة– من مقتضيات خلاص الفرد وأحست الكنيسة أن من حقها خنق صوت

المعارضة وإخضاع الهراطقة الخارجين على العقيدة بالقوة والعنف، وكثيرًا ما ذهبت إلى حد توقيع عقوبة الموت على الهراطقة المتعنتين، لأن الهرطقة كانت في نظرها جريمة شنعاء وخطرًا على الجماعة المسيحية. وحتى الكنيسة البروتستانتية لم تسلم من لوثة هذا التزمت والعنف واستعانت بالسلطة الزمنية لتوقيع العقوبة على مخالفيها. وأشهر تلك الحوادث الحكم بالموت على ذلك الأسباني- ميشيل سرفيتوس- في جنيف سنة ١٥٥٣م بسبب عقيدته المضادة للثالوث.

ولكن ما بزغت أنوار النهضة العقلية حتى اشتد ساعد مبدأ التسامح وحمل لواءه فردريك الأكبر في ألمانيا وأعلام الثورة في فرنسا. وصدر في سنة ١٧٨٩م قرار حقوق الإنسان الذي كفل حرية العبادة الدينية. واليوم زالت في كل البلدان المتحضرة كل رقابة على آراء الفرد الدينية وشملت الحرية الدينية الكاملة كل العالم المسيحي، بل أدمجتها في دساتيرها أكثر البلدان غير المسيحية. ولا تستطيع الدولة أن تقيد من هذه الحرية إلا بأساليب اللف والدوران وابتكار الطرق الخفية الماكرة.

كان هذا التسامح الديني أحلى ثمرة أنضجتها النهضة العقلية في القرن الثامن عشر وانصرم ذلك القرن بعد أن أكمل مهمته ألا وهي تدمير سلطة الكنيسة الزمنية. ومن ثم انفتح أمام الكنيسة باب ولجت منه إلى مستقبل مجيد قدر لها فيه أن تجد حياتها بقواها وأساليبها الروحية.

جون وسلي:

في وسط هذه المعمعة العقلية سرت في بعض القلوب نهضة روحية جعلت الدين شعورًا بالقرب إلى الله، لا مجرد المطارحات العقلية حول العقائد والطقوس، وإنك لترى هذه النهضات الروحية الصوفية في ألمانيا يتزعمها جماعة (التقويين) في مدينة (هال) وفي الكنيسة الكاثوليكية ذاتها يقودها الكاهن الأسباني مولينوس، وفي أميركا حيث تسمى (اليقظة العظمى)، وبين الأخوة المورافيين وهم جماعة من البروتستانت من سلالة الهوسيين الذين فروا من بوهيميا ومورافيا في أواسط أوروبا إلى ألمانيا، وهناك أقطعهم حاميهم

وراعيهم الكونت زنزندورف مستعمرة في ساكسونيا عاشوا فيها حياة دينية روحية حية، حتى لقد اعترفت بهم الدولة البروسية في سنة ١٧٤٢م كنيسة مستقلة. وقد عرف عن أولئك الغيرة المتقدة في إيفاد البعثات الدينية إلى الخارج. وفي عهد زعيمهم (زنزندورف) أوفدت بعثاتهم إلى جزر الهند الغربية وجرين لاند وجورجيا وبنسلفانيا وغيانا الهولندية ومصر، وجنوب أفريقية.

بينما أعظم الذين حملوا لواء هذه النهضة الروحية في القرن الثامن عشر هو جون وسلي الإنكليزى. وكان هو وزملاؤه أفرغوا أنفسهم للحياة التقوية وفق مطالب الدين، فصاموا وصلوا وساعدوا المرضى والفقراء والمسجونين حتى لقد سخر منهم الرفاق والخلان وأطلقوا عليهم إمعانًا في السخرية لقب (النادي المقدس). وبين هؤلاء كنت ترى ثلاثة هم: (جورج ويتفيلد) ابن صاحب فندق والأخوان تشارلس وسلي وجورج وسلي، وكان والدهما قسيسًا. وقد رسم الثلاثة قساوسة في كنيسة إنجلترا ونزحوا معا للعمل في مستعمرة جورجيا الجديدة بأميركا ثم عادوا ليوقظوا شعب إنجلترا من إهماله وبلادته وينفثوا في البلاد كلها روحًا جديدة.

وإن التاريخ ليحسب (جون وسلي) من أعاظم المصلحين الدينيين ويضعه في مصاف بندكت وفرانسز وأغناطيوس لويولا. وهو لم يتزعم ثورة كما فعل لوثر ولم يؤسس دينًا جديدًا كما فعل كالفن، وإن كان قد أنشأ طائفة جديدة في المسيحية، فلم يكن ذلك من جوهر الإصلاح الذي قام به، بل كان حادثًا عرضيًا على هامش جهاده ودعوته. وهو كثير الشبه بالأسباني العظيم أغناطيوس لويولا، فلم تكن عظمته في قوة ابتكاره، بل في سحر شخصيته ومضاء عزمه وقوة تأثيره وتضحيته البالغة التي تكاد تكون فوق الطاقة البشرية.

أما بعثته في جورجيا فلم تلق توفيقًا ولم يتمكن من الاتصال بالهنود سكان البلاد الأصليين وصادفته صعاب وعقبات لم يحاول أن يتخطاها. ومع أنه تعلم الألمانية والأسبانية والإيطالية أثناء غيابه عن وطنه، إلا أنه لم يتعلم لغة الهنود الوطنيين ونفر أيضًا

من المستوطنين الإنكليز أبناء جلدته وأعثرهم بعظاته وأقواله اللاذعة وتعاليمه التي لم ترقهم. وهناك أحب فتاة، ابنة أحد زعماء النازحين المستوطنين ولكن شيوخ الكنيسة المورافية الذين التمس عندهم النصح أشاروا عليه بالعدول عن هذا الزواج وقد تزوجت الفتاة من شخص آخر، فحرمها الشركة المقدسة لأسباب لم يجسر على البوح بها وأعقب هذا كله إجراءات قانونية، وغدت المستعمرة كلها تطن كخلية من النحل، حتى اضطر وأخوه إلى أن يعودا من حيث أتيا.

في سنة ١٧٣٧م عاد إلى إنجلترا مضني القلب، موجع الفؤاد. وكان المورافيون قد أدخلوا إلى نفسه بعض الريب في أمر خلاصه وحملوه على أن يفهم أنه جد مفتقر إلى الخلاص بالإيمان. وفي تلك الفترة يقول عن نفسه: (إني مفتقر إلى إيمان حي وثقة مطمئنة بالله، حتى أشعر أن خطاياي قد غفرت بالمسيح، وإني قد صولحت مع الله. ويحيا أنا الذي نزحت لأخلص أهالي جورجيا، فأجد نفسي بعيدًا عن هذا الخلاص...).

وتسوقه قدماه إلى اجتماع ليلي لجماعة المورافيين، وهناك تصهر نفسه باختبار عجيب وتسرى في قلبه حرارة روحية ويشعر أن المسيح قد حمل عنه خطاياه وأنقذه من ناموس الخطية والموت. ومن تلك الليلة يصير الاعتقاد بفساد الطبيعة البشرية والخلاص بالإيمان الذي يبرر الإنسان وحاجة المرء إلى الثقة الشخصية– تصير هذه من العقائد الأساسية عند جماعة الميثودست وهي الجماعة التي أنشأها هذا الزعيم الروحي.

وإذ تضطرم نفسه بسعير هذا الاختبار الجديد، ينادي بين الناس في حماس لا يخمد، داعيًا إياهم إلى الإيمان الشخصي بالمسيح. ولم تكن له كنيسة يرعاها، فكان يعتلي أي منبر يقدم له ويعقد اجتماعاته في الخلوات والأماكن الرحيبة. وقد حقد عليه بعض الأساقفة والقساوسة وتوجسوا خيفة من الآثار التي كانت تطبعها عظاته في قلوب سامعيه، حتى بلغ بهم الرعب أن حرموه الدخول إلى كنائسهم وأثاروا عليه الدهماء فكانوا يرجمونه ويهاجمون سامعيه ويعطلون اجتماعاته. على أن كل هذا لم يكن ليثني الرجل وصحابته عن المضي، مسوقين في ذلك بهاتف روحي شديد الإلحاح على نفوسهم. فكان

وأصحابه يخطبون ويعظون أينما وجدوا– فوق قبر في بستان كنيسة أو فوق مقعد في ساحة من ساحات الإعدام العامة أو فوق منصة في سوق من الأسواق الحاشدة. وهرع إليه جماهير غفيرة من عمال المناجم حول مدينة برستول لسماع عظاته وكانوا يذرفون– من فرط التأثر– دموعًا تخط مجارى بيضاء في وجوههم المعتمة بسخام الفحم ويتنهدون بأنات محرقة وهم يستمعون. وذلك لأنه كان يتحدث إلى قلوبهم، فيشعرهم أن الله يعنى بهم وأن المسيح مات لأجلهم وأن نفوسهم أغلى الأشياء في العالم كله. وكثيرون من الفقراء في تلك الأيام ما كانوا قد دخلوا كنيسة ولا سمعوا أحدًا يحدثهم بمثل هذا الكلام، فلا غرابة أن تستثير هذه الدعوة نفوسهم. أما المتهاملون المنافقون، فكان يحدثهم بأقوال كالرعد القاصفة ويؤنبهم بألفاظ كالسياط المحرقة، معلنًا لهم غضب الله على شرهم وبرودهم، فكانوا يرتعبون ويندمون...

وفي تلك الفترة من التاريخ كنت ترى وسلي– رجلًا قمئ الجسم، أنيق الملبس، بوجه هادئ وردي اللون وشعر طويل بخصلات متجعدة في أطرافه– يجوب الريف والحضر واعظًا منذرًا، تارة فوق تلال الريف المتلمعة بالعشب وأوديتها الصغيرة المكسوة بالخضرة، ليتحدث إلى القرويين والصيادين الذين أحبوه ولبوا نداء رساله، وأخرى وسط الجماهير المهذبة الراقية في المدن الكبرى. وفي زمهرير الشتاء كنت تراه في الخامسة صباحًا يخوض وسط الثلوج ليعقد اجتماعًا في قرية جبلية ثم ينطلق وسط زوبعة ثلجية ليعقد اجتماعًا مسائيًا في بلدة أخرى. ومرة ذهب ليعظ في كينسة والده القديمة ولكن القسيس حال بينه وبين المنبر، فوقف على قبر أبيه في الحديقة والتف حوله جمهور كبير يستمع إليه ساعات طوالًا. وكثيرًا ما وقع بين أيدي الدهماء فكان ينجو بحياته بطرق عجيبة. وظل طيلة حياته دءوبًا مجاهدًا، يذرع بلاده من أقصاها إلى أقصاها وقد قيل إنه قطع في خلال خمسين سنة ٢٥٠.٠٠٠ ميل وألقى ٤٠.٠٠٠ عظة وعبر القناة الأرلندية اثنتين وأربعين مرة وزار إسكتلندا وويلز وهولندا وألمانيا.

كان ويسلي يدعو الناس للإقبال على الله لنيل الغفران والحياة الجديدة، وحيثما ذهب أنشأ حلقات من الناس تجتمع أسبوعيًا للصلاة وتبادل المعونة وممارسة الحياة

المسيحية الحقة وإنفاق المال على المحتاجين. وقد كلف نفسه بمعونة الفقراء وإسعافهم، حتى قيل عنه إنه بعد أن بلغ الثانية والثمانين من العمر– كان الناس يرونه سائرًا على قدميه، غائصًا في أوحال لندن الثلجية– يستعطي من القادرين لشراء ثياب لتدفئة العراة المساكين.

وفي العمل العظيم الذي اضطلع به، افتقر إلى كثيرين من الأعوان والأنصار ولم يكن يلقى عطفًا إلا عند قليل من الرعاة ورجال الكنيسة، فعول على أن ينهض بالعمل مع العلمانيين ممن امتلأت قلوبهم بالشجاعة والتضحية. وكان مواليًا لكنيسة إنجلترا، مخلصًا لها الإخلاص كله. وفي بدء الحركة كان وصحابته يصومون أيام الأربعاء والجمع على حسب ما تقضي به طقوس الكنيسة. ولم يكن ليرضى أن يعقد اجتماعاته في مواعيد العبادة أيام الآحاد وكان يحث أتباعه ومريديه على تناول الشركة المقدسة في كنائسهم المحلية. ولكنه أحس بحاجته القصوى إلى رعاة يتولون الأمور وأحس أن تشدد رجال الكنيسة يحول بينه وبين بلوغ مقاصده في (تثقيف الجهال وإصلاح الأشرار وتأييد الأبرار)، فأقبل على تنفيذ الفكرة التي كانت تجول بخاطره، وهي أن الأسقف والقسيس شخص واحد لا فرق بينهما وأن القسيس يقدر أن يرسم غيره. وفعلًا رسم بيديه رعاة لجماعاته، وإذ يفعل هذا الصنيع المضاد لعقائد كنيسة إنجلترا ونظامها، يخلق من أتباعه (الميثودست) طائفة مستقلة ضمن الطوائف البروتستانتية.

وعند موته في سنة ١٧٩١م كان في جماعته ألف من الوعاظ المحليين وثلاثمائة من المتجولين وأكثر من ٨٠.٠٠٠ عضو في إنجلترا ما عدا ١٩١ واعظًا و٦٠.٠٠٠ عضو في أميركا. أما اليوم، فإن عدد الرعاة والوعاظ يحصى بالألوف ويحصى الأعضاء بالملايين. على أن الكنيسة المثودية كانت في أميركا منذ نشأتها وما تزال (أسقفية) في نظامها. وقد رسم وسلي (توماس كوك) أول مشرف عليها وأطلق هذا على نفسه لقب (أسقف)، فغدت الكنيسة (أسقفية) منذ ذلك الحين.

***

هذه لمحة خاطفة عن النهضة الروحية التي اضطلع بها (جون وسلي) في القرن الثامن عشر. وكان لتلك النهضة آثارها في تغيير أخلاق الشعب وعاداته والاهتمام بشؤون الدين وطهارة الحياة وشرف النفس والعناية بالفقراء والمظلومين. ففي سنة ١٧٨١م يؤسس (روبرت ريكس) أولى مدارس الأحد لتنشئة الأحداث في أصول الدين، وفي القرن التالي تنهض (إليزابث فراي) داعية إلى إصلاح حال السجون الرهيبة في إنجلترا وأوروبا. وفي إنجلترا وأميركا تستيقظ الضمائر للجهاد في سبيل القضاء على تجارة الرقيق ويكتب وسلي رسالة في أخريات حياته إلى (ولبرفورس) بطل الجهاد في هذه الحركة– حاثًّا إياه على الكفاح لإزالة هذه اللوثة القبيحة من جبين الإنسانية.

القرن التاسع عشر

ولد القرن التاسع عشر وسط أعاصير الثورة الفرنسية، وكان العالم في دور من أدوار الانحلال الاجتماعي والفكري. فقد شهد القرن الثامن عشر نهضة الاستنارة الذهنية التي سلبت الناس سعادة النفس وسماء الفكر، وذلك الإيمان الوطيد الذي كان ملاذًا وحمى. وحطمت الشكوك الفلسفية تلك النظريات التقليدية الراسخة التي اعتزت بها الكنيسة دهورًا والتي تسلطت على الفرد منذ القرون الوسطى إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر، وأمسكت بيده في سبل الحياة الآمنة الهادئة. وبزوال النظريات الدينية التقليدية عن الكون التي سيطرت على الحياة المعنوية الروحية في الفرد وفي المجتمع، زالت أيضًا الدعامات التقليدية التي قامت عليها الكنيسة والدولة. وكان من آثار تلك الاستنارة العقلية المجردة نشوب الثورة والاضطراب.

ومنذ مولده جابه القرن التاسع عشر أسئلة خطيرة: هل يمكن إعادة الدعائم التي تحطمت، ويعود المجتمع المحطم بنيانًا راسخًا وطيدًا؟ وهل يسترد العالم المسيحي إيمانه السليم الذي يعصمه عن التردي في تيه الضلالات العقلية؟ هذه هي الأسئلة التي أجاب عنها تاريخ الكنيسة في القرن التاسع عشر.

الروح الرومانتيكية:

وكانت الثورة قد كلفت الكنيسة الفرنسية ممتلكاتها الأرضية؛ لأن الدولة صادرتها وجعلتها ملكًا لها. كذلك تطورت الحوادث السياسية في ألمانيا وسارت في هذا الاتجاه عينه وأعيد تنظيم الكنيسة بمقتضى معاهدات مع الكرسي البابوى وعدلت حدود الأبرشيات وفق التخوم الإقليمية الجديدة. وإلى جانب هذا التطور الخارجي، استيقظت روح داخلية– روح رومانتيكية تغلب الخيال والعاطفة على العقل– وكانت بمثابة رد فعل للنظريات والآراء الفلسفية التي نادى بها القرن الثامن عشر. وكان ذلك القرن قد أكبر

شأن الفرد وخلق عقلية مجردة لم تقم وزنًا إلا للوسائل والغايات النفعية وأنكر المعجزات حاسبًا إياها منافية للعقل وحط من شأن الكنيسة والدولة بطريقة تحكمية ثائرة. والآن يأتي القرن التاسع عشر، فيتمرد على هذا التطرف وتعقب الثورة الجامحة فترة ينصرف فيها العالم إلى الإحياء والتعمير.

وكان جان جاك روسو- الفيلسوف الفرنسي - قد مهد هذا الانقلاب الفكرى بإنجيله للطبيعة الذي حث به معاصريه على الاستمتاع بالخلوات في رحاب الطبيعة الجميلة وإشباع الخيال والعواطف بجلال الجبال الشامخة وروعة المناظر الخلابة. وهو الذي سفه الفلسفة العقلية واستبدل بها الأشواق القلبية، التواقة التي تحن إلى الله الحي والتي جعلها أولى مبادئ الدين والدليل الذي لا يبارى في إثبات حقائقه القديمة. وعجيب أن تجتمع في هذا الرجل الحقير في أخلاقه، ولكن العبقري في بصيرته، تلك الآراء التي كان مقدرًا لها، لا أن تذكى ضرام الثورة وحسب، بل تخلق أيضًا رد الفعل الذي يعقب الثورة. فبعقده الاجتماعي أعلن سيادة الشعب وسلطانه وحطم في فرنسا السلطة الملكية، ثم الكنيسة والدولة كليهما، ولكن بإعلانه مفاتن الطبيعة والكشف عن أسرارها وروائعها وقواها الخالدة وبدفاعه عن مطالب القلب ونوازعه ضد منطق العقل وتحكمه، كان مبدع الحركة التي جددت حياة الكنيسة والدولة معًا.

أفلت شمس الاستنارة العقلية التي تميز بها القرن الثامن عشر وزال معها رواء الحقائق الباردة التي أنتجتها أذهان العباقرة المفكرين وتاق القرن التاسع عشر، لا إلى النقد والتجريح، بل إلى العقيدة والاقتناع، إلى إيمان الآباء الأولين، إلى الخبز الحي لتغذيته روحيًا بدل تلك الحجارة التي قدمها القرن المنصرم. ومرة أخرى تجد أسرار المسيحية مرتعًا خصيبًا في قلوب الناس.

وكان حكم الإرهاب الذي اختتمت به الثورة الفرنسية والحوادث الحربية العظيمة التي طلع بها القرن التاسع عشر والنزعات الأخلاقية السامية التي خلقتها حرب الحرية– كانت كلها مجتمعة بمثابة أدوات حرث عمسقت الأخاديد التي غرست فيها بذور الكلمة

الإلهية لتنبت للناس خيرًا وبركة.

الحنين إلى المسيحية التاريخية:

وبعد عصر النقد والإلحاد، يأتي عصر الحنين إلى المسيحية التاريخية، الإيجابية، الموحى بها إلى القلوب. وبعد فوضى الحرية التي أعقبت الثورة الفرنسية، يلتمس الناس سلطة عليا ثابتة وطيدة الدعائم وبعد أن تشتط العقول في الاجتهاد والتحليل، يشتد الظمأ إلى إيمان يشبع القلب وينقذ من العالم ومن الخطية.

ثم تنهض الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية في بكور القرن التاسع عشر إلى حياة جديدة وتتطلع الكنيسة الكاثوليكية إلى رومانتيكية القرون الوسطى وقد كانت تلك القرون عصورًا امتلأت بكل عجيب من خفايا الدين وأسراره وأزهرت فيها السلطتان العظيمتان– الإمبراطورية والبابوية– ولم تبق حية إلا البابوية، فإليها تتطلع الأبصار. ومرة أخرى نرى أبهة البابوية التاريخية القوية ومتانة نظام الكنيسة الكاثوليكية وروعة العبادة الكاثوليكية التي أخضعت كل الفنون لخدمتها وألهبت العواطف الدينية– نراها تؤثر بسحرها في النهضة الرومانتيكية الحديثة. ومرة أخرى نرى العابدين من العلمانيين يتقدون حماسًا وغيرة على كنيستهم، ليعود كثيرون من زعماء البروتستانتية إلى أحضان أمهم القديمة. على أن هذه النهضة تلتزم في سيرها المبادئ التي وضعت في مجمعي كونستانس وبال وتكره المواكب والمظاهر البراقة والحج إلى بيت المقدس وعبادة آثار الأقدمين وتأبى على البابوية السلطة المطلقة– بل تؤمن في دخيلة نفسها بأن البروتستانتية وضع من أوضاع المسيحية المقبولة لدى الله. وبذلك توثقت العلاقات الودية بين الكاثوليك والبروتستانت.

وإلى جانب الرومانتيكية الكاثوليكية، تنهض أيضًا الرومانتيكية البروتستانتية التي كان من أبرز آثارها أن اتحدت الكنيستان اللوثرية والمصلحة وتكونت منهما في بروسيا إنجيلية واحدة متحدة.

تلك كانت أبرز ظاهرة في بكور القرن التاسع عشر في تاريخ الكنيسة– تفوق الخيال

والعاطفة على قوة العقل والذهن.

انفصال الكنيسة عن الدولة:

وإذ ينتصف القرن، نشهد ظاهرة أخرى كان لها أثرها في تطور تاريخ الكنيسة. ونحن إذا ألقينا نظرة إلى سير التاريخ وتطوراته من القرون الوسطى إلى يومنا هذا، وإلى العوامل التي قوت مكانة الكنيسة بين الدول العظمى في الجماعات البشرية، نجدنا أمام مرحلة جديدة تنتهي بها العلاقات القديمة بين الدولة والكنيسة. فمن بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية، خضعت الدولة لسلطان الكنيسة. كان هذا هو الحال في عهد جريجوريوس السابع وإينوسنت الثالث. ولما بلغت الدولة رشدها واشتد ساعدها، أخضعت الكنيسة لسلطانها. وقد بدأ هذا التطور في القرن الرابع عشر وبلغ ذروته في القرن الثامن عشر. فأولًا تخضع الدولة للكنيسة ثم تخضع الكنيسة للدولة. أما الآن فيتبدل الموقف وتنمحي هذه التبعية المتبادلة وتشهد من منتصف القرن التاسع عشر حركة تهدف إلى تخليص الكنيسة من الدولة وتخليص الدولة من الكنيسة،؛ بحيث تكون كنيسة حرة في دولة حرة. وكانت تلك حركة أسندها تطور الجماعات وهي ما تزال المثل الأعلى للتوفيق بين الحرية الكاملة في الحياة الاجتماعية وبين سلطة الدولة الحديثة.

فالدولة ليست السلطة الوحيدة أو السلطة الأقوى والأعلى والدين الحق لا يستمد قوته ونفوذه من سلطان الدولة، بل من ثقافته وآدابه وقوته الروحية الكامنة فيه. أما الدين الذي تسنده الدولة بقوانينها وشرائعها وحمايتها، فهو دين هزيل لا حيوية فيه ولا خير منه لأرواح الناس وأخلاقهم وحياتهم. والحق أن ثقافة الشعوب لا تخلقها الدولة، بل يخلقها الدين الذي يؤمن به الشعب وأنت مستطيع أن تحكم على مدى رقي الشعب وثقافته وروحه من الدين الذي يدين به. وإيمان الإنسان، لا معرفته وعلمه، هو الذي يبعث فيه مقومات الحياة الفضلى ويهيئ له أسباب الكرامة والقدر المرموق.

من ثم نرى الاتجاه الفكري في العالم المتحضر يسير إلى فصل الدين عن الدولة، فتتولى الكنيسة مهامها الروحية في حرية تامة وتضطلع الدولة بمهمة الحكم وصيانة النظام

والقانون. ونرى شعوب الغرب وزعماءها يجاهدون لترقية الإحساس الاجتماعي الذي يعبر عنه بالوعي القومي مجردًا عن دين معين– وعيًا قوميًا يتغنى بالوطن ويدعو إلى إعزازه والافتخار به والذود عنه، دون أن يصطبغ بأي دعاية دينية– وعيًّا ينادي بالكلمة المأثورة التي يقولها الشرق اليوم نظريًّا: (الدين لله والوطن للجميع).

وقد كان الوعي القومي في بلدان الغرب المسيحية وليد عصر النهضة ولكنه الآن يقوى ويجرف أمامه كل عصبية دينية وتغدو الوطنية بعيدة عن النعرة الدينية أو المذهبية.

هذا هو المثل الأعلى في حياة الشعوب الراقية المتحضرة. إما الاعتصام بالعصبية الدينية في أمة أو في جامعة من الأمم أو الخلط بين الوطنية والدين أو احتضان الدولة لدين رسمي والمناداة به ليل نهار وتمييزه على غيره من الأديان– فهذا رجوع إلى القرون الوسطى وتعثر في موكب الحضارة. وقد كان هذا شأن أوروبا المسيحية في تلك العصور، وما الحروب الصليبية إلا مظاهر لتلك العصبية الدينية التي عفا عليها الزمن وخلفتها وراءها الأجيال في التطور الحديث.

البعثات الدينية:

وكان من آثار هذه الحياة الرومانتيكية الجديدة التي اختمرت في الكنيسة وأيقظت روحانيتها– أن نشطت في هذا القرن الدعوة إلى المسيحية في بلدان العالم ونزحت البعثات الدينية من ألمانيا وسكندناوة وفرنسا وهولندا وأميركا وإنجلترا إلى كل قطر من أقطار الأرض. وليس في الأمر غرابة، فالكنيسة الحية هي الكنيسة المجاهدة خارج حدودها المحلية الضيقة ولاسيما أن نشر الدعوة من المبادئ الأساسية التي قامت عليها المسيحية ومن الوصايا الصريحة التي أوصى بها ربها وسيدها. ولقد عانى المسيحيون في كل العصور صنوفًا من الاضطهاد والتعذيب والألم والموت في سبيل قيامهم بهذه الدعوة. ولن يمكن لأي قوة في العالم أن تخمد هذا الصوت أو تصد هذا التيار.

وإنها لقصة رائعة التي كتبها أولئك المرسلون الذين نزحوا عن الأهل والوطن إلى مجاهل الأرض، فسطروا بدمائهم وتضحياتهم أبهر صفحات الجهاد في سبيل قضية رابحة.

وقبل أن يفتتح القرن كان رجال بعثة لندن قد عبروا الغمر وحملوا رسالة الإنجيل إلى شعوب جزائر البحر الجنوبية الشرقية. وفي سنة ١٨٤١م كنت ترى أسقفًا انكليزيًا يجاهد ببسالة في نيوزيلندا في أبرشية مساحتها ٩٦.٠٠٠ ميل واستدعى زميلًا له ليرعى شعوب الجزر الغربية وقد استشهد هذا الأخير– الدكتور باتسون– بأيد عصابة حسبته خطأ أحد تجار الرقيق. وفي سنة ١٨٤٢م فتحت الصين موانئها للتجارة الأجنبية، فكان المرسلون أوائل النازحين إليها ومهدوا الطرقات المجهولة لمواكب حملت الرسالة في أثرهم. وبعد هذا التاريخ بخمسين سنة، نشبت ثورة (البوكسر) المعادية للأجانب وتطورت إلى مذابح رهيبة ضد المسيحيين، فيها استشهد كثيرون من الصينيين، وكانت أصول الدين قد غرست عميقة في قلوبهم، فآثروا الموت على الإنكار والردة.

وفي سنة ١٨٥٩م، فتحت اليابان أبوابها الموصدة لدخول الأجانب وحظرت على كل أجنبي الدخول إلى ربوعها مدى أكثر من قرنين، منذ وقعت المذبحة الرهيبة التي قتل فيها عدد غفير من المسيحيين الوطنيين وحرمت تحريمًا باتًّا اعتناق المسيحية وجعلت الموت عقوبة من يخالف هذا القانون. وكان الكاثوليك أوائل الوافدين، فوجدوا أهل القرى يمارسون المسيحية سرًّا على قدر ما استطاعوا أن يذكروها طيلة هذه المدة. وقد حكم بالموت على كثيرين منهم بسبب إشهارهم مسيحيتهم. على أنه بعد أربعة عشر عامًا من دخول الأجانب، صدر قانون التسامح الديني.

وقبل أن تفتح البلاد أبوابها للأجانب، تسلل إليها كاهن أرثوذكسي غيور– يدعى الأب نيقولاي– وبدأ عمله سرًا في بلاد اليابان وسيم أسقفًا فيما بعد وبنيت في طوكيو بمعونة الروس المسيحيين واليابانيين المسيحيين، كاتدرائية أرثوذكسية.

وفي بلاد الهند كان المرسلون من دنمارك أول من بدأ بنشر الدعوة، وكان وليم كاري أول مرسل مهد الطريق إلى بلاد الهند، ثم هنري مارتن الذي قضى ست سنوات مكبًّا على ترجمة الإنجيل إلى اللغتين الهندستانية والفارسية، وإسكندر دف الإسكتلندي الذي أنشأ المدارس للتعليم الراقي بين الطبقات العليا من الهنود.

وكان المرسلون المسيحيون قد دخلوا أفريقية الجنوبية قبل الحالة والمبشر العظيم داوود لفنجستون بقليل، ولكن هو الذي شق طريقًا في قلب القارة المظلمة ودعا زملاءه المسيحيين ليقتفوا خطواته، فساروا وراءه إلى أبعد مما وصل وراحوا يمهدون الطرقات وينشرون الدعوة وينشؤون المدارس ومراكز التدريب ويستميلون الناس إلى الله بدعواتهم وحياتهم وبروح الولاء والمحبة لأهل أفريقية.

حقًّا كان أولئك المبعوثون رسل حضارة وحاملي مشعل الإنجيل إلى أظلم زوايا الأرض...

كان بعضهم رحالة مستكشفين يفتحون البلاد ويمهدون الطرق– مثل داوود لفنجستون وماري سليسر في أفريقية وجون وليامز في البحار الجنوبية وجدسون في بورما.

وصار آخرون علماء في اللغات، فترجموا الأسفار المقدسة مثل وليم كاري في الهند وروبرت موريسون في بلاد الصين وهنري مارتن في بلاد فارس والأسقف باتيسون في أرخبيل الجزائر وفينيا مينوف في بلاد السرب وإيفانس بين الهنود الحمر.

وكان بعضهم أطباء يشفون أسقام المرضى ويكافحون الأوباء ويدرسون أمراض المناطق الحارة معرضين أنفسهم لأخطار الموت. ومن هؤلاء الشهداء نذكر الدكتور بنسيل في أفغانستان. وخدم آخرون في المستشفيات والتمريض، بل حملوا في أجسادهم أعباء المتألمين كما فعل الأب دميان الذي رضي أن يصاب بالبرص ليعرف كيف يعين أولئك المرضى البائسين.

وأفرغ بعضهم أنفسهم لخدمة التعليم والمدارس، مثل: إلكسندر دف وميللر في الهند. وفي مراكز التعليم الصناعي، مثل: ستيوارت لوفيدال في أفريقية وشارلس أبل في بابوا وخدم كثيرون قضية العلم بمشاهداتهم في البلاد المجهولة.

وقد تجند المرسلون في القرن التاسع عشر من كل طبقات المجتمع وأصحاب الحرف والمهن، من بينهم:

وليم كاري:

ومن أعظمهم شأنًا وليم كاري الإنكليزي، وكان من قبل إسكافيًّا وأول من دعا قومه لحمل رسالة الإنجيل إلى العالم الوثني، فسخروا منه في أول الأمر، ولكنه لم ينثن عن عزمه وأجاب الوجلين الذين أرادوا تثبيط همته بذكر المخاطر والأهوال: (انتظروا من الله عظائم الأشياء وحاولوا معه عظائم الأشياء). ويرحل مع زميل له– جون توماس– إلى شمال الهند ويبدأ نضالًا عنيفًا لكسب عيشه وأسرته ويلتقط اللغة الوطينة، ثم يطلب أن يصرح له بنشر الدعوة المسيحية بين الأهلين ولم تكن الهند قد صارت جزءًا من الإمبراطورية البريطانية وكانت الشركات التجارية المستغلة الأرض تكره البعثات الدينية. وبعد ذلك يدعوه حاكم سيرامبور الدانماركي للاستيطان في بلاده ويعينه على بناء كنيسة ويصرح له بنشر الدعوة. وهنا بدأ كاري مع زملائه يترجمون الكتاب المقدس ويفتتحون المطابع. وكان كاري لغويًّا بطبعه وسليقته وتعلم اللاتينية واليونانية والعبرانية قبل رحيله من إنجلترا، فذاع صيته، لا كمبشر ومترجم فقط، بل كأستاذ للغات الشرقية في كلية كلكتا الأميرية. وعلا شأنه ونفوذه في كل الأرجاء، وكان لاحتجاجه أثر في إبطال عادة إحراق الأرامل الهنديات وهن أحياء وتقديم الذبائح من الأطفال. ومن مطبعته انتشرت الأسفار المقدسة إلى كل أصقاع الهند ووهب كل ماله الذي ادخره من عمله للبعثة الدينية ومات فقيرًا لا يملك شيئًا. واليوم ترى في سيرامبور مدرسة جامعة ساهرة على المهمة التي بدأها.

روبرت موريسون:

وثمة عالم آخر من علماء اللغات هو روبرت موريسون، بدأ يتعلم اللاتينية واليونانية وهو يصنع قوالب الأحذية استعدادًا لدخول الجامعة. وكان طيلة الوقت يفكر في حاجة العالم القصوى ويدعو الله قائلًا: (أرسلني إلى حيث يقل العاملون، إلى حيث تعظم الصعاب). وقدم نفسه إلى جمعية لندن للمرسلين، فأوفدوه إلى بلاد تأتلف لغتها من خمسة وأربعين ألف رسم وينطق بالكلمة، فيؤدي النطق كثرة من المعاني. أوفدوه إلى بلد تبغض الأجانب وطردت البرتغاليين والهولنديين من قبل ولم تسمح لأحد بالاستقرار إلا

لبعض عمال شركة الهند الشرقية في منطقتين محدودتين. أوفدوه إلى امبراطورية الصين الواسعة الأرجاء التي لم يدخلها مرسل بروتستانتي من قبل.

وقبل رحيله تعرف إلى صيني ليعلمه اللغة من كتابين وضعهما المرسلون الكاثوليك. ولم يكن ميسورًا السفر في سفينة إنكليزية إلى بلاد الصين رأسًا، فرحل إلى أميركا أولًا وتحسين الفرصة للسفر من هناك. وحينما تقدم إلى صاحب السفينة ليوقع أوراقه، نظر إليه شزرًا ورمقه ساخرًا، وقال: (إذا تريد يا سيد موريسون أن تقتحم وثنية الإمبراطورية الصينية العظيمة). فأجابه: (لا. ولكن أرجو أن يفعل الله هذا). ولما بلغ كانتون أكترى دارًا حقيرة جدًّا كانت جزءًا من مصنع في ضواحى المدينة وراح يستزيد من تعلم اللغة الصينية خفية وكان هو ومعلمه عرضة لعقوبة الموت، لأن قوانين البلاد كانت تحرم تعليم (اللسان الصيني الشريف) لبربري حقير من برابرة الأوروبيين. على أنه لم يمض زمن حتى كشفت شركة الهند الشرقية عبقريته، فاتخذته مترجمًا لها وانتفع بماله ووظيفته في خدمة القضية التي نزح من أجلها وهي نشر الدعوة المسيحية. وما تمض عشر سنوات حتى فرغ من طبع قاموس إنكليزي صيني. وبعد انقضاء اثنتى عشرة سنة فرغ من ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الصينية. وكانت هذه الترجمة أساسًا بنى عليه المرسلون الذين اقتفوا خطاه في السنوات اللاحقة.

جون ويليامز:

وبينما كان كاري في الهند وموريسون في الصين، أبحر شاب يدعى جون ويليامز مع زوجته في التاسعة عشرة من عمرها إلى جزر البحار الجنوبية وطفق يعلم سكانها القراءة والكتاب وبناء المساكن وأراد أن ينتقل إلى جزر أبعد ولم تكن لديه سفينة، فبنى لنفسه من مواد غشيمة وأدوات قليلة وأشجار الجزيرة– سفينة حمولتها سبعون طنًا وصنع سارياتها من جذوع الأشجار وشراعها من المسمار الوطني ومرسلتها سقطًا من حجارة وثبت أنواعها بمسامير من خشب. وحمل في (رسول السلام) (وهو الاسم الذي أطلقه على سفينته) رسالة السلام إلى القبائل المحاربة وكان لجهاده أبلغ الأثر في حياة أولئك القوم.

وكانت رحلته الأخيرة إلى جزر ميلانيزيا وكان أهلوها قد طردوا من قبل الرحالة الجرئ الكابتن كوك وبأيدي هؤلاء الرجال المتوحشين، لقي جون ويليامز حتفه.

ولكن دماء الشهداء بدار الكنيسة، فما انقضت سنوات حتى مال سكان تلك الجزائر إلى المسيحية وقام ابن الرجل الذي قتل جون ويليامز بوضع الحجر الأساسي لكنيسة تذكارية بنيت إحياءً لذكره.

إلكسندر مكاي:

ثم تنقضي أربعون سنة بعد موت جون ويليامز، وإذا بنا نشهد مهندسًا شابًا يدعى إلكسندر مكاي يرحل لنشر الدعوة في قارة أفريقية التي استكشفت بعض مجاهلها. وبدأ عمله بتمهيد طريق من الساحل إلى أوغندا. وقطع رحلة شاقة عانى فيها الأمرين من لدع الذباب وهجمات الوحوش الكاسرة واعتداء قبائل المتوحشين ونفاد الماء والزاد والدواء... وعلى الرغم من هذه المشاق التي تفت في أشد العزائم بلغ يوغندا، ولم يلق في أول الأمر مقاومة من ملكها، فترجم إنجيل متى إلى لغة القوم وراح يعلم الشعب الكسول الخامل كيف يعمل بيديه وعمد كثيرين بعد أن آمنوا بالمسيحية، ولكن ملكًا وثنيًا جديدًا يطرده من البلاد، فارتحل إلى منطقة أخرى وظل يبعث برسائل العون والتشجيع للمسيحيين في يوغندا إلى أن مات في مقره في أرض الجهاد والاغتراب. واستشهد كثيرون من الوطنيين المسيحيين في يوغندا وكتبوا بدمائهم قصة تاريخية من أروع قصص الاستعباد في سبيل الاعتصام بالدين. وأخيرًا دانت يوغندا كلها للمسيحية وغدت منارة تتوزع منها الأنوار إلى قلب القارة السمراء.

هنري مارتن:

ومن فطاحل المرسلين في هذا القرن، هنري مارتن، وهو الرجل الذي أوقف نفسه لخدمة الله والناس وأول من حمل رسالة الإنجيل إلى العالم الإسلامي.

ولد هنري مارتن في أواخر القرن الثامن عشر في بلدة صغيرة بإنجلترا وتلقى علومه

في جامعة كامبردج، حيث نال كل جوائز الشرف وكان أول الفائزين في الامتحانات النهائية. على أنه لم يعبأ بالمجد العالمي الذي كان مهيأ له وأحس بهاتف داخلي يسوقه إلى بلاد الهند وركوب المخاطر لنشر رسالة الإنجيل. وفي شهر يوليه من سنة ١٨٠٥م، أبحر إلى بلاد الهند في رحلة استغرقت تسعة أشهر قبل أن تطأ أقدامه بلاد أحلامه وآماله.

وفي أثناء رحلته بدأ يتعلم اللغة الهندية، فأتقنها بذكائه الفطري. وما انقضت ستة أشهر بعد وصوله حتى شرع في ترجمة سفر أعمال الرسل وبعض أمثال المسيح إلى اللغة الهندية بمعونة معلمه الوطني. وأخذ يدرس أيضًا اللغات السنسكريتية والفارسية والعربية. وقبل نهاية السنة الثانية من دراسته أكمل ترجمة الإنجيل (العهد الجديد) إلى اللغة الهندية وأشرف على ترجمته إلى اللغتين الفارسية والعربية التي كان يقوم بها أحد علماء المسلمين.

على أن هذا العالم اللغوي كان عليل الجسم ولم تستطع صحته احتمال حرارة الشمس اللافحة، فأشفق عليه أصدقاؤه وحاولوا إقناعه بالسير على مهل والسفر بحرًا للتريض والاستجمام. وإنه لكذلك وإذا به يتلقى نبأ بأن العلماء الذين عرض عليهم الترجمة الفارسية لم يقروا نشرها بكثرة لما بها من المصطلحات العربية، ولأنها مكتوبة بلغة فصحى لا يستسيغها العامة، فاعتزم أن يسافر إلى بلاد فارس وبلاد العرب لتنقيح الترجمتين. وفي أوائل سنة ١٨١١م ودع بلاد الهند وداعًا أبديًّا لأنه لم يرها مرة أخرى.

وكان السفر إلى بلاد فارس يومئذ شاقًّا مضنيًا، وكان الحر في بداية الرحلة قائظًا لا يطاق. ولما بلغت القافلة المناطق الجبلية، انقلب الجو بردًا قارصًا، حتى كان هنري مارتن يرتجف من شدة البرد على كثرة ما ارتدى من ثياب والرجل نحيف عليل يغالب كل هذا بجلد عجيب.

وأخيرًا بلغت القافلة مدينة شيراز ونزل هنري ضيفًا على مسلم كريم يدعى جعفر علي خان، وكان من ذوي المكانة العليا، وقد حمل إليه مارتن رسائل توصية من أصدقاء له في بلاد الهند. وفي شيراز الترجمة الأولى التي لم تفِ بالغرض.

وما استقر به المقام طويلًا حتى ذاع صيته وأخذ يتوافد عليه كثيرون من أعيان المدينة

من مسلمين وصوفيين ويهود؛ للخوض معه في مساجلات دينية ودعوته لإلقاء المحاضرات العامة في المشكلات الدينية.

وفي أواخر شهر فبراير من سنة ١٨١٢م أكمل مارتن الإنجيل إلى الفارسية، وبعد شهر آخر أكمل ترجمة سفر المزامير. وكان يتمنى أن يتقدم بيده نسخة من الإنجيل لشاه بلاد العجم، ولذلك يغادر مدينة شيراز التي أقام فيها سنة كاملة ويقوم برحلة شاقة قاصدًا تبريز، ولكن متاعب السفر وأهواله أثرت في صحته تأثيرًا سيئًا، فعدل عن مقابلة الشاه وطلب إلى سفير بريطانيا العظمى أن يقدم النسخة للشاه نيابة عنه.

ولم يبق ثمة أمل في شفائه إلا بعودته إلى إنجلترا، فانطلق برًا إلى الأستانة (مسافة ١٧٠٠ ميل) ولكن قبل أن يبارح حدود بلاد فارس، أصيب بداء عياء لم يمهله طويلا، فمات في مدينة طوفات في السادس عشر من أكتوبر سنة ١٨١٢م– مات غريبًا عن وطنه، لم يسمع صوت صديق يواسيه ولا يد حبيب تسند رأسه الكليلة، ولكن ربه الذي ضحى بحياته من أجله كان معه إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة.

***

ولم تقف آثار هذه النهضة الروحية عند نزوح الدعاة والمرسلين إلى أقاصي الأرض، بل ألهبت النفوس لمكافحة المساوئ في أرض الوطن وملأتها عطفًا على الفقراء وعزمًا على تحطيم الأغلال التي كبلت المظلومين والمدودين. وكان الفقر والشقاء مخيمين على كثير من بلاد أوروبا وخلقت النظم الصناعية المستحدثة وفرة من الشقاء والمرض والعوز والحرمان وبرزت إلى الوجود مشاكل المساكن القذرة والأجور الضئيلة وساعات العمل الطويلة المضنية وتشغيل النساء والأطفال في المصانع والمناجم. ولم يكترث أغلب الأغنياء بهذه المساوئ؛ لأن المبادئ المسيحية الأولى فترت في القلوب وتضاءلت روح الأخوة بين الأغنياء والفقراء. ولكن هذه النهضة الروحية تخلق رجالًا يتقدمون الصفوف لمكافحة هذه المساوئ الاجتماعية وإنارة أذهان الخاملين لرؤية ما حولهم من أسباب الظلم وألوان الألم وإيقاظ الضمائر لحمل المسؤولية المشتركة في الحياة. وبين الذين خلد التاريخ أسماءهم

في هذا الجهاد (تشارلس كنجزلي) الاشتراكي المسيحي، وتشارلس بلاتر اليسوعي، وكان بينهم شعراء مثل وليم بليك، وروائيون مثل تشارلس دكنز ومشرعون مثل اللورد شافتسبرى، ومجاهدون في الظلام مثل وليم بوث مؤسس جيش الخلاص...

كل هؤلاء وغيرهم من أجناد النهضة الدينية- دبجوا المقالات ونظموا القصائد وسدوا الشرائع وجالوا في بؤر الظلام ومواطن الشقاء لإسعاف الفقراء والمظلومين الذين أحبهم الله ومات المسيح من أجلهم.

القرن العشرون

اتحاد الكنيسة

مراحل الدعوة المسيحية:

اجتازت الدعوة المسيحية في العشرين قرنًا مراحل عدة، سطرت فيها تاريخًا مجيدًا رائعًا. ففي المرحلة الأولى، نشطت في حوض البحر المتوسط حيث استوطنت أرقى الشعوب ثقافة وحضارة في ذلك الزمن، وكانت وسيلتها استمالة الأفراد أسرًا بطريق الدعوة والاقناع. فلما اشتد ساعد هذه الحركة وقوي نفوذها، أقبل إليها الناس جماعات وشعوبًا. وكان أوسع هذه الحركات نطاقًا القرار الذي أصدره الإمبراطور قسطنطين في القرن الرابع بجعل المسيحية دينًا رسميًا تسنده السلطات الرومانية.

أما المرحلة الثانية، التي تلي القرن الخامس وتميزت بانضواء شعوب أوروبا الشمالية تحت لواء المسيحية. وكان إقبال الناس في هذه الحقبة جماعات؛ وذلك لأن القبائل والشعوب كانت تتبع عادة حكامها وسلوكها. فالشعب الإنكليزي يسير وراء ملك (كنت) في الجزر البريطانية، كما يسير الروس وراء أميرهم فلاديمير. على أن كسب الشعوب جماعات لم يتم بالوسائل السياسية والبواعث العالمية المحض، بل كان دائمًا وراء هذه المساعي رهبان ومرسلون يبثون الدعوة ويهدون إلى الحق في بذل كريم ومحبة سخية وتضحية بالغة.

أما المرحلة الثالثة، فهي التي تقع بين عام ١٥٠٠م وعام ١٨٠٠م. والواقع أن القرون الوسطى لم تبذل جهودًا لنشر المسيحية خارج أوروبا، ولكن في أواخر هذه الفترة انتشرت المسيحية على أيدي الفاتحين والمستكشفين من رحالة أوروبا من أسبان وبرتغاليين وغيرهم. وحمل هؤلاء المسيحية معهم إلى هنود أميركا والمستعمرات البرتغالية في الهند

وسيلان وجمهوريات أميركا الجنوبية، وقامت بعثات اليسوعيين بنصيب مشكور في هذه الفترة في الصين والهند بين البراهمة والطبقات المثقفة.

أما المرحلة الحديثة، فهي التي تقع في القرنين التاسع عشر والعشرين. وفي هذه الفترة اتخذت الدعوة مظاهر شتى وأساليب مختلفة ونشطت أعمال البعثات الدينية في البلدان غير المسيحية في أفريقية وآسيا وأقبلت إلى المسيحية جماعات كبيرة من الشعوب ذات الثقافة البدائية مثل سكان جزر الباسفيك والهند الشرقية والطبقات المنبوذة في بلاد الهند والقبائل الأفريقية. كما أقبل إليها الأفراد في أعداد غفيرة في اليابان والصين وكورية والهند وتأسست كنائس وطنية مستقلة قامت بنصيبها في نشر الدعوة. وفي هذه المرحلة تعددت وجوه النشاط، فأنشئت المدارس والكليات ودور نشر المؤلفات والملاجئ والمستشفيات للعناية بالنواحي الثقافية والعلاجية. وينحو الاتجاه الحديث إلى التوسع لتشمل الرسالة المسيحية النواحي الاقتصادية والاجتماعية مثل تعليم الأمين القراءة والكتابة والإصلاح القروي؛ فالمسيحية لا تعني بنفس الإنسان فقط، بل تريده أن يتكامل في شخصيته، ليحيا حياة كريمة روحيًّا وجسديًّا وعقليًّا واجتماعيًّا.

وفي هذه المراحل بذل ألوف من الدعاة والمرسلين أعز ما لديهم في سبيل هذه القضية المقدسة، ذكر التاريخ أشياء عن كثيرين منهم - كما رأينا في الفصول السابقة - وجاهد غيرهم دون أن يسجل التاريخ أسماءهم.

***

في القرن التاسع عشر، انطلق المرسلون الأوروبيون إلى كثير من رقاع العالم وسارت الحضارة الأوروبية إلى تلك الرقاع تحمل معها ما فيها من خير وشر. ومن المساوئ التي حملتها الحضارة الأوروبية الخمور وبعض الأمراض الخبيثة وإعنات الرجال والنساء والأحداث بتشغيلهم في المصانع ساعات طويلة بأجور دون الكفاف. وفضلًا عن هذا، فإن الشعوب التي اعتنقت المسيحية ونبذت تقاليدها الدينية القديمة، نبذت معها أحيانًا بعض ما كان حكيمًا وجميلًا في فنونها وآدابها القديمة، وبعض طرائق الحياة السليمة التي

تلائم بيئتها وأنظمتها[١٣] واستعاضوا عنها بعادات لم تلائم أخلاقهم ومناخ بلادهم. وقد فطن عقلاء المرسلين وزعماء الشعوب إلى هذه المساوئ، فراحوا يدعون إلى حضارة وعبادة مسيحية تبقى محتفظة بكل ما هو صالح محبب من عادات الشعب وتقاليده ويبنون الكنائس والمدارس على طراز الأبنية الوطنية على قدر المستطاع ويحيون الصناعات القديمة والأناشيد والألعاب القومية، فاستطاع المتنصرون الذين صاروا قساوس ووعاظًا ومعلمين وأساقفة أن ينشروا الدعوة المسيحية، لا بلغاتهم الوطنية وحسب، بل بطرائق التفكير الخاصة التي يفهمها الشعب. فنرى في بلاد الهند مثلًا المتصوف الصادو سندر سنغ، وهو من السيخ في بلاد البنجاب ومن متخرجي كلية الدين في لاهور، يأبى أن يرسم قسيسًا ويؤثر أن ينشر الدعوة بين قومه ك(فقير) هندي، يجوب البلاد بقدمين عاريتين وثوب زعفراني، يحمل كتابًا مقدسًا ودثارًا يقيه قرص البرد ووعاء للاستجداء. وقد صار الرجل قوة هائلة في بلاد الهند وفي غيرها من البلدان. ونرى غيره من المتنصرين الوطنيين يبذلون حياتهم لمكافحة المساوئ التي حملتها حضارة الغرب؛ ففي أفريقية يفلح الزعيم (كاما) في إبطال تجارة الخمور في إقليمه. وفي بلاد الصين يخترع القسيس (هيسي) حبوبًا تخفف اللوعة التي يحس به مدمن الأفيون ويفتدى بعلاجه وصلواته ومثال حياته الطاهرة حياة المدمنين من مواطنيه. وفي اليابان يكافح الزعيم كاجوا لوثات الأحياء القذرة والمساكن الحقيرة وأسباب العيش الذليلة.

أكري الأفريقي:

وأحيانًا يخلق هذا الوعي القومي شيئًا من الكراهية للأجناس الأخرى التي تختلف في اللون. وفي أواخر القرن التاسع عشر يولد في القارة السمراء الأفريقية، رجل قدر له فيما بعد أن يوقف حياته لتوطيد أسباب الثقة وحسن التفاهم بين البيض في أميركا وبريطانيا وبين الأجناس السوداء في أفريقية. واسم هذا الرجل (جيمس أكري)، وهو أفريقي من ساحل الذهب.

---

(١٣) في بعض القبائل البدائية كان ارتداء الملابس الثقيلة مدعاة لاعتلال صحة الشعب لعدم تعوده عليها.

كان أكري أفريقيًا قحًّا، أسود البشرة فاحمها، له شعر أكث وأسنان بيضاء وعينان واسعتان. وكانت عنصريته مثار فخاره وكبريائه، أحب الخصال الكريمة في شعبه وأعجب بما جبل عليه قومه من قوة الصبر والاحتمال ومضاء الذاكرة وروعة الخيال ووقدة العاطفة وسرعة البديهة وعذوبة الفكاهة.

واعتنقت أسرته الدين المسيحي وهو صبي في الثامنة من عمره بفضل جهود البعثات الدينية وأدخل المدرسة. فما بلغ الخامسة عشرة، صار معلمًا في مدرسة ريفية تبعد عشرين ميلًا عن مسقط رأسه. وفي الثالثة والعشرين كنت تراه ناظر مدرسة تديرها مرسلية مسيحية وفي الوقت عينه يعد نفسه ويروضها للخدمة الدينية. ثم يرحل من أفريقية إلى أميركا ليلتحق بإحدى الجامعات ويحصل على نفقات معيشته بواسطة التعليم وتصحيح مسودات المطابع في ساعات الفراغ. وبعد أن يحصل على درجة الأستاذية والدكتوراه، يرسم قسيسًا في الكنيسة المثودية.

وهناك في أميركا يعهد إليه برعاية كنيستين من كنائس الزنوج وهناك أدرك مشاكل السود وتأهب لعلاجها. وكانت الجماعات التي تولى رعايتها فقيرة، وقد كره البيض هؤلاء السود واحتقروهم. فعول أكري على أن يمد لهم يد العطف والإسعاف، فلم يكتف بوعظهم وإرشادهم، بل علمهم كيف يربون الدواجن ويبيعون البيض، فتحسنت أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية.

ولم تقف جهود أكري عند هذا الحد. فإن محبته لشعبه وبني قومه ومحبته للبيض الذين حملوا إليه رسالة الإنجيل وتعهدوه بالتثقيف والتهذيب وإيمانه المسيحي الحق وعقليته الناضجة– استرعت أنظار ذوي النفوذ والسلطان. فلما تقرر إيفاد بعثة فنية لدراسة أحوال التربية والتعليم في أفريقية، دعي أكري للانضمام إلى تلك البعثة.

والآن تسنح الفرصة لكي يخدم شعبه ولكنه يواجه صعوبات عنيفة، ويجد البيض في أفريقية يحتقرون السود، والسود يكرهون البيض. وقد عومل معاملة تنم عن الازدراء بسبب بشرته السوداء، فلم يسمح له بالنزول في الفنادق التي ينزل فيها البيض ولا

يسافر في العربات التي يسافرون بها. على أنه كان غيورًا مخلصًا لعمله، فلم يمتعض، وكان كبير القلب فلم تجرحه هذه الإهانات الهينة. وحينما كان ينتهر ويزجر، كان يضحك بملئ قلبه، مقتفيًا في ذلك خطى سيده وكثيراً ما كان يتحدث إلى سامعيه بعبارات تمثيلية وأسلوب روائي يأخذ بمجامع القلوب.

وحينما كان يجد البيض والسود يتشاحنون، كان يقول لهم: (في وسعكم أن تلعبوا ألحانًا معينة على الأعواد البيضاء في البيان، وفي وسعكم أن تلعبوا ألحانًا أخرى على الأعواد السوداء. أما اللحن المنسجم الرائع، فلن يمكن إخراجه إلا باللعب على الأعواد السوداء والبيضاء معًا).

ولقد قطع أكري أميالًا كثيرة في أفريقية مخلفًا وراءه صداقة محببة وحماسًا متضرمًا. وألح على الكنيسة المسيحية أن تجعل أفريقية (القارة المسيحية الأولى) وتقدم لبني قومه تعليمًا يهيئ الأخلاق المسيحية والعلوم العقلية ويعلم الشعب الزراعة والجبر معًا ويزود الأفريقي بكل ما هو جميل من علوم الغرب، مع الاحتفاظ بالجميل الحسن في الحياة والأخلاق الأفريقية.

وفي ذلك الوقت كانت تسرى في أرجاء القارة حركة تعليمية ناشطة، وقبل أن يبدأ أكري مهمته في البعثة، كان حاكم ساحل الذهب قد قرر إنشاء كلية أفريقية لأبناء القارة، تتولى تهذيبهم وتعليمهم من رياض الأطفال إلى الطور الجامعي، على أن تكون الكلية مستقلة عن كل رقابة حكومية ويكون مدرسوها وأساتذتها من البيض والسود من الرجال والنساء الذين يعرفون لغات الشعب وعاداته. وقد دعي أكري ليشغل وظيفة نائب الرئيس في الكلية الجديدة.

وبينما كانت تبنى كلية أشيموتا (كما سميت)، كان أكري يطوف أرجاء أفريقية يحدث الناس عنها ويبث الحماس في نفوس مواطنيه. وفي سنة ١٩٢٧م، افتتحت الكلية الجديدة وقد اجتمع ألفان من الخلق في قاعتها الكبرى وأربعة آلاف في الخارج. وكنت ترى في هذا الحشد الهائل أربعين من زعماء القبائل الأفريقيين في ثيابهم الرسمية والعمال

والفلاحين والحضريين والنساء والأطفال والبيض والسود والأوربيين والأفريقيين، يقف بعضهم إلى جانب بعض وقد ارتسمت على وجوههم أمارات البشر والاغتباط وهم يرون هذه المغامرة الجريئة التي يقوم بها المسيحيون.

وكانت أروع ساعة في حياة ذلك البطل الأفريقي المسيحي، تلك التي وقف فيها في الفضاء الفسيح فوق سفح التل وسرح ببصره في أبنية كلية أشيموتا الجميلة الفخمة وملاعبها الحديثة وملحقاتها الكثيرة. وقد قر عينًا أن يرى مواطنيه من شباب أفريقية يتعلمون أن يكونوا زعماء وقساوسة لشعوبهم ويعيشوا مواطنين مسيحيين في أفريقية الجديدة.

كان في أشيموتا صديقًا للسود والبيض، ومواطنًا كريمًا، وطنه العالم كله.

على أنه في سنة ١٩٢٨م يموت موتًا فجائيًا، فتبكيه قارات ثلاث: في أميركا يحمل المواطنون البيض (بساط الرحمة) في جنازته، وفي أشيموتا يجتمع خلق كثير من كل الأجناس في صلاة تذكارية تكريمًا له واعترافًا بفضله. وفي لندن ينشد طالب أفريقي في كنيسة إنكليزية مرثاة يشيد فيها بعمله ويستودع روحه إلى خالقها.

اضطهاد الكنيسة في العصر الحديث:

واجب مفروض على كل مسيحي أن يخص كنيسته الجامعة بالقسط الأوفر من ولائه؛ بحيث يجعل مطالبها فوق مطالب الأسرة أو الأصدقاء أو الوطن. فالرسل الأولون عانوا صنوف الاضطهاد بسبب دعوتهم أن ليس في المسيحية يهودي ولا يوناني. واستشهدت زمر من المؤمنين الأولين لكي يثبتوا للعالم أن ملك المسيح يعلو على ملك قيصر. ومنذ ذلك الحين أثر كثيرون من المسيحيين في كل بلد وفي كل عصر، بذل الحياة رخيصة على الإيمان بإله لا يعرفونه في المسيح أو الخضوع لحاكم أرضي ظالم متعنت يأبى عليهم عبادة ربهم كرماء. وقصة الشهداء لم تنته بعد. ففي المائة سنة الأخيرة، وفي جيلنا هذا، ختم أناس شهادتهم بدم الاستشهاد.

في عصرنا هذا– وفي القرن العشرين– عانت الكنيسة صنوفًا من الاضطهاد ولكن

حوادث الدهر لم تفت في عضدها. ومظالم الطغاة لم تقو على صرعها. وحاولت السلطات في إيطاليا في العهد الفاشستي أن تخضع الكنيسة لسلطانها وتتدخل في التعليم الديني، ولكنها باءت بالخيبة والفشل. وفي ألمانيا حاول النازيون أن يجعلوا من الكنيسة مؤسسة تعبد العنصرية الجرمانية بدل المسيح رب الشعوب كلها، ولكن المؤمنين ثاروا واعترضوا. كمت أفواه رجال الدين وحظرت الاجتماعات الدينية وعطلت الصحف والمجلات، فما أجدى هذا شيئًا. وكان لهذا الاضطهاد أثره في توحيد كلمة الطوائف والكنائس المسيحية وإصدار قرار مؤداه أن الكنيسة المسيحية خلقت لحمل رسالة الإنجيل إلى كل شعوب الأرض، فلا يمكن أن تكون أداة لخدمة أمة من الأمم أو حكومة من الحكومات. وآثر كثيرون من الزعماء السجن والتشريد ومعسكرات الاعتقال على الاستكانة والخنوع.

وأشد اضطهاد في عصرنا الحديث الذي عانته في عهد الثورة الروسية. وقد كانت الكنيسة الأرثوذكسية متصلة بالدولة في العهد القيصري وباتت مستعبدة لمشيئة الحكام الذين كانوا في أكثر الأحيان أشرارًا أردياء وعبث بها القياصرة. وكان اختيار الأساقفة قبل عهد الثورة خاضعًا لرغبة الراهب الخبيث راسبوتين، صاحب النفوذ القوي في البلاط القيصري، ومقت بعض رجال الدين حكم القياصرة ورحبوا بالثورة وخيل إليهم في بادئ الأمر أن العهد الجديد سيضع الأمور في نصابها. فانتخب بطريرك جديد يدعى تيخون وسلمت إليه مقاليد السلطة الكنسية مع السنودس، وأبى كل الإباء أن يتورط في السياسة ونصح مواطنيه أن يطيعوا الحكومة ما بقيت حريصة على الإيمان القويم وحرية الضمير. ولكنه في جسارة وجرأة ندد بأعمال الحكومة حين رآها تقتل المئات من الأبرياء.

عندئذ راح البلاشفة يعاقبون القساوسة بسبب عطفهم على أعداء الثورة ويقتلونهم لمجرد إعطائهم البركة للجيوش المناهضة للثائرين. وبعد ذلك اضطهدوا المسيحيين لأنهم مسيحيون. وفي سنة ١٩١٨م جردوا الكنائس من جميع ممتلكاتها وثرواتها وحتى من آنيتها المقدسة وأحالوا الأديرة متاحف وأبنية الكنائس فنادق ومطاعم ومسارح وصالات رقص. وحظر على المسيحيين أن يطبعوا كتبهم أو يعلموا دينهم في المدارس. وفي سنة ١٩٢٢م، سارت مواكب رهيبة في شوارع موسكو وغيرها من المدن تحمل أشكالًا

مستهجنة ازدراءً بالمسيح ورجال الكنيسة وزعماء الأديان الأخرى.

وفي سنة **١٩٢٣م** حكم على بعض الأساقفة بالموت وعلى البعض الاخر بالنفي والتشريد وأنشئت جمعية إلحادية لاستئصال الدين من قلوب وعقول الشعب الروسي.

ومن أركان تلك البلاد المظلمة رويت الأقاصيص الأخاذة عن آلام المسيحيين في روسيا واستبسالهم وترامت الأنباء إلى الخارج بأنه في وسط هذه الظلمة المدلهمة استطاع الرجال والنساء أن يفتحوا الكنائس ويهربوا الدقيق الأبيض– وهم جياع– لصنع القربان المقدس. وسمعنا عن المنفيين في أقاصي سيبريا يمارسون شعائر دينهم وقيل إن كاهنًا شيخًا قبض عليه الجنود الحمر وسألوه عن علة شجاعته وبسالته أمام التعذيب والموت، فأجاب: (إن القوة التي فينا من الله والاستشهاد زهرة جديدة في تاج المسيح). وروي عن فريق من المتدينين كانوا مسوقين إلى المنفى وهم يحملون الشموع كأنهم في عيد ويهزجون بأناشيد دينية قديمة تشيد بقوة المسيح المقام على الموت والهاوية...

فهل استطاعت البلشفية القاسية أن تنتزع من قلب الشعب الروسي إيمانه القديم؟ إنها لم تفلح واضطرت الدولة أن تمنح الكنيسة في السنوات المتأخرة بعض حريتها المسلوبة وحقوقها المغتصبة، ذلك لأن من طبيعة الاضطهاد في كل العصور أن ينقى الكنيسة المسيحية من أدرانها ويشد قوتها ويحفز همة المتقاعسين من أبنائها.

رأينا الانقسام يطل بقرنيه في الكنيسة منذ العصور الأولى. وكان مرد هذا أحيانًا إلى سوء الفهم الذي خلقه تباين اللغات بين الشعوب التي دانت بالمسيحية وإلى التحاسد العنصري والاضطرابات السياسية. ولكن كان مرده في أحيان أخرى إلى عقائد متأصلة في النفوس وإلى خلاف في الرأي بين المسيحيين. ولقد أحست طوائف من الناس أن وصايا ربنا قد خولفت وتعاليمه أفسدت وكنيسته أهينت، فآثروا الانفصال عن إخوانهم ومعاناة الألم والعراك على البقاء معهم وهم على تلك الحال. ولقد كان الانقسام بين المسيحيين داخل الكنيسة الواحدة حادثًا بشعًا يؤسف له، على أننا لا ننكر أنه كان أحيانًا وراء تلك المنازعات القديمة والاضطهادات الطائفية القاسية شيء كثير من المثل العليا النبيلة

والبسالة الخالصة الحقة.

وبدأ الانقسام في تاريخ مبكر يرجع إلى القرن الثاني، ثم بعد قرون انفصلت الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية وانفصلت جماعات أخرى عن الكنيسة الشرقية. وبعد هذا تنشق الكنائس اللوثرية والمصلحة والكنيسة الإنكليزية عن الكنيسة الكاثوليكية ويعقب هذا انقسام الكنائس اللوثرية والمصلحة على ذاتها وتعددها شيعًا وطوائف...

ولكن في هذا القرن الأخير، تمتلئ نفوس المسيحيين بالخجل والخزي جراء هذا الانقسام التعس ويبدو قويًا روح التعاطف والتفاهم بين الطوائف. ولقد شاهدنا في بلدان كثيرة جماعات المسيحيين تتحد أمام الخطر الذي تستهدف له من الحكومات أو الدول غير المسيحية وتتكتل للمحافظة على حقوقها وحريتها. وفي العالم اليوم كثيرون يرفعون الأدعية لله لحلول اليوم الذي يتحد فيه المسيحيون في كنيسة مقدسة جامعة رسولية.

وقد تبدت روح الوئام بطرق وأساليب شتى. فالمسيحيون من مختلف الطوائف يعملون معًا في تعاون ومؤازرة كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا في نواحي النشاط الاجتماعية والدينية. وفي أواخر القرن التاسع عشر، نهضت جمعية بين الطلبة هي (حركة الطلاب المسيحية**Student Christian Movement**) في إنجلترا وأميركا وتضم مندوبين من أكثر من أربعين مملكة في العالم، يعملون لتوطيد أواصر الصداقة والتفاهم والتعاون بين الكنائس. وفي سنة ١٩٠٦م أنشيء المجلس المتحد للتهذيب المسيحي، وفي سنة ١٩١٠م انعقد مؤتمر المرسليات الدولي في أدنبرة. وتمخض هذا المؤتمر عن تشكيل المجلس الدولي للمرسليات المسيحية. الذي عقد في سنة ١٩٢٨ في مدينة القدس في قصره أعاره بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية وقد حضره مندوبون من إحدى وخمسين دولة بينهم كثيرون من كنائس آسيا وأفريقية. ومرة أخرى في مدارس من أعمال بلاد الهند في سنة ١٩٣٨– وإلى جانب اتحاد المرسليات المسيحية نهضت حركة اتحاد الكنائس ذاتها؛ ففي سنة ١٩٢٦ عقد مؤتمر مسكوفي للكنائس المسيحية في مدينة استوكهولم ـ عاصمة السويد ـ لمعالجة المشاكل العملية في حياة الكنيسة بالعالم كله. ثم مؤتمر آخر في سنة

١٩٢٧ في مدينة لوزان لمعالجة مشاكل الإيمان والعقائد. وفي سنة ١٩٣٧ عقد مؤتمر في أكسفورد، وفي السنة عينها مؤتمر آخر في أدنبره. وتمخض المؤتمران عن تشكيل الهيئة العالمية الدولية للكنيسة المسيحية وعقدت أولى مجتمعاتها في مدينة أمستردام في صيف سنة ١٩٤٨م.

وفي جميع هذه المؤتمرات الدولية يشرح المسيحيون على اختلاف طوائفهم وجهات نظرهم وينعون بقلوب مخلصة أي انقسام أو انشقاق في الكنيسة الواحدة.

وقد تم الاتحاد بين بعض أفرع الكنيسة، وخاصة الطوائف البروتستانتية، وتضامت طوائف أخرى لتكون كنيسة واحدة، كما حدث في سنة ١٩٤٨م في جنوب الهند، يوم اتحدت الكنائس الأسقفية والكنائس الحرة واندمجت لتكون كنيسة هندية واحدة.

عل أنه ما زال أمام الكنيسة المسيحية مرحلة طويلة يجب أن تقطعها قبل أن تزول كل أسباب الفرقة والانقسام وتبلغ الهدف الذي تهفو إليه نفس كل مسيحي صادق في رؤية الكنيسة الجامعة الواحدة كما أرادها أن تكون ربها وسيدها.

كلمة ختامية:

وها نحن شارفنا على نهاية القصة التي لم تنته بعد، قصة الكنيسة المسيحية التي تشبه مشهدًا عامًّا، فيه أنوار وظلال، يأخذنا تارة إلى ذروة النصر والكمال ويهوي بنا أخرى إلى حضيض الخيبة والفشل، يطلعنا يومًا على اتحاد رائع مكين ويصور لنا يومًا انقسامًا ممقوتًا تعيسًا. ولكن في جميع هذه المناظر المتقلبة قد أفلحت، بما انطوت عليه من قوة إلهية، أن تجدد حياة الناس وتروض الطبيعة البشرية الجامحة. وهي في هذا الجيل تواجه الفلسفة المادية والحضارة العالمية، ألواناً من الإعنات بأساليب ماكرة خفية– بالعزيمة عينها التي واجهت بها قوات الشر في تاريخها الماضي الطويل. والأحداث التي رويناها الآن تؤيد لنا أن المستقبل لها وأن حقها سيصرع باطل العالم. وقد يكون الصراع عنيفًا والعراك قاسيًا، ولكن يد الله التي ناصرتها في العشرين قرنًا المنصرمة، ستدفعها قوية جارفة لتأسيس ملكوت الله على الأرض وتكميل مواعيده ونبواته.

ولقد شهدنا في سير بعض الشخصيات البارزة كيف أنفق صنوف من الناس قواهم وملكاتهم وحياتهم في خدمة الكنيسة، شهدنا رجال الدين والعلماء والملوك والفرسان والدعاة والكتاب والأطباء والشهداء– كلا منهم يؤدي رسالته على طريقته الخاصة.

ونحن نعيش اليوم في أوقات عصيبة خطيرة يفتقر فيها العالم إلى خدمة مسيحية من كل صنوف الناس– من القساوس والعلماء ومن الحكام ورجال الاقتصاد، من الفلاحين والعمال، من الأطباء والمهندسين– من كل مهنة أو حرفة لخدمة الكنيسة وتكميل مشيئة الله على الأرض. وإن زاد حلك الظلام وتفاقم الشر والخطر، فإن الكنيسة تفتقر أيضًا إلى الشهداء لتجديد حياتها وإذكاء حيويتها.

والعظماء الذين ذكرناهم، أنجبتهم طوائف مختلفة، ولكن ظللهم كلهم علم الكنيسة الواحدة التي تدين بالطاعة والولاء لربها الواحد وسيدها الواحد، وإن اختلف الأتباع في التفكير والتأويل. وإنها لأمنية عزيزة تجيش في صدر مؤلف هذا الكتاب أن يحب كل قارئ الطائفة التي ينتمي إليها ويخدمها ويكرمها. ولكن أعز أمانيه وأقدسها أن يخدم القارئ الكريم الكنيسة الجامعة التي سلخت من العمر عشرين قرنًا وأن يحيا ويفكر لكي تمحى كل أسباب الخلاف بين الطوائف المسيحية، فيتقدم الشعب المسيحي بقلب واحد وبإيمان وشجاعة ويسير في موكب التاريخ، رافعًا علم الجهاد، واثقًا بأن المستقبل للمجاهدين المتقين.

مصادر الكتاب

- Short History of the Christian Church, C.P.S. Clarke
- A First Church History, Vera E. Walker.
- The First Five Centuries of the Church. James Mofatt.
- A History of the Christian Church. W. Walker
- Qutlines of Church History, Rudolf Sohm.
- A History of the Medieval Church, M. Deanesly.
- The Churches of Eastern Christendom, B.J. Kidd.
- الدرر النفيسة في مختصر تاريخ الكنيسة، أغناطيوس أفرام الأول برصوم مجلدات مجلة (الشرق والغرب).

الفهرس

القرن الحادي عشر

القرن الثاني عشر

القرن الثالث عشر

القرن الرابع عشر

القرن السادس عشر

القرن السابع عشر